

دفتر الرئيس

رواية

سمير الزين

سمير الزين

دفتر الرئيس

رواية

دفتر الرئيس **«رواية»**

تأليف: سمير الزبن

دار الحرية للنشر

الطبعة الأولى: ٢٠١٨

«إنّ أعظم الشرور في العالم يرتكبها أشخاص نكرات»

حنا أرندت

الإهداء

إلى ضحايا الجحيم السوري

□

أي تشابه بين شخصيات وأحداث هذه الرواية وبين شخصيات وأحداث في الواقع، هي محض صدفة غير مقصودة، وأن أحداث هذه الرواية وشخصياتها هي من نسج الخيال المحض.

تمهيد

ربيع عام ٢٠٢٢

المغرب - الرباط

أسرّ لي أبي، أن الرئيس في أواخر أيامه في دمشق اختبأ في شقة سكنية في البنايات العالية في نهاية منطقة المزة التي يفصلها عن داريا اوتوستراد المتحلق الجنوبي. انتظر بعض الوقت هناك، حتى يستطيع الوصول إلى مطار المزة العسكري، لم يكن بمقدوره اجتياز المنطقة الفاصلة والمفتوحة بين البنايات في نهاية منطقة المزة والمطار الذي حاصره الثوار من كل الجهات قبل أشهر من هروب الرئيس من دمشق إلى اللاذقية، كما قطعوا كل الطرق من وإلى المدينة. وقد تجمع في المطار كل الضباط والعناصر التابعين لجهاز أمن القوى الجوية، الجهاز الأكثر وحشية في قمع الاحتجاجات السورية منذ انفجرت قبل أكثر من عشر سنوات، فالمطار كان المقر الرئيسي لفرع المخابرات الجوية،

ولم يستطع المتمردون قصفه بكثافة، بعد عزله عن مدينة دمشق في المنطقة الفاصلة بين نهاية أوتستراد المزة وبين المطار وامتداده في منطقة السومرية، حيث يفصل بينهما حوالي كيلومترين فقط، كانت هذه المسافة مقنوصة من الثوار بالأسلحة الخفيفة، وبعض الأحيان يتم قصفها بمدافع الهاون. وقد عرف الثوار أن المئات من رفاقهم المعتقلين كانوا موقوفين في سجن المطار واستخدموا ضدهم دروعا بشرية لوقف القصف العنيف عليه. لذلك، اقتصر القصف على محيط المطار وإحكام الحصار عليه حتى استسلام المحاصرين فيه وتحرير المعتقلين منه. كان المطار الطريق الوحيد الذي يستطيع الرئيس مغادرة دمشق من خلاله، رغم كل المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها، لأن كل الطرق البرية الأخرى المؤدية من دمشق إلى مدن الساحل كانت مقطوعة. بقيت بعض المروحيات تخرج منه بين الحين والآخر، أو كانت تُسقط المواد التموينية والذخيرة وغيرها من المستلزمات للمحاصرين في المطار، ولم يعد هناك طريق يُوصل إلى هناك سوى الجو، ولم يعد هناك إمكانية لهبوط مروحية في قلب مدينة دمشق دون إسقاطها المؤكد من قبل الثوار الذين يحاصرون المربع الأخير الذي يُسيطر عليه مؤيدو

الرئيس في المدينة. احتمال نجاح المغادرة لم يكن يتوفر سوى عبر مطار المزة العسكري. لذلك، كان على الرئيس أن يصل إلى المطار أولا، إذا أراد مغادرة دمشق إلى اللاذقية. الطرق المؤدية للمطار كلها مغلقة ومقنوصة، المناطق المحيطة به مكشوفة، وأي سيارة أو آلية يمكن أن تسير على الطريق المؤدي إلى هناك مصيرها التدمير. احتاج الرئيس أن يصل إلى الثانوية التجارية الثالثة للبنات والواقعة في آخر أوتوستراد المزة، والتي تحولت منذ زمن بعيد إلى مقر خلفي للمخابرات الجوية. وقد تم حفر نفق تحت الأرض يصل الثانوية بالمقر الرئيسي للمخابرات الجوية في قلب المطار كطريق احتياطي آمن منذ نحو العام، ولكنه لم يستخدم إلا عندما قطع المتمردون كل الطرق المؤدية إلى المطار.

لم يعد الرئيس قادرا على البقاء في دمشق بعد سيطرة المتمردين على مناطق واسعة من مدينة دمشق، قادمين من الغوطة الشرقية ومن المنطقة الجنوبية، حيث سيطروا على أحياء الميدان والعباسيين والتجارة واقتحموا مناطق جرمانا وباب شرقي وصولا إلى قلب دمشق على حدود منطقة كفر سوسة، بعد معارك ضارية على كل الجبهات. بعد هذه المعارك أصبحت القوات الموالية للرئيس محاصرة داخل مربع

ضيق في قلب دمشق، حيث اقتصرت سيطرتها على حي المهاجرين مقر الرئيس وامتداده إلى وسط المدينة وصولا إلى منطقة المجتهد عبر جامعة دمشق، ونزولا إلى ساحة العباسيين ومباني هيئة الأركان وقيادة القوى الجوية، وصولا إلى نهاية اوتستراد المزة من جهة كلية الآداب حتى نهاية الأوتستراد، حيث تنتهي هذه السيطرة التي تفصلها مسافة قصيرة عن المطار العسكري المحاصر، وأصبحت المنطقة المقابلة لمطار المزة العسكري من جهة اتوستراد المزة تتعرض لقصف عنيف من كل المناطق المحيطة التي يتواجد فيها الثوار، لمنع أي تواصل بين المطار وما تبقى من مدينة دمشق التي يسيطر المؤيدون للرئيس عليها.

انهارت القوات المقاتلة الموالية للرئيس بشكل سريع بعد التغيرات التي شهدتها الدول الحليفة للرئيس، فإيران انشغلت بنفسها، وهي التي اعتبرت سورية بمثابة أرض إيرانية واقعة على البحر المتوسط تمنحها تواصلا حتى البحر المتوسط عبر العراق، ويجب الدفاع عنها مهما كان ثمن، لأنها تؤمن لها قاعدة قوية من التمدد الإقليمي على شاطئ المتوسط، في ذات الوقت الذي تحكم إيران فعليا لبنان عبر حزب الله اللبناني. وعندما اندلعت الاحتجاجات ضد الرئيس السوري قبل أحد

عشر عاما، وقفت إيران وراء الرئيس السوري بكل قواتها. بدأت بتصدير الخبرات الأمنية التي كسبتها إيران في التعامل مع تحركات المعارضة الإيرانية عام ٢٠٠٩، وعندما لم تستطع القوات الموالية للرئيس السوري التصدي للاحتجاجات التي تحولت إلى احتجاجات مسلحة عام ٢٠١٢، وبات الوضع خطيرا في حمص. أمرت إيران حزب الله بالتدخل في معركة حمص، وكانت معركة القصير بداية تدخل قوات الحزب في سورية، وهي التي حسمت المعركة هناك. ومنذ ذلك اليوم، أصبح وجود حزب الله قوة رئيسية مقاتلة ضمن القوات الموالية للرئيس في سورية ضد المتمردين أمرا عاديا. استلم الحزب القيادة وأدار المعارك في الكثير من المواقع، وعندما لم يكفِ تدخل قوات حزب الله في المعارك التي توسعت على كل الأرض السورية، مولت إيران مليشيات عراقية وأفغانية وباكستانية شيعية، تحت شعار الدفاع على المراقد الشيعية المقدسة الموجودة في سورية، مثل مقام السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب ومقام السيدة رقية بنت الحسين الموجودين في دمشق، وقد لعبت هذه المليشيات دورا رئيسيا في حسم المعارك على جبهات كثيرة، ومثلت القوة الرئيسية التي حسمت معركة حلب لصالح قوات الرئيس في نهاية عام

٢٠١٦. وقاد هذه التشكيلات القتالية في سورية ضباط الحرس الثوري الإيراني، حيث سقط العشرات منهم قتلى في المعارك على مدار سنوات الصراع. إضافة إلى الإمدادات البشرية لدعم القوات الموالية للرئيس، مولت إيران صفقات السلاح التي أرسلتها روسيا إلى قوات الرئيس، ودفعت ثمن الأسلحة لروسيا. كل هذا لعب دورا حاسما في صمود القوات الموالية للرئيس السوري طوال سنوات الصراع الطويل الذي يدخل مع كتابة هذه السطور عامه الحادي، أي منذ ذلك اليوم في العام ٢٠١١ الذي هتف فيه عشرات الأشخاص مطالبين بالحرية في سوق الحميدية وسط دمشق.

إيران التي تدخلت في مطلع الأزمة، لم تعد إيران نفسها نهاية العام المنصرم ٢٠٢١، فقد باتت اليوم تعاني من أزماتها وانفجار الاحتجاجات في مدنها.

فبعد حصول الولايات المتحدة على معلومات استخباراتية مؤكدة ومدعومة بالوثائق، على خرق إيران للاتفاق النووي الذي توصلت إليه مع الإدارة الأميركية السابقة عام ٢٠١٥، قرر الرئيس الأميركي الجمهوري في مطلع ولايته الثانية إلغاء الاتفاق. وذهبت الإدارة الأميركية إلى الأمم المتحدة، حيث أصدر مجلس الأمن قرارا بفرض عقوبات مشددة على طهران

التي أخلّت بالاتفاق، واحتفظت بمواد مشعة، نص الاتفاق على عدم أحقيتها في امتلاكها، لأنها تُسرّع من حصولها على السلاح النووي، وهو ما يتناقض مع هدف الاتفاق. واعتبر الرئيس الأميركي أن المخالفة الإيرانية للاتفاق تجعله لاغيا، وتعيد الوضع إلى نقطة الصفر، وطالب العالم بتحمل مسؤوليته بمعاقبة إيران وفرض عقوبات اقتصادية وتكنولوجية مشدّدة لمنعها من امتلاك سلاح نووي. وكان على رأسها عقوبات نفطية، حيث طالب القرار أعضاء الأسرة الدولية الامتناع عن شراء النفط الإيراني. أنكرت إيران التهم الموجة إليها واعتبرتها اتهامات «فبركات» من اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة، تمهيدا لشن الحرب عليها خدمة للمصالح الإسرائيلية، وأن سياسة الرئيس الأميركي الحالي تذكر بسياسة سلفه الجمهوري السابق الذي فبركت إدارته أدلة كاذبة عن امتلاك العراق لأسلحة بيولوجية، من أجل احتلال العراق، وهذا ما نفذته تلك الإدارة عام ٢٠٠٣ باحتلال العراق وتدميره وملاحقة رئيسه وإعدامه. ومن أدار الملف التلفيقي في تلك الإدارة من المحافظين الجدد في فبركة الأسلحة البيولوجية العراقية، عادوا ليطلوا برؤوسهم عبر تسلمهم مناصب حساسة في الإدارة الجديدة. لم يستمع أحد

للحجج الإيرانية، وسرعان ما وجدت العقوبات طريقها إلى التنفيذ، ما فاقم تردي الوضع الاقتصادي في إيران، والذي كان قد استنزف بعد عشر سنوات من الانغماس العميق في الصراع الدموي المكلف في سورية، الذي كبدها عشرات المليارات من الدولارات، ومئات القتلى من ضباط الحرس الثوري الذين أرسلوا على مراحل لدعم القوات المؤيدة للرئيس السوري. وفي مراحل كثيرة، انتدب مرشد الثورة الإيرانية قائد الحرس الثوري لقيادة المعارك هناك، وكان لسنوات القائد الفعلي للحرب في الجبهة المؤيدة للرئيس قبل أن يقضي على جبهة دير العصافير في الغوطة الشرقية بسبب قصف صاروخي استهدف تجمعا للقوات المؤيدة للرئيس السوري هناك.

دفعت الأوضاع الاقتصادية المتردية في إيران المرشد الجديد، وهو من ذات التيار المتشدد الذي ينتمي إليه المرشد السابق الذي توفى في مطلع عام ٢٠٢٠ بمرض السرطان، وخلفه المرشد الجديد قبل أشهر معدودات من إلغاء الرئيس الأميركي الاتفاق النووي إلى اتخاذ إجراءات قمعية مشددة في مواجهة الاحتجاجات التي انطلقت منذ عام في الكثير من المدن الإيرانية، والتي تحولت إلى معارك مسلحة في مدن

المناطق الجنوبية العربية ومدن المناطق الشمالية الغربية الكردية. استخدمت قوات الحرس الثوري الرصاص الحي في تفريق متظاهري طهران، وقامت قوات الباسيج باعتداءات وحشية على المتظاهرين في الشوارع والمعتقلات. ما جعل المحتجين الإيرانيين يحولون نشاطاتهم التظاهرية، إلى مظاهرات صغيرة يشارك فيها أشخاص قليلون، كي يتمكنوا من الفرار عندما يأتي الباسيج أو الحرس الثوري، وهو ما أرهق قوات المرشد وشتت قواها.

خلال العام الماضي، وصلت الاحتجاجات إلى كل المدن، وبات الجيش الإيراني الذي نُشر في المدن مع الحرس الثوري قوة القمع الرئيسية منهكين بعد عام من الاحتجاجات المتواصلة، ومن الحصار الخانق دوليا، ما أفقد السلطات والمرشد القدرة على الاستمرار في دعم قوات الرئيس السوري. لذلك سحبت إيران قوات الحرس الثوري والمليشيات من سورية لاستخدامها بقمع الاحتجاجات في مدنها.

أدت الاحتجاجات التي عمت إيران إلى خروجها من سورية كي تتفرغ لمعالجة وضعها الداخلي. كما أدى هذا إلى أضعاف حزب الله وتراجعه إلى الداخل اللبناني بعد تقليص

تمويله من إيران أيضا. وانحسرت سيطرة القوات المؤيدة للرئيس السوري إلى أقل من عشرة في المئة من مساحة البلاد.

ترك الخروج الإيراني آثاره على كل الجبهات، وخاصة في دمشق وحلب، فبعد أن حسمت القوات الموالية للرئيس بفضل الميلشيات الشيعية الممولة من إيران معركة حلب، وتبعتها في العام التالي بتحقيق تقدم في دير الزور وبعدها في الغوطة الشرقية، عادت هذه القوات لتنهار بعد عامين، واستعاد المتمردون أجزاء رئيسة من المناطق التي بسطت القوات الموالية للرئيس سيطرتها عليها، وحاصروا المناطق التي بقيت تتمركز فيها تلك القوات. ومع انهيار دمشق، انهارت مناطق حلب المحاصرة واستسلمت للمتمردين. وجاء التأثير الأكبر من تداعي الأحداث الإيرانية الداخلية التي أدت إلى انهيار القوات الموالية للرئيس في مدينة دمشق ذاتها، ما جعل خطوط القتال تضيق على الرئيس، الذي قال دائما، انه لن يخرج من دمشق. لكن العاصمة لم تعد آمنة له، وباتت أقرب إلى السجن، حيث لم يعد قادرا على مغادرتها أو التجول فيها.

لم تكن الاحتجاجات في إيران وحدها التي أثرت على انهيار القوات الموالية للرئيس في دمشق وغيرها من المدن. بل

الأوضاع المتردية في روسيا، كان لها فعلها المؤثر الإضافي والحاسم في الانهيارات أيضا. فبعد الإطاحة بالرئيس الروسي الذي قرّر التدخل في سورية حفاظا على المصالح الروسية. وصل للرئاسة رئيس جديد على خلفية احتجاجات واسعة على استمرار الرئيس السابق في الحكم لسنوات طويلة. قرر الرئيس الجديد سحب القوات الجوية الروسية من سورية، وإعادتها إلى البلاد، بعد سبع سنوات من التدخل، لم تجد نفعا في حماية الرئيس السوري ونظامه الذي اعتقد الرئيس الروسي المستقيل أنه يؤمن النفوذ لموسكو في البحر المتوسط، ويخدمها في صراعها مع الغرب حول أوكرانيا.

بعد انتخابه للمرة الرابعة، ضاق الروس ذرعا برئيسهم الذي حكمهم لاثنين وعشرين عاما، لم يعودوا قادرين على احتماله بعدما بلغ السبعين، وبات يعاني من أمراض خطيرة ومزمنة منها الزهايمر، حيث بات كثير النسيان، وهو ما ذكرهم بالعهد السوفيتي البائد وحكامه العجائز الذين توالوا على الحكم قبل انهيار الاتحاد السوفيتي. وما فاقم الوضع السيء هو ازدياد المعروض في سوق النفط العالمية كثيرا عن الطلب، ما أدى إلى انهيار أسعاره وبات الاقتصاد الروسي المعتمد على النفط والغاز يعاني من أزمات تضخم

وسعت من الفئات الفقيرة بسرعة ولم تعد هذه الفئات قادرة على التعايش مع أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية المتردية. ما دفع إلى القيام بمظاهرات واسعة احتجاجا على تردي الأوضاع الاقتصادية وإدارة الحكم الديكتاتورية. في بداية الاحتجاجات حاول الرئيس الروسي استخدام القوة قمعها. رفضت القوات الحكومية والشرطة و الكي. جي. بي. أوامر الرئيس باستخدام العنف، وقام الكي. جي. بي. بتسريب خبر أوامر الرئيس بقمع المتظاهرين وإطلاق النار عليهم إلى الصحافة مع التأكيد على رفض الشرطة والأجهزة الأمنية لأوامر الرئيس، ما أجبر الرئيس على الاستقالة. بعدها تم إجراء انتخابات مبكرة، وصل فيها رئيس جديد الى قصر الكرملين على خلفية شعارات تهدئة مع الغرب وانكفاء إلى الداخل ، بعد التورط في الصراع في سورية، لامتصاص ومعالجة حالة التردي السياسي والاقتصادي التي عاشها الاقتصاد الروسي خلال السنوات الأخيرة.

مع انسحاب القوات الجوية الروسية من سورية والتي أمنت لسنوات التفوق والأفضلية للقوات الموالية للرئيس، خسرت الأخيرة ميزاتها أمام الثوار. فلم تعد البرية محمية من قوة نيران قوية ورادعة، وباتت القوات على الجبهات متساوية

في الإمكانيات تقريبا، ما أدى إلى انهيار الجبهات الموالية للرئيس أمام هجمات الثوار وانهيار معنويات المؤيدين الذين شعروا بالخوف جراء الانسحاب الإيراني والروسي من سورية. وأصبح الرئيس مجبرا على الهروب إلى ما اعتبره قاعدة خلفية قوية تشكلها مدن الساحل السوري حيث تتمركز طائفته هناك.

بعد تهريب الرئيس السوري عبر النفق إلى داخل مطار المزة العسكري، تم نقله إلى اللاذقية، وقد نجت المروحية التي حملته إلى هناك بأعجوبة من إطلاق نار أرضي تعرضت له من منطقة داريا.

في اللاذقية، عاد الرئيس ليتحدث عن حرب تحرير شعبية تحرر كل الأراضي السورية من الإرهابيين وأسيادهم، وأن المعركة مستمرة حتى النصر. كانت الحرب بعد أحد عشر عاما قد حصدت أكثر من مليون قتيل وخمسة ملايين جريح وسويت عشرات آلاف المنازل بالأرض. أصبح أغلب السكان بلا مأوى، وحوالي عشرة ملايين باتوا لاجئين في دول الجوار. الساحل بمدنه الثلاث اللاذقية وطرطوس وبانياس، بات المنطقة الوحيدة التي يسيطر عليها مؤيدو النظام، وهي أقل المناطق عرضة للدمار، لأن جلّ المعارك

دارت في المدن الأخرى، دمشق وحلب وحماة وحمص وادلب والرقة وغيرها. أما المدن الساحلية فكان نصيبها من المعارك متواضعا. وإذا كانت هذه المناطق قد تعرضت لتدمير أقل من الناحية العمرانية، فإن تدميرها الاجتماعي كان كارثيا. لقد شكلت المنطقة خزان الوقود البشري الكثيف للقوات المؤيدة للرئيس على كل الجبهات الأخرى، وباتت كل العائلات العلوية قاطبة مصابة بشبابها أو رجالها بفعل الحرب، والكثير من العائلات فقدت كل رجالها في أتونها. هروب الرئيس من دمشق إلى اللاذقية وظهوره هناك مهددا متوعدا باستمرار الحرب، أشعل جبهات الساحل، وأصبحت تشهد معارك طاحنة لم تشهدها هذه المناطق من قبل. وكان واضحا أن الدمار قادم، حيث عشرات الفصائل المسلحة التي أدمتها حرب الرئيس تريد الانتقام منه، فحشدت قواتها من أجل اقتحام المناطق الأخيرة التي يسيطر عليها. في هذه الظروف تحول الرئيس إلى مشكلة للمناطق التي يسيطر عليها مؤيدوه.

فجأة، أعلنت لجنة من كبار القادة من الطائفة العلوية، مقتل الرئيس وشقيقه ومعهما رئيس فرع أمن القوى الجوية في انفجار استهدف سيارة يستقلونها، كما قال الخبر الذي

نُسب إلى لجنة كبار القادة في اللاذقية. لكن أخبارا أخرى تحدثت عن قرار بتصفية الرجال الثلاثة لأنهم يشكلون عبئًا، وأن هذه التصفية تمت بتفجير في غرفة اجتمع فيها الثلاثة مع بعض مؤيديهم. وهناك رواية أخرى تقول، تمت تصفيتهم بإطلاق النار عليهم بقرار من الطائفة لتجنيب المنطقة مصير المدن المدمرة الأخرى.

بصرف النظر عن الطريقة التي قُتلوا فيها فقد خفّف غيابهم عن المشهد السياسي، زخم الحشود على المناطق المؤيدة الباقية ما أدى إلى تراجع حدة المعارك على الجبهات.

كان قرار التصفية يعني أن الطائفة العلوية لم تعد قادرة على احتمال المزيد من الخسائر، وعرفت أنه لا يمكن الخروج من الدائرة الجهنمية التي وضعهم الرئيس المنحدر منهم فيها، سوى بتغييبه عن الساحة، بتصفيته مع الشخصيات الأكثر تورطا في الحرب، حتى يتسنى الحديث عن حل للخروج من الحرب.

بعد مقتل الرئيس وشقيقه، أصدرت لجنة القادة من العلويين بيانا: يدعو إلى السلام بين الأطراف المتصارعة، بعد حرب خسر الجميع فيها وسالت دماء كان يمكن تجنبها بالحوار والمفاوضات بعيدا عن استخدام السلاح. وأضاف

البيان أن لا منتصر في الحرب التي دمرت البلد، وأنه آن الأوان لوضع حد للدم النازف في سورية من خلال حل توافقي بين جميع الأطراف المتصارعة.

لم تُلاقِ هذه الدعوات آذانا صاغية، لكنها خففت من الضغط العسكري على جبهات المدن الساحلية. فمع غياب الرئيس لم يعد هناك طرف يدعي أنه الشرعية في سورية، وباتت جميع القوى العسكرية ميليشيات متقاتلة. أخذت الكثير من المناطق التي يسيطر الثوار عليها تتقاتل مع بعضها، كل مجموعة تسيطر على منطقة تحاول التمدد على حساب مجموعات أخرى في المناطق المجاورة. ورغم الدعوات بعد مقتل الرئيس من أجل الوصول إلى حل توافقي بين الفصائل المتقاتلة في سورية، والتي جاءت من الكثير من الأطراف الخارجية، وحتى من الأمم المتحدة، إلا أن هذه الدعوات لم تلقَ آذانا صاغية، وباءت كل الجهود، التي بذلتها أطراف متعددة لإيجاد حل سياسي للصراع الدائر، بالفشل المرة بعد الأخرى.

عرف أبي بأمر الشقة التي اختبأ الرئيس فيها بمنطقة المزة قبل هروبه عبر نفق مطار المزة العسكري، حسب ما روى لي، لأن الرئيس عندما كان يتم إعداده ليخلف والده في

الرئاسة، شغل رئاسة الجمعية المعلوماتية، حيث عمل أبي لسنوات طويلة، وكان شخصا موثوقا بالنسبة له، كلفه بشراء ثلاث شقق في ثلاثة أمكنة مختلفة من دمشق، وثلاث سيارات على أن تكون دائما جاهزة للاستخدام. والشقة التي اختبأ بها الرئيس واحدة من الشقق الثلاثة التي اشتراها أبي، وسجلت باسمه في السجل العقاري. كانت هذه الشقة مكانه المفضل خلال رئاسته وقبلها للهروب من المسؤوليات ولمقابلة عشيقاته. لم يقابل أبي الرئيس منذ زمن طويل، لكنه قدّر بعد معرفته أخبار فرار الرئيس إلى اللاذقية، أن الرئيس لا بد أن يكون قد اختبأ في هذه الشقة حصر حتى يصل إلى مطار المزة.

عندما عرفت بأمر الشقة في اليوم التالي لهروب الرئيس، أخذت مفاتيحها من أبي، وتسللت إلى هناك، لم نكن نسكن بعيدا عنها، بيتنا الواقع في البناية المقابلة لبنك الدم في المزة يبعد عن الشقة حوالي كيلومترين فقط، والمسافة بين بيتنا والشقة التي اختبأ فيها الرئيس ما زالت تحت سيطرة المؤيدين للرئيس. قرّرت أن أخوض هذه المغامرة، رغم خوفي الشديد من عواقبها. عندما وصلت إلى الشقة كنت أرتجف، فضولي كان أقوى من الخوف، ولم أستطع اختراع رواية عن

سبب تواجدي هناك إذا وجدت أحدا يشغل الشقة، أو إذا أوقفني حاجز لأي من الطرفين، وسألني عن سبب تواجدي، لم يكن لدي ما أبرّر به وجودي في تلك المنطقة. قلت لنفسي أخترع الرواية هناك، وحسب الجهة التي تسيطر على الشقة، أو الجهة التي يوقفني حاجزها. عندما فتحت الشقة ودخلت، أدركت أن أحدا لم يدخلها قبلي على الإطلاق بعد مغادرة الرئيس، إذا كان فعلا اختبأ بها كما خمّن أبي. صحيح أنها تعيش حالة فوضى، لكن يبدو أن هذه الفوضى نجمت عن تردد الرئيس بشأن ما سيأخذه معه وما سيتركه خلفه. فتشتها بسرعة، لم أجد فيها شيئا ذا أهمية، سوى حقيبة جلدية سوداء صغيرة متروكة داخل خزنة حديدية كبيرة مفتوحة فارغة سوى من هذه الحقيبة، وأعتقد أنه تم نسيانها في حالة الإرباك التي كان يعيشها الرئيس ومن معه، ولم تترك قصدا، فمن الواضح أن الرئيس قرّر أن يأخذها معه، وكان بالتأكيد قد أحضرها معه، ولم تكن موجودة مسبقا في الشقة. فتحت الحقيبة، نظرت داخلها بسرعة، قدرت أن فيها أوراق ووثائق مهمة، وأن تخميني صحيح، يبدو أنه نسيها وهو في عجلة من أمره. ما تبقى من أشياء في الشقة، لا أهمية له، وهو عبارة عن حقائب ملابس وبعض

الكتب وإكسسوارات وأثاث الشقة، وبار فيه أنواع مختلفة من المشروبات الكحولية. لم أكن قادرا على نقل الكثير بسبب الأوضاع الأمنية في المنطقة، وحتى لا ألفت الانتباه، فقررت أن أخرج بالحقيبة فقط، والمغادرة بأسرع وقت، لأن هناك قصفا عنيفا بدأ يستهدف المنطقة من جهة داريا. حملت الحقيبة الجلدية وهربت.. كنت محظوظا، فلم يوقفني أحد، ولم أصادف في طريقي أي حاجز.

في المنزل تفقدت الأوراق، كان فيها إشعارات تحويلات بنكية، وعقود شراء لشقق، عقود لشركات، وغيرها الكثير من الأوراق. أهم ما كان في الحقيبة، هو سندات خزينة أميركية لحاملها تساوي خمسة ملايين دولار أميركي، ودفتر سميك بغلاف كحلي اللون بحرف مذهب، كل الدفتر مكتوب بخط يد شخص واحد. عندما تصفحته، خمّنت أن الرئيس هو الذي كتبه، وعندما قرأته تأكدت أنه من فعل ذلك.

بالنسبة لي، لم يعد هناك إمكانية للبقاء، قرّرت مغادرة دمشق لأن الوضع أصبح لا يطاق، أجواء المدينة في غاية السوء، الحواجز في كل مكان، ولا تعرف الجهة التي تتبع لها هذه الحواجز. قرّرت أن أصطحب معي سندات الخزينة

ودفتر الرئيس وأهرب من البلد. فكرة أخذ دفتر الرئيس معي أخافتني، لأن جميع الحواجز التي سأقطعها في الطريق إلى بيروت يسيطر عليها الثوار وسيكون مصيري في غاية السوء إذا وقع الدفتر بيد أحد عناصر هذه الجهات على واحد من الحواجز، فهم ما زالوا يبحثون عن مؤيدي الرئيس الذين ألقوا سلاحهم وتخفوا بين المدنيين. لذلك، لم أجرؤ على اصطحاب دفتر الرئيس معي. صوّرت الدفتر ببرنامج PDF وأرسلته من بريدي الالكتروني إلى بريد الكتروني آخر يعود إليّ أيضا، احتفظت به على هذا العنوان وحذفته عن الأول. أخفيت النسخة الأصلية في حقيبة سفر صغيرة، وضعت فيها بعض الملابس والكتب والدفاتر الأخرى. طلبت من أحد السائقين على خط السفر إلى بيروت أن يوصل الحقيبة إلى زوجتي التي تقيم مع أولادي الصغار هناك، حيث أخرجت عائلتي من دمشق إلى بيروت قبل أكثر من أربع سنوات. أخبرت زوجتي هناك، أني سأرسل لها بعض الأغراض وعليها استلام الحقيبة من السائق والاحتفاظ بها دون فتحها إلى حين وصولي. عندما حضر السائق لأخذ الحقيبة، قال لي: «عندك مانع أنظر ماذا تحتوي الحقيبة، أنت تعرف الحواجز لا ترحم، إجراءات أمنية ضرورية، قد يكون هناك شيء في

الحقيبة أنت لا تعرف أنه ممنوع، وأنا صرت خبيرا في الممنوعات.» قلت: «فتشها كما تشاء. ليس فيها ما يستحق الذكر.» قلّب الملابس في الحقيبة، قلّب الكتب والدفاتر المستعملة، ومن بينها دفتر الرئيس.. لا شيء مريب في الحقيبة. قال معتذرا: «حقك عليّ، والله الوضع لا يرحم، والشغل صار صعب كثير.» وصلت الحقيبة إلى بيروت دون مشاكل، لحقتُ بالحقيبة بعد أربعة أيام. قبل انطلاقي، أخفيّت سندات الخزينة في ملابسي الداخلية، حيث استخدمت زوجا من الشيال الداخلي، قمت بوضع السندات بين الشيالين وقمت بخياطتهما ليصبحا واحدا، وكان مسار الخيط على محيط السندات تماما بحيث لا تتحرك أثناء تنقلي، وقد ساعدتني ملابس الشتاء التي كنت أرتديها على إخفاء السندات، فقد غادرت دمشق في شهر شباط. وقف الحظ معي في ذلك اليوم، فقد كان يوما باردا، الرجال الواقفون على الحواجز غير قادرين على التفتيش من شدة البرد، وراحوا يمررون السيارات سريعا من أجل العودة إلى داخل محارسهم هربا من الصقيع. رغم ذلك شعرت أن المسافة بين دمشق وبيروت التي لا تزيد عن مئة كيلو متر، كأنها ببعد المريخ.

غادرت دمشق إلى بيروت بعد هرب الرئيس من دمشق، بقيت هناك حوالي أربعة أشهر، ريثما رتبت وضعي من أجل مغادرة لبنان إلى جهة أخرى. اخترت أن أستقر في المغرب، حيث اشتريت معملا لصناعة المناديل الورقية هناك بالقرب من العاصمة الرباط بجزء من ثمن سندات الخزينة التي جلبتها معي إلى لبنان. منحتني ملكيتي لهذا المعمل إقامة العمل الاستثمارية في المغرب، فغادرت مع عائلتي إلى هناك. وهي فرصة لا تتوفر للكثيرين، فاليوم بعد أحد عشر عاما من الحرب في سورية، لم تعد أي دولة في العالم تسمح للسوري بدخول أراضيها، إلا بشروط قاسية، أو إذا كان يملك المال، وبذلك يدخل بعض البلدان كمستثمر، وهكذا دخلت أنا المغرب، حيث أقيم.

فكرت طويلا بمصير دفتر الرئيس، ماذا أفعل به؟ بعد تفكير طويل قررت إرسال نسخة عنه إلى دار للنشر في لندن، مع شرح ملابسات الحصول عليه من أجل نشره كوثيقة تاريخية، تصور كيف كان الرئيس ينظر إلى هذا الصراع المستمر منذ سنوات طويلة. لم أصرح عن هويتي. فأنا لا أريد أن أتسبب لنفسي بالمشاكل، من خلال صلة ما مع الرئيس السوري المقتول ولا أريد الظهور في مركز الصورة، وأن يتم

سؤالي من أين لك هذا، سواء كان ذلك بالنسبة للدفتر، أو بالنسبة للمال، أو كليهما؟

يبدو أن دار النشر، لم تأخذ الموضوع على محمل الجد، واعتبرتْ عدم الإعلان عن هويتي مؤشرا على عدم مصداقية الدفتر وعدم جدية المُرسل. ويبدو بالنسبة لها، لا يكفي أن يقول شخص مجهول أن هذا الدفتر يعود إلى الرئيس السوري المقتول، حتى يتم التعامل مع الأمر بجدية. ويمكن أن تكون الدار، اعتبرت مرسل المخطوط شخصا مغرضا، يلفق كلاما على لسان الرئيس السوري المقتول لأسباب خفية. قلت لنفسي، من المنطقي أن تفكر دار النشر بهذه الطريقة، وتعتبر أني لا أملك أسبابا موضوعية وقوية تحدّد لمن يعود هذا المخطوط فعلا، ولو كنت أملك مثل هكذا أسباب، لما كنت بحاجة إلى التخفي. قد تكون الدار محقة بتفكيرها هذا. وقد يكون أصحابها لم يفكروا أصلا بالموضوع وأهملوا المخطوط لأنه جاء من جهة غير معروفة. لكن النتيجة في النهاية واحدة، هي أن هذا الدفتر لم يرَ النور، ولم يجد طريقه إلى النشر.

دفتر الرئيس

١

عندما استدعت أمي العرّافة التي اشتهرت بقراءة الطالع في منطقة غباغب القريبة من مدينة درعا، كان قبلها الكثير من المسؤولين في الدولة، وزراء، وضباط في الجيش، ومدراء عامون، حتى ضباط أمن كبار، قد تقاطروا عليها، ليطلعوا على المستقبل الذي ينتظرهم في البلد، هذا المستقبل الذي كان فعليا بيد أبي لا بيد القدر والعرّافة. لم تكن العرّافة تلبي الدعوات إلى المنازل مهما كانت صفة أو وظيفة الشخص الذي يدعوها لتقرأ له الطالع. أما بالنسبة لأمي، فالموضوع مختلف، طبعا، لبت المرأة الدعوة، فليس هناك في سورية من يستطيع رفض دعوة زوجة الرئيس. استدعتها أمي لتقرأ لها مستقبل العائلة ومستقبل الرئيس تحديدا، رغم عدم قناعتها بأن هناك من يقرأ المستقبل، فعلت أمي ذلك بدافع

التسلية والفضول. عندما حضرت، قالت المرأة كلاما جميلا حول مستقبل الرئيس والعائلة والبلد، أي قالت الكلام الذي قدّرت أن أمي ترغب في سماعه. أنا الوحيد من عائلة الرئيس الذي رأتني المرأة، عندما دخلت الغرفة صدفة، دون أن أعرف بوجود أحد فيها. كنت مراهقا نحيلا ومتعبا طوال الوقت، وأشعر بالإرهاق بفعل الملّل الدائم. عندما رأتني المرأة قالت وهي تنظر إليّ: «ما شاء الله، الله يحرسك من كل عين يا بني.» التفتت إلى أمي وقالت: «يا خانم، ابنك هذا ينتظره مستقبل عظيم في البلد.» ضحكت أمي وقالت: «أنت تجامليني لأنك شاهدته، لو شاهدت أي واحد آخر من أخوته، كنت ستقولين الكلام نفسه.» قالت المرأة: «أبدا، هذا الولد سيكون له مستقبل عظيم دون أخوته الآخرين، أنا أراه يجلس على كرسي كبير في مكان عالٍ والجميع ينظرون له بحب ويطلبون رضاه... سيأتي يوم وستتذكرين كلامي هذا، وقتها ستعرفين كم كنت صادقة.» ضحكت أمي من نبوءة العرّافة، التي تابعت كلامها «تذكري يا سيدتي، إنّ الله يضع سره في أضعف خلقه.» لم أعرف هل تقصدني أنا بأضعف خلقه، أم تقصد نفسها. توقفت أمي عن الضحك عند هذه الكلمات. وسألت بجدية: «ما الذي يجعلك

تقولين هذا الكلام؟» قالت العرافة: «لطالما جاءتني الرؤيا أن المحروس، الابن الثاني للسيد الرئيس سيكون له دور عظيم، أليس هذا ابنك الثاني؟» قالت أمي: «هذا صحيح.» أكملت المرأة كلامها: «أنا لم أره من قبل ولا أعرف أي واحد من أبنائك هو، وعندما دخل، عرفته، فهو نسخة عن الصورة التي أتتني في المنام. لم تأتني الرؤيا مرة أو اثنتين، بل تكرّرت عدة مرات، وهذا ما يجعلني متأكدة مما رأيت، ومما سيكون عليه مستقبل هذا الشاب الجميل والنحيل وهو دور أكبر من أي دور لأخوته جميعا، وأكبر من أي شخص آخر في هذا البلد، هكذا تقول الرؤيا.» التفتت أمي إليّ وقالت لي: «أَسَمعت ما قالت؟» لوحت بيدي مستنكرا وقلت: «هذا كلام فارغ. لا أريد أن أكون شخصا هاما.» قالت أمي: «كل شيء ممكن يا ابني. في الحياة الكثير من الأشياء المدهشة التي تنتظرنا.» أشحت بيدي مرة أخرى، وقلت: «اتركينا من هذا يا أمي.» سمعت المرأة وأنا أخرج من الصالة تقول: «والله يا ابني هذا ليس من عندي، إنها رؤيا. والرؤيا لا تكذب.» لم أصدق كلماتها، في ذلك الوقت، ولا أصدق كلماتها اليوم. كنت مقتنعا بما قلت، وأنا وقتها لم أكن أطمح أن أكون رجلا هاما، كل ما أردته أن أكون رجلا

عاديا يعيش حياة عادية بين أناس عاديين. كنت قد مللّت كوني ابنا للرئيس مراقبا ومحروسا طوال الوقت، هدّرت طفولتي تحت الرقابة، والآن أهدّر مراهقتي في ظلها، وسأهدّر كل ما تبقى من حياتي في هذا الحصار الذي حوّل حياتي إلى جحيم. بعد أن أصبحت رئيسا، ذكرتني أمي بنبوة العرّافة، ابتسمت وقلت: «أتذكر، وأتذكر أني قلت أني لا أريد أن أكون شخصا هاما، وكنت صادقا في كل كلمة قلتها، وأنا هنا ليس بسبب نبوءة العرّافة، أنا هنا لأني يجب أن أكون هنا، وأنا لا أتخلى عن مسؤوليات أُلقيت على عاتقي، من أبي ومن البلد.» قلت كلماتي وأنا غير مقتنع تماما بها. نعم، كانت النبوءة صادقة إلى حد الدهشة، أنا الذي تعففت عن كل شيء، أتتني الرئاسة دون أن أطلبها، هي التي طلبتني وليس أنا.. لا أشك بأن هناك حكمة إلهية في ما جرى، رغم أني لست رجلا مؤمنا على الإطلاق، لكن هناك أشياء لا يمكن فهمها دون ردها إلى قوى فوق الطبيعة.

من الصعب ردّ القدر عندما يختار لك طريقا مختلفا عن ذاك الذي اخترته بنفسك، لقد اختارني القدر رئيسا لسورية، فاستجبت له، وهذا ما كان، ليس في الأمر أي سر. منذ طفولتي المبكرة، حلمت أن أصبح شيئا آخر. حلمت بنفسي

طبيبا. سحرتني فكرة مساعدة الناس وتخليصهم من آلامهم. حلمت كثيرا أني أحمل سماعة الطبيب وأدور على المرضى في مشفى ما، أكتب وصفات شافية من كل الأمراض والأوجاع التي يعانون منها، وأقوم بعمليات تستأصل كل ألم يعاني منه المرضى. عندما كنت طفلا سألني أبي: «ما الذي تريد أن تصبحه عندما تكبر؟» أجبت فورا وبحماس وثقة: «دكتور». ضحك عندما سمعني أقولها بحماس، لم يضحك على طموحي، بل على الطريقة التي نطقت بها الكلمات. قال: «أنا أيضا حلمت أن أصبح طبيبا، فهو حلم جميل. وعندما عرفت، أن الأطباء بسبب دراستهم الطويلة والكثيرة يفقدون عقولهم، صرفت النظر عن الموضوع، وذهبت إلى الكلية الحربية لأصبح ضابطا في الجيش.» استمر أبي بالضحك، ربت على كتفي وقال مؤكدا: «لا عليك، أنا أمازحك، اذهب إلى كلية الطب، فهي تناسبك تماما، أنت شخص رقيق، وفي هذه المهنة أنت لن تخسر شيئا.» ضحك بعد ذلك. لم أفهم لماذا يضحك، ولم أفهم ما الذي يقصده بالضبط بأني شخص رقيق وأني لن أخسر شيئا بدخولي كلية الطب. كنت طفلا صغيرا، وإذا كانت سخرية، فهذا النوع من السخرية أكبر من أن يفهمه طفل في مثل عمري. لكني

اعتبرتها مداعبة أب لابنه الطموح، الذي قليلا ما يراه رغم أنهم يعيشون في بيت واحد. كلام أبي عن طموحه أن يكون طبيبا وهو شاب، كان صحيحا ولم يكن ادعاء لتشجيعي عن الاستمرار في الطريق الذي اخترته، فالكثير من الأطفال في سورية حلموا ويحلمون أن يصبحوا أطباء، ليس لأن للطبيب هالة كبيرة عند الأطفال وحسب، وبل ولأنه يصنف على رأس قائمة الفئات الاجتماعية الأرفع في البلد أيضا. لذلك لم يكن غريبا أن يحلم الفقراء أكثر من غيرهم في أن يصبحوا أطباء مهرة. لكن تلميح أبي أن يكون طبيبا كان خيارا متوفرا وممكنا بالنسبة له في ذلك الوقت، لكنه غير رأيه واختار الذهاب إلى الكلية الحربية، فيه الكثير من المبالغة. عندما سألت جدتي عن صحة ما قاله أبي ورغبته في أن يصبح طبيبا عندما كان شابا. قالت جدتي: «هذا صحيح يا ابني، حلم أن يصبح حكيما ـ حسب تعبيرها ـ لكننا، كنا فقراء غير قادرين على تحمل مصاريف هذا الحلم، لذلك بقي حلما عند أبيك.» لطالما افتخرت جدتي بأنهم كانوا فقراء واستطاعوا أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس، ليس في القرية فحسب، بل وإلى اللاذقية أيضا، ليكملوا الدراسة، «كانت معركة حقيقية» كما قالت. واستطاعت

أن تربي في بيتها رجلا سيصبح ذات يوم رئيسا للجمهورية لثلاثة عقود متواصلة. افتخرت دائما بوصول ابنها إلى الرئاسة، ولم تكن تخجل من فقرها السابق، فهي تعتقد أن الفقر والصراع ضده جعل من أولادها رجالا أقوياء. خاضت معركة طويلة ضد الفقر ريثما كبر الأولاد وتحملوا العبء، الذي تحملته لوحدها، في ظل غياب الأب المستمر عن البيت، هروبا من المسؤولية، ما جعلها تتحمل مسؤولية الأولاد. لذلك، اعتبرت وصول أبي إلى رئاسة الجمهورية انجازها الشخصي، لأنها ربت رجلا قويا وجلودا ويعرف ما يريد وصبر حتى وصل لما يريد. بل ذهب بعيدا في طموحه ووصل إلى أبعد مما كانت تحلم أن يصل إليه أي من أولادها. بقيت لها سطوة على أولادها حتى وفاتها، حتى أبي، وهو رئيس، كانت الوحيدة التي تستطيع التحدث معه بكل شيء، هي الوحيدة التي لا تعترف بممنوعات أبي، في الوقت الذي لا يجرؤ أي شخص آخر في البلد على الاقتراب من هذه المواضيع، إذا لم يفتحه هو شخصيا. وأكثر مسألة كانت خارج التداول بالمطلق، اعتقال أبي لرفاقه بعد انتزاعه السلطة منهم، حيث زج بكل الذين لم يقفوا معه في معركته لانتزاع السلطة في السجن، بما فيهم الرئيس السابق. ورفض أي وساطات بهذا الموضوع،

أما جدتي فكانت تحدثه عنه، وقد توبخه أحيانا أمامنا، بينما هو يأخذ هذا التوبيخ على محمل المزاح. ما قالته جدتي حول حياتهم في البلدة التي كانوا يعيشون فيها، يختلف عما قاله أبي، وما حاولت قوله الكتب عن سيرته، من أنه ولدٌ لأب على درجة من الغنى، واستطاع أن يحوز مكانة مهمة في منطقته في جبال الساحل بفعل كفاحه وقوته البدنية الهائلة، حيث كانت له هيبة الرجل القوي في المنطقة. لأني عندما سألت جدتي: «هل كنتم أغنياء يا جدتي؟» ضحكت وقالت: «آه يا ولدي.. لم يكن أي غني يمكن أن يسكن المكان الذي عشنا فيه، كلنا في البلدة فقراء.» كانت تضحك وتستدرك «يا ولدي. الأغنياء كانوا يعيشون بعيدا في المدينة.» وعندما أسألها عن جدي، كانت تتنهد ويتعكر مزاجها، وتقول: «لا تفتح الجروح يا ولدي.»

عندما أنظر إلى مسار حياتي، استغرب الطرق الملتوية التي عبرتها، واختلاف المكان الذي طمحت للوصول إليه عما وصلت إليه فعلا. رغم أني بقيت على خياري في دراسة الطب بعد أن أصبحت واعيا لما أفعل، لأنه طموحي من جانب، وحتى أتجنب المسار الذي سار به والدي من جانب آخر، أي أتجنب الانخراط في السياسة تحديدا. قمت بما استطعت حتى

أقرّر مستقبلا هادئا وعاديا، لأكتشف، أننا لا نحصل على كل ما نختاره، وكثيرا ما نذهب إلى أماكن وخيارات لم تكن تخطر على بالنا بالمطلق. هذا ما فعله بي القدر، فقد شاء أن يدور دورة كاملة، لأجد نفسي في المكان الذي تجنبت أن أكون فيه عن وعي. حتى أبي أدرك مبكرا أنني لا أميل إلى السياسة، فشجعني على خيار دراسة الطب، وشجعني أثناء دراستي، وكذلك عندما أردت التخصص في طب العيون، كان مع خياري في الذهاب إلى لندن. وعندما فكر بخلف له من العائلة في منصب رئاسة الجمهورية، بالطبع، لم أكن أنا في الصورة، وقع اختياره على أخي الكبير، فهو بكره، وعنده ميول سلطوية قوية، كان يعتقد أنه يشبهه، وأن فيه ميزات قيادية لم يكن يراها فيّ، معتبرا أنني رجل رخو، بينما هو رجل شديد، والرخو يناسبه أن يكون طبيبا، والشديد يناسبه أن يكون رئيسا للجمهورية، فكانت توجهات الأبناء طبيعية بالنسبة له.

لا أنا ولا أبي، تخيلنا يوما مسارا سياسيا شخصيا لي، يصل بي إلى المنصب الذي يشغله هو تحديدا. في الحياة الواقعية، أنت تحلم وتخطط كما تشاء وتبذل الجهد الكبير من أجل الوصول وتحقيق هذه الأحلام والخطط. لكن كل

شيء قد يتغير بضربة صغيرة من القدر، بحيث يصبح كل المسار الذي عملت عليه طويلا بلمح البصر جزءا من الماضي، وأنك تذهب في طريق لم تفكر به أصلا، بل على العكس، سعيت بكل قوة لتجنبه.

إن واحدة من أخطر الأشياء التي تفعلها الحياة بالبشر ومصائرهم، هي قدرتها الهائلة على الإطاحة في لحظة واحدة بجهود سنوات وتحويل المسار مرة واحدة ونهائية. عندما أتأمل مسار حياتي أشعر بالغرابة تماما، أين حلمت أن أكون، وأين وجدت نفسي في الواقع! أشعر أنه لم يكن لي يد في مسار حياتي الشخصية. في الحقيقة أن حياتي كذلك، لقد أختار أبي مسارها ورتبها كما شاء، مثلما رتب البلد كما شاء، وأنا جزء من هذه البلد واعتبر من حقه ترتيب حياتي. عندما ناسبه أن أكون طبيبا، دعم هذا الخيار. لو لم يناسبه الخيار، لما قبل أن أذهب إليه، وكان بالتأكيد اختار لي مسارا آخر يناسبه أكثر، وقتها لا يهم إن كان الخيار يناسبني أم لا. عندما تناقض خياري مع رغباته، أوقفه تماما، واختار لي مسارا آخر لا يمت بصلة إلى ما قضيت سنوات في بنائه. هكذا وبجرة قلم قال: «انسَ لندن.. انسَ الطب...» ما استغربه هو أني لم أقاوم هذه الانعطافة الكبيرة في حياتي،

وبالتالي لم أقاوم رغبته، ولا حتى شكليا، وشعرت أني سعيد في حصولها، طبعا، لست سعيدا لأن القدر خطف أخي شابا، بل لأن الأشياء أتتني دون أن أطلبها، فقد جاءتني الرئاسة بطلب الآخرين، وليس بطلب مني. كلفني أبي بمسؤولية كبيرة وأنا قبلت التحدي والمسؤولية، ومنذ ذلك الوقت اقتنعت، أن السياسة مثل الطب أيضا، تُعني في شؤون العلاج، في الطب أنت تعالج أشخاصا من مرض أصابهم وتعمل على شفائهم، وفي السياسة أنت تعالج مشاكل بلد كامل من أمراض أصابته، من أجل جعله مكانا أفضل للعيش، وأقنعت نفسي أني لم أبتعد عن مهنتي كثيرا. وأعتقد أني طوال رئاستي كنت أفكر في السياسة بمنطق طبي وهذا ما جعلني متميزا في أدائي السياسي حتى عن أبي الذي اعتبره معلمي الأول والأكبر، ولكن معلمي الذي أختلف معه. عندما هربت من السياسة، هربت لأن لا فرصة لي بها، وعندما شعرت أن الفرصة قائمة، رميت كل شيء خلفي، وتأكدت أن تعففي لم يكن مبدئيا برفض المناصب، بل كان تعففا لعدم وجود الفرصة. صحيح أني أحنّ بين فترة وأخرى إلى مهنة الطب، وتجربة لندن تحديدا، لكني لم أتمسك بها وأقاوم من أجلها، ولا أرغب على الإطلاق في

العودة إليها، وباتت من الماضي البعيد. أشعر أحيانا أن القدر أذكى منا في ترتيب مصائرنا، ويمنحنا ما نستحق فعلا، رغم أنه لم يكن خيارنا في البداية، وعندما نجد أنفسنا في قلب ما اختاره القدر لنا، من الخطأ أن نقول: «لا»، وأنا لم أقلها، رغم احتجاجاتي أحيانا على طريقة معاملة أبي معي، وفي أحيان أتمنى لو أني لم أقبل هذا المسار الصعب. عندما أسأل نفسي، هل كنت استطيع رفض هذا المسار؟ أعتقد أني لم أكن قادرا على ذلك. لو رفضت، لأجبرني أبي عليه، فهو يملك من وسائل الترهيب والترغيب ما يجعله يستطيع ذلك. رغم ذلك، أعترف أن القدر أتى لي بمسار كنت أرغب به في أعماق أعماقي، وعندما جاءت الفرصة كنت سعيدا بها، رغم مظاهر التعفف والاحتجاجات الاستعراضية.

لم أعرف الفقر والحرمان، منذ ولدت كان أبي قائدا للقوى الجوية، وما لبث أن أصبح وزيرا للدفاع، وعندما كنت في الخامسة من عمري شغل منصب رئيس الجمهورية. لكني عشت طفولة صعبة، لأني ولدت ابنا لمسؤول مهم، سرعان ما أصبح رئيسا. بسبب منصب والدي، لم أعرف الحياة الطبيعية التي يعيشها الناس العاديون. ليس سهلا أن يكون المرء ابنا للرئيس، وأي رئيس! رئيس يقبض على البلد

بيد من حديد. أن يكون ابنا للرئيس قبل أن يعرف ماذا تعني كلمة رئيس. لم أفهم لماذا عليّ أن أخضع للرقابة والحراسة طوال الوقت دون الأطفال الآخرون. ولم أكن قادرا على السير أو الركض في الشوارع وحدي مثلما يفعل الأطفال الآخرون، ولا أستطيع الاختباء هنا أو هناك مثلهم. لم أكن أفهم لماذا لا يرغب الأطفال الآخرين في اللعب معي، مثلما يلعبون مع بعضهم؟! ولم أفهم لماذا يخافون مني؟! ولماذا يتنازلون لي عن أشيائهم ببساطة، بينما لا يتنازلون لبعضهم البعض بالبساطة ذاتها؟! أردت أن أعيش مثلهم، نتصارع، نضحك، نسخر من بعضنا، نتضارب، لم يسمحوا لي، لم أفهم، لماذا تحدث كل هذه الأشياء معي؟! ولماذا أنا بالذات من بين كل تلاميذ المدرسة التي أذهب إليها؟! ليس ممتعا أن تكون طفلا وابنا للرئيس، فأنت تخسر طفولتك وأسرارها وتجاربها ومغامراتها البريئة. الطفولة تعني أن تقوم بالأشياء ببراءة وعندما تعيش مع الأطفال، تضحك وتلعب وتتشاجر مع الآخرين. حتى في المدرسة، كان كل شيء يبدو طبيعيا وأنا أشاهده من بعيد، أطفال في مثل عمري يلعبون بكل براءة، يضحكون، يصرخون، يتشاجرون، يبكون، يسرقون سندويشات بعضهم، يطعمون بعضهم. وعندما أصبح

وسطهم، يختلف كل شيء، تختفي البراءة، ويتوتر الوضع، وتصبح حركات الأطفال عصبية ومحسوبة، لا يتشاجرون معي، ويتجنبون إغضابي، وعندما نلعب يعطوني الأولوية دون أن أستحقها، يخافون أن يحتكوا معي في أي لعبة، يشتمون بعضهم البعض، وتتوقف الشتائم عندي. كل شيء يصبح غريبا وغير طبيعي عندما يقترب مني أو أقترب منه. كنت أكره السيارة لأنها تسجنني، تأخذني من المدرسة إلى البيت، وبالعكس، كنت أرغب في الركض في الشوارع، السير في زحمة الناس، أحتك بهم، أسمع ضحكاتهم، أشم رائحتهم، اصطدم بهم. كنت أشعر أن بيني والآخرين واد سحيقا وأني سجين في قفص صغير، قفص زجاجي غير مرئي لكنه محسوس وصلب. الفرصة الوحيدة للتحرك المحدود كانت في أيام العودة إلى بلدتنا في الجبل أو على شاطئ البحر، وهذه الحرية محدودة المسافة، بحدود انتشار الحرس الرئاسي، ليس مسموحا لهم الاقتراب منا، ونحن لم يكن مسموحا لنا الاقتراب منهم، يجب الحفاظ على مسافة ليست بالقصيرة بيننا. كرهت حياتي وكرهت وكوني ابن رئيس، لأني لا أستطيع عيش حياتي براءة مثل كل الأطفال، البراءة المحروسة بحرس جمهوري، تكف عن كونها طفولة،

يمكن تسميتها أي شيء، لكنها ليست طفولة، أن تكون ابنا للرئيس وأنت طفل، هذا يعني أن تخسر طفولتك وأشياء كثيرة أخرى.

سألت أمي ذات مرة: لماذا يحصل كل هذا معي، لماذا يتجنبني الأولاد، ولماذا لا أستطيع الخروج للركض في الشارع، ولماذا عليّ أن أبقى محروسا طوال الوقت؟ وغيرها من الأسئلة الكثيرة التي شغلتني وعكرت طفولتي. حاولت أمي شرح الأمر لي، بأن هذا الوضع طبيعي لأني ابن الرئيس وهناك مخاطر كثيرة تحيط بأولاد الرئيس، لذلك الحراسة ضرورية. قلت لها: «لا أريدها، بسببها أرى الأطفال يتعاملون مع بعضهم بشكل مختلف، ولا يعاملوني بنفس الطريقة، فأشعر بالحزن.» سألتني: «هل هناك أحد من الأولاد أساء إليك؟» قلت غاضبا: «لا يا أمي، أنا أحتاج أن يسيئوا إليّ لأشعر أني مثلهم، ولكن لا أحد يسيء إليّ، ولا أحد يزعجني، كما يزعجون بعضهم.» وعندما كنت أكرّر أسئلتي تعيد جوابها المتكرر: «أنت ابن الرئيس.» وعندما قلت لها: «وماذا يعني ذلك؟» قالت: «اسأل أبيك» قلت لها: «سأسأله عندما أراه.»

عندما قابلته بعد يومين على طاولة الطعام مع بقية العائلة، كان السؤال ما زال يلّح عليّ، قلت ببراءة طفل: «بابا... بابا... ماذا يعني أن يكون الواحد ابنا للرئيس؟» ضحك أبي وقال: «ببساطة، يعني أنه ابن الرئيس.» سألت: «ولأنه ابن الرئيس ترافقه الحراسات في كل مكان.» قال: «هذا صحيح.» قلت ببراءة: «بابا لا تستطيع أن تجد عملا ثانيا غير رئيس، حتى أتخلص من الحراسة وأستطيع اللعب مع الأطفال الآخرين.» اعتلت الدهشة وجهه من سؤالي، لكنه سرعان ما عاد للضحك من جديد وضحك الجميع على المائدة أمي وأخوتي الذين فهموا كلامي والذين لم يفهموه. قال: «حاضر يا ابني، من الغد سأبحث عن عمل آخر.» وعاد إلى الضحك. التفت إلى أمي وأضاف: «ما رأيك؟! ما الوظيفة الجديدة التي استطيع الحصول عليها بديلا عن عملي كرئيس، حتى يرضى عنا سيادته؟» وأشار بيده اليّ. ضحكت أمي وضحك الجميع. أنا لم أفهم شيئا، لم أعرف هل كان أبي سيترك عمله كرئيس فعلا كي أتخلص من الحراسة وألعب مع الأولاد أم لا، وهل سيجد عملا ثانيا من أجلي. كنت طفلا ساذجا، الآن أسأل نفسي فعلا، ماذا يستطيع أبي أن يعمل غير رئيس للبلد؟! بقيت أترقب أن يجد أبي عملا آخر لبعض

الوقت، ولكن هذا لم يحصل. بقي أبي رئيسا ، وبقيت ابنه، وبقي الجميع يهابني، وقضى هذا على طفولتي ومراهقتي وشبابي.

البيت هو المكان الوحيد الذي شعرت به أني لست ابنا للرئيس، فهناك كنا كلنا متساوين بوصفنا أبناء الرئيس، ولكن أختي وأخي الأكبر كانا عدوانيين تجاهي، وكلما اقتربت منهمت سخرا مني، وحاولا أن يستفيدا مني في أعمال من نوع الخدمات: احمل هذا الشيء إلى مكان آخر، هات لي كأس ماء من المطبخ، أحضر لي ورقة وقلم، ارفع تلك اللعبة وغيرها من الأوامر. كرهت تأدية تلك الخدمات واللغة الأوامر التي يستخدمانها معي، وكرهتهم. عندما ألعب مع أخي الكبير، يجب أن يفوز ولو بالغش، ولا أستطيع فعل شيئا ، وعندما أشكوه لأمي، كانت تنهره، لكنه لم يكن يستجيب لتحذيراتها. كانت تقول لي: «اشكه لأبيك.» وعندما اشكوه لأبي يضحك أبي دون تعليق، ويتجاهل شكوايّ.

بقيت حياتي على هذا المنوال، طوال دراستي، لم أكن أعرف ما الذي يمكن فعله لتجاوز واختراق هذا الحصار، في النهاية، استسلمت لهذا الواقع، وتكيّفت معه. لن أغيّر شيئا

من كوني ابن الرئيس، عليّ التعامل مع هذا الواقع. أقمت علاقاتي مع الآخرين من خلال معرفتي وإدراكي لمكانتي، وبالتالي، فرض شكل علاقتي مع الآخرين نفسه، بوصفها علاقة غير متكافئة. رغم أنني طوال عمري كنت في رجلا في غاية التواضع، إلا أن هذا لم يكن يغير أي شيء بالنسبة للآخرين، ليس لي ذات خاصة بي، أنا شخص غير موجود إلا بوصفي ابنا للرئيس، وكل الهيبة التي تحيط بي، ليس من أجل شخصي ومستمدة من ذاتي، بل هي من أجل شخص غائب عن تعاملاتي وعلاقاتي مع الآخرين اسمه الرئيس، والذي هو بمحض الصدفة أبي، غائب. لكنه في الحقيقة، يهمين عليها كظل لا يغيب أبدا.

عندما ولد ابني البكر كنت سعيدا به، سعادة طفل بلعبة جميلة، لكن فرحتي كانت ناقصة ومشوبة بغصة غياب أبي الذي توفي في العام السابق لولادة حفيده الذي سميته باسم جده. في وقت ولادته، أصابني التوتر والقلق على زوجتي وعلى الجنين في بطنها. كل شيء طبيعي حسب الأطباء، رغم أني طبيب، إلا أني كنت قلقا كأب، لأول مرة أواجه هذا التحول، أن تصبح بين لحظة وأخرى أبا،

وعرفت أنه شعور مختلف عن أي شعور آخر، لكنه شعور غريب مشوب بقلق أغرب منه.

في الفترات التي شعرت فيها أني مقيّد لأني ابن الرئيس أو الأوقات التي شعرت فيها بضغط أبي الكبير عليّ لأكن ما أراد لي أن أكون، لا كما أريد أنا أن أكون. كنت أقول لنفسي، لن أنجب أطفالا يعيشون الجحيم الذي عشته، وأكرر خطأ أبي، وأحيانا أخرى أقول، إذا أنجبت أطفالا لن أعاملهم كما عاملني أبي، سأمنحهم حريتهم، ليفعلوا ما يشاؤون في حياتهم، لن أتدخل فيها، ولن أجبرهم على مسارات أختارها أنا لهم. من منصب الرئاسة تختلف رؤية الأشياء، حتى ما قرّرته سابقا وكنت أنوي القيام به فعلا، يأتي الواقع ويغيره ويغير قراراتي، تصور الواقع وكيفية التعامل معه نظريا، شيء مختلف عن التعامل معه عندما يتحقق. بعد زواجي، أنجب لأثبت أني رجل طبيعي. فرحت بولادته، طفل جميل أتى لكسر رتابة الحياة المنزلية في بيت الرئيس المليء بالصمت. قلت سأكون مع أولادي طوال الوقت، ولن أرتكب خطأ أبي بالغياب الطويل عن أولادي. مع الانشغالات المتزايدة والأعمال المتراكمة، صرت أراهم أقل فأقل. وما كنت أعانيه مع أبي، أصبحت أمارسه مع أبنائي،

ليس برغبتي، بل لأن المنصب يفرض نمط الحياة الذي يناسبه، ويفرض آلية الحياة على الشخص الذي يشغله. مع اندلاع المؤامرة والحرب علينا، صرت بالكاد أراهم. كما اضطررت لاتخاذ إجراءات حماية أمنية تفوق تلك التي اعتمدها أبي لحمايتنا. شعرت أن القدر يعاقبني، كل الممارسات التي قام بها أبي في التعامل معنا وكرهتها، وجدت نفسي أمارسها مع أولادي وبشكل أكثر صرامة. في منصب الرئاسة، فهمت لماذا فعل أبي ما فعل وضيق علينا كل هذا الضيق. أعتقد أن ابني يسأل نفسه الأسئلة ذاتها التي سألتها لنفسي عندما كنت طفلا في سنه، ويكره اليوم الذي ولد فيه ابنا للرئيس. أفهم هذا الشعور لأني سبق أن مررت به. إنها تناقضات الحياة التي تجعلك من مكانين مختلفين ترى الصورة مختلفة كل الاختلاف عن الصورة من الجهة الأخرى، الصورة من موقع ابن الرئيس، مختلفة تماما عن الصورة من موقع الرئيس الأب. لا يمكن شرح هذه الوضع للآخرين، لأنهم لن يفهموا ذلك ما لم يشغلوا المنصب وينجبوا أطفالا في ظل أخطار من كل حدب وصوب.

المرة الأولى التي شعرت فيها بالحرية من كل هذه الضغوط والحراسات، وشعرت أني أنا ولست ابنا

للرئيس، عندما وصلت لندن. هناك خرجت إلى الشوارع، لم أشاهد أي أحد يلتفت إليّ بدهشة، ولا أحد يشير إليّ، ولا أحد يركض يريد مصافحتي ويُسمعني كلام المديح لشخصي ولأبي الرئيس أيضا. كنت أسير في الشارع رجلا غريبا بين غرباء، لا أزيد عنهم ولا انقص في شيء. لا أحد يريد مني شيئا، ولا احد يعرف من أنا. أنا شخص ما، مثل مئات آلاف البشر الذين يسيرون في شوارع لندن ويركبون مواصلاتها، دون أن يعبأ أحد بهم. كانت أول مرة أعود إلى نفسي منذ ولدت، والمرة الأولى التي أكون فيها شيئا آخر غير ابن الرئيس، شخصا ما مجهول بالنسبة للآخرين وليس امتدادا لشخص آخر. في لندن حرصت على أن لا يعرف أحد كوني ابن الرئيس السوري، لأني أردت أن يعاملوني لذاتي، لذلك، لم أقدم نفسي بهذه الصفة سوى في أضيق إطار وعندما أكون مضطرا. أسعدني تقديم نفسي كطبيب سوري يختص في جراحة العيون في لندن. هناك عوضت رغبتي في المشي في الشوارع بلا حراسة، حتى أني في بعض الأحيان ركضت لأختبر هل يمكنني فعلا الركض في الشوارع مثل الآخرين دون أن أتعثر وأقع. مشيت في شوارع لندن ليلا ونهارا، كنت أتعرف على نفسي من جديد. كنت نكرة

غريبة في شوارعها وباراتها ومطاعمها، بردها وضبابها، وشتاءها القوي ورذاذها الخفيف، شمسها الخجولة، نهرها، ساعتها الشهيرة، ساحتها، الهايد بارك، وغيرها. في كل تلك الأماكن التي تجولت فيها، لم أجد من يتعرف عليّ كابن الرئيس السوري. ولم يكن أحد مشغولا في التعرف عليّ أصلا. يسير الملايين مثلي في شوارع لندن، مجهولين يبحثون عن أنفسهم في شوارع المدينة الضبابية، لا يتلفتون حولهم ولا يبحثون عن آخرين، يبحثون عن أنفسهم الضائعة، والتي لا يعرفون أين أضاعوها في عالم سريع يركضون خلفه دون اللحاق به. واكتشفت حينها، أن تكون شخصا نكرة غير معروف، أكثر إمتاعا من أن تكون ابنا لرئيس، الآخرون يتعاملون مع شخصك، وليس مع صفة خارجية لا علاقة لك بها، تستمدها من شخص آخر بحكم كونه والدك بالصدفة. أن تكون نكرة يعني أن تشعر أنك حر ومتحرر من كل رقابة، ليس الرقابة الخارجية والمرافقة الأمنية فحسب، بل حتى المراقبة الداخلية أيضا. ومتحرر من هاجس، هل سيعرف أبي ما قمت به؟! في سورية هناك إمكانية لأن يعرف الرئيس أي شيء عن أي شخص، فهو يملك كما هائلا من الأجهزة والأشخاص مهمتهم أن يوصلوا له المعلومات التي

يريدها، وفي كثير من الأحيان يفعلون ذلك دون طلبها، لذلك يكفي أن يطلب معرفة أوضاع شخص ما، حتى يأتيه ملف ضخم خلال أيام، ونحن أولاد الرئيس كنا تحت الرقابة المباشرة طوال الوقت، لكن هذه القدرة تنتهي عند حدود البلد، أو يمكن ضم لبنان لهذه الحدود بحكم امتداد الأجهزة الأمنية إلى هناك بسبب وجودنا هناك لسنوات طويلة.

عند عودتي من لندن، بعد وفاة أخي الأكبر، التحقت بالجيش، صحيح أني قلت أكثر من مرة علنا، أنا الذي اخترت العودة إلى الجيش، وأن أبي كان مترددا وتأخر في قبول طلبي. وأني أنا الذي أخبرت أبي بعدم رغبتي في العودة إلى لندن والبقاء إلى جانبه بعد الحادثة المؤلمة التي أدت لوفاة أخي. عندما سألني هل ترغب بالعودة إلى لندن؟ أنا الذي أجبته، مكاني هنا في دمشق، ولم يعد لي مكان في لندن. لكن الحقيقة غير ذلك، هو الذي زج بي في هذا المسار، هو الذي قرر مستقبلي وما عليّ فعله في ما تبقى من حياتي. مرة أخرى عرفت كم هو مهيّمن على حياة العائلة كما هو مهيمن على البلد، وقادر على التحكم بها وتغيير مسارها. لم يكن لديه وقت، لذلك، بدأت عملية إعدادي لخلافته بسرعة كبيرة. اعتبر أخي المتوفى قطع شوطا في تأهيله

لخلافته، لذلك كان معه أقل استعجالا. معي كانت القصة مختلفة، فقد أعتبر أني لا أصلح للسياسة أصلا، لذلك أنا بحاجة إلى مدة أطول لتدريبي ومعرفة أشياء أكثر بكثير من أخي الذي قضى سنوات في التأهيل. في البداية، وإضافة إلى الكثافة الشديدة بضخ المعلومات لي، أخذت أهتم بقضايا المواطنين، كتدريب على العلاقة معهم، فهم يراجعونني بقضاياهم، وأنا كنت أرغب في خدمتهم أصلا. ولم يكتفِ أبي في التأهيل في قضايا السياسة الداخلية، ولأنه يعرف أهمية العلاقات الدولية في تحصين البلد، كلفني السفر إلى بعض الدول العربية والأجنبية، لأقيم شبكة علاقات شخصية على المستوى الدولي، تساعدني حين يأتي وقت خلافتي له في تحصين انتقال السلطة منه إليّ. شعر بالوقت يداهمه، فأخذ يضغط عليّ بقوة، وفي كثير من الأوقات لم أحتمل الضغط الشديد، فهناك الكثير من الأشياء في مجالات مختلفة، التي قدّر أن عليّ أن أعرفها جيدا، حتى أصير مؤهلا للمنصب الذي يشغله. ولأنه أصلا يشكك في قدراتي كان حريصا ولحوحا في أن أعرف كل شيء عن أي شيء، وبالتالي لا أعرف شيئا عن أي شيء. في كثير من الأحيان شعرت أني ضائع، وأن المهمة التي اختارني لها أكبر

مني بكثير، أصابني اليأس والإحباط في الكثير من الأحيان، إلحاحه أجبرني على الخروج من هذه الحالة واستئناف مسيرة العذاب التي وضعني فيها. تَعلمْ السياسة ليس سهلا، من الممكن أن تتحدث في السياسة وتحللها وهذه مهمة سهلة، لا تحتاج إلى الكثير من التدريب، وإذا أخطأت أو أصبت، فلا ثمن تدفعه. الأهم من التحدث في السياسة هو صناعتها، أن تمسك بمركز السيطرة بخيوط قوية غير مرئية، وأن تكون كل مراكز القوة مستمدة منك، وعليك دائما تذكير من يشغلون هذه المراكز أنهم في مواقعهم بفضلك وليس بجهودهم وقواهم ومواهبهم الذاتية، وليس بالضرورة تذكيرهم بشكل مباشر وفج، يكفي تذكيرهم بشكل غير مباشر، ليجددوا الولاء، فالولاء لا يؤخذ مرة واحدة، عليك أخذه المرة بعد المرة. أن تكون صانع سياسة يعني أن تحتاط جيدا لأبعاد السياسة التي تصنعها، وأن تفكر في ذات الوقت في أثمانها، وهل تستطيع تحمل هذا الثمن أم لا. وعليك أيضا في الوقت الذي تصنع السياسة، أن تفكر بالبدائل عن فشلها. فصانع السياسة يختلف عن المحلل السياسي، فالأول يدفع ثمن السياسة التي يصنعها، بينما

المحلل السياسي فيلقي الكلام على عواهنه، وليس هناك ثمنا يُدفع عن خطأ ثرثرته.

طالما قرّرت السير في هذا الطريق، توجب عليّ صناعة أفضل رواية عن المسار الذي سلكته، وهذا لا يعني أن على الرواية أن تكون صادقة وتقول الحقيقة، المهم أن تكون مقنعة. وجدت أفضل رواية هي التي تؤكد أن مسار حياتي هو خياري الشخصي، وأني أنا من قرّر مصيره وليس أحد آخر. وبالتالي، كانت العودة إلى سورية والانخراط في السياسة خياري الشخصي ولم يمله عليّ أحد، حتى أبي بكل سطوته، بل على العكس، أنا الذي أقنعته بقدراتي القيادية من خلال استقلاليتي، وليس من خلال كوني ابنا له... إلخ من الرواية المصنوعة لوصولي إلى منصب الرئيس.

بعيدا عن رواية مساري وصياغتها وصدقها من عدمه. في الحقيقة، أعتقد أني كنت مؤهلا للانغماس في العمل السياسي والنجاح به، رغم شك أبي بذلك، وهو قاله لي عدة مرات، معتبرا أني أرتكب الكثير من الأخطاء التي لا يرتكبها حتى تلميذ في المدرسة الثانوية وليس رجلا يريد أن يصبح رئيسا. اتهمني أحيانا أني لا أملك القدرة على التعلم إطلاقا. كان يؤلمني بهذه الأحكام القاسية على سلوكي. لم

آخذها على محمل أنها حكم عليّ وعلى قدراتي، بقدر ما حملتها على أنه يريد استفزازي حتى يُخرج أفضل ما عندي. الوصول إلى منصب الرئيس رسَّخ عندي هذه القناعة، لأني ببساطة عندما أعود إلى تاريخه الشخصي، لا أرى أنه أدار البلد أفضل مني. كان يعتقد أني مؤهل للمهمة رغم انتقاداته الكثيرة لي، ولو لم أكن كذلك لما اختارني لهذه المهمة أصلا. صحيح أني كنت بحاجة إلى التدريب، فالمهمة كبيرة، لكن كنت أملك المهارات الأساسية التي يحتاجها المنصب، لأن السياسة لا يمكن اكتسابها بالتدرب فقط، فهي بحاجة لأن تملك موهبة سياسية أيضا، وأنا كنت أملك هذه الموهبة إضافة للمهارات الأخرى. أنا أثق بنفسي، ومنصب الرئيس مثل كل شيء في الحياة، فأنت لا تعرف هل تصلح له أم لا قبل تجريبه. لذلك، لم أكن أعرف هل أصلح لمنصب الرئيس، كيف أقرر قبل أن أجرّب؟! تاريخي في منصب الرئيس يشهد ليّ، كيف كنت بمستوى التحدي وأكثر وخيبت كل التوقعات التي تنبأت لي الفشل في المنصب.

صحيح أني ارتكبت الكثير من الأخطاء وأنا أتدرب، ولكني تعلمت بسرعة، بدأت أنسج شبكة واسعة من العلاقات داخل البلد وخارجها، وتعلمت كيف أربط الآخرين

بي شخصيا. سافرت إلى الكثير من المدن السورية لأتعرّف على الواقع الحقيقي فيها. سافرت إلى مناطق لم تصلها قدما أبي يوما لأعرف البلد الذي سوف أحكمه. وفي كثير من الأحيان كنت أقوم بأدوار تكسبني شعبية، أدوار عفوية وبسيطة. تدل عليّ بصفتي شخصا بسيطا، يتمتع بروح المسؤولية ويعمل من أجل مصلحة البلد ومستقبلها. مثلا، عندما شغلت رئيس الجمعية المعلوماتية، كنت في زيارة لمدينة حلب، فقمت بمراوغة حُراسي لأني أردت القيام بجولة في شوارع حلب وحدي. سرعان ما تعرفت الناس عليّ وأحاطوا بي فرحين. دعاني صاحب دكان صغير للدخول، فأجبت دعوته، هناك قابلت ابنه الشاب، سألته عن أمنيته، كان جوابه: «أريد أن أتعلم استعمال الكومبيوتر، وأتمنى أن أحصل على واحد.» وفي اليوم التالي، أمرت العاملين معي أن تؤمن الجمعية على نفقتها كمبيوترا للشاب وأن تنتدب من يعطيه دروسا في استخدامه. لأني أعتقد أن المعارف الحديثة هي الطريق لتطوير البلد وتحديثها، وأن مثل هذا التصرف يشير إلى ذلك بوضوح، لذلك أردت أن أُظهر أني أدعم الشباب الطموح.

٢

كنت أتعلم من أبي ما يقوله لي مباشرة، وكنت أعود إلى سيرته للتعلم أيضا، سائلا الجميع أن يجيبوني عما أسأل بصراحة وبالحقيقة فقط، مهما كانت الإجابة قاسية، حتى أعرف أي رجل كان أبي في الواقع، وليس في الصورة المنتشرة له في البلد، بوصفه الأب الحنون للجميع، فهذه صورة للاستهلاك، فالرئاسة لا تعرف العواطف. فمن بين أول الأشياء التي يتعلمها القادم الجديد إلى السياسة، أنها لا ترحم، وأن آخر شيء يصلح لها هو العواطف. أصحاب العواطف أسوأ السياسيين، يحلمون ويقفون على الرصيف في انتظار تحقق أحلامهم، ويغادرون السياسة دون انجاز، يدخلون السياسة بأحلامهم، ويخرجون بها، دون أثر في الخريطة السياسية. السياسي الذي يريد أن يصل إلى هدفه عليه أن يكون رجلا بلا قلب، رجلا واقعيا، وهذا ما كان عليه أبي.

وصل إلى السلطة بالقوة، وبصياغة تحالفات ومراوغات لا تنتهي، كانت المؤامرات والدسائس جزءا أساسيا من السياسة ومن الحالة القائمة في الجيش في ذلك الوقت. كان مبدعا في إدارة دفة الأحداث لمصلحته، وأحيانا يصنع الأحداث التي تخدم مصلحته. وبعد أن استقر في منصب الرئيس وتخلص من خصومه، أخذ يصيغ روايات مغايرة عن الأحداث الحقيقية، تتناسب مع صورة منقذ الوطن من الفوضى، التي كان هو فعليا جزءا أساسيا منها. نجح في رسم صورة المنقذ لنفسه بفضل التكرار الإعلامي لسنوات طويلة للرواية المعتمدة. لقد روت أمي لنا حلمها عشية وصل أبي إلى السلطة عشرات المرات. قبل يومين من حسم الصراع على الرئاسة ووصوله إليها، رأت أمي حلما وجدته فيه المنقذ للبلد، أخبرته به حين عاد إلى البيت بعد جلسة عاصفة في مؤتمر الحزب الذي كان يعقد حينها، وقال لها: «أن الوضع سيء جدا، ولا بد من عمل شيء، لا يمكن البقاء في هذا الوضع إنه وضع مدمر.» طلبت منه الاسترخاء والنوم قليلا، لأن الإنهاك ظاهر عليه، وعليه أن يحافظ على قوته في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلد. عندما استيقظ أخبرته حلمها، قالت: «لقد وجدت نفسي في الشارع وسط حشد

كبير من الناس، وكانوا جميعا يشخصون بأبصارهم نحو جهة واحدة. وحين تطلعتُ مثلهم إلى تلك الجهة، لمحتُ من بعيد شيئا مريعا، ولدى اقترابي منه، عرفت أنها علبة ذات ثقب على أحد جوانبها. حين وضعت عيني على الثقب تراءى لي المسجد الأقصى في القدس، أمسكتُ بالعلبة ثم استدرت إلى الخلف، وجدتك واقفا خلفي، فأعطيتك العلبة.» في ذلك الصباح بعد أن روّت حلمها قالت له: «إنك لمنتصر على أعدائك، ولسوف تكون أقوى زعيم عربي.» فكانت بمثابة رؤيا لمستقبل أبي القادم. لا أعتقد أن أمي حلمت في ذلك اليوم، لا بالقدس ولا بغيرها، لكن على القادة أحيانا أن يخترعوا أشياء في تاريخهم الشخصي تخدمهم في تأكيد تمسكهم بقضايا من المشكوك أنهم يتمسكون بها. أعتقد أن الحلم / الرؤية كان من اختراع أبي، وأمي كانت ترويها بناء على طلبه، لكنها مع الوقت يبدو صدقت أنها حملت الحلم الذي حمل أبي إلى كرسي الرئاسة.

انتزع أبي السلطة بالقوة وليس بالأحلام، وبعد أن انتزعها قرر أنه لن يخرج منها إلا إلى القبر، مهما كان الثمن. لذلك، عندما تعرض إلى تحد جدي، ضرب بيد من حديد، واستخدم كل الوسائل للحفاظ على مكانته في السلطة. لم يتردد أثناء

الصراع مع الإخوان المسلمين الذين اتهموه بالكفر في مطلع الثمانينات، أن يعلن على الملأ أنه مسلم، ولم يعلن أنه أسلم حديثا، بل قال بالحرف الواحد «نعم، إنني أومن بالله! وبرسالة الإسلام، لقد كنت وما أزال وسأبقى مسلما، وتماما مثلما ستبقى سورية قلعة شماء ترفع راية الإسلام عاليا! ولكن أعداء الإسلام المتاجرين بالدين سوف يكنسون بعيدا.» لم يتردد أن يلبس ثوب أعدائه عندما اعتبر ذلك ضروريا ويخدمه في حربه عليهم، في الحرب كل شيء مسموح. اعتاد أن يذهب إلى الجامع ويصلي صلاة للعرض على التلفزيون صبيحة كل عيد. واضطررت بعد أن أصبحت رئيسا، أن أسير على ذات التقليد، وأن أمشي على هذا الدرب الشائك، صلاة العيد، هي أكثر شيء أمقته في منصب الرئيس. لم أكن مجبرا عليه أثناء إعدادي للرئاسة، فأنا لم أُصلِ يوما، لكن المنصب يفرض من بين ما يفرض، ترهات، وهذه أحد الترهات التي فرضها منصب الرئاسة عليّ. هل صلي أبي لأنه مؤمن بالله؟ بالتأكيد لا. إنها ضرورات المنصب. لم أشاهده يوما يصلي في البيت، لم أره يفعل ذلك، لم يكن الدين جزءا من بيتنا، لم أره يصلي سوى في هذه الصلوات الاستعراضية على التلفزيون. وأنا فعلت مثله. هل هو

مسلم؟ بالتأكيد لا ، هل هو علوي؟ بالتأكيد لا أيضا. هل أنا مسلم، بالتأكيد لا ، هل أنا علوي، بالتأكيد لا. السلطة لا دين لها ، هويتك هي المنصب. إذا خدمك أن تدعي أنك مسلم في تعزيز سلطتك، عليك فعل ذلك، وإذا أفادك أن تكون علويا ، فلتدعِ ذلك. عندما يخدم السلطة أن تكون علويا ، تكون علويا.عندما يخدم السلطة أن تكون مسلما ، تكون مسلما. وفي هذه الحالة لا بد من التفاهات. بعد وفاة أبي ويوم دفنه، تسببت هذه التفاهات بالمشاكل، فقد تم التنازع على هويته الدينية ، هل يدفن على الطريقة السنية أم العلوية. كان من الضروري أن تجري المراسم على الطريقة السنية، وهذا كان القرار الرسمي وقرار العائلة، وهو ما يُناسب رئيس حكم البلد ثلاثة عقود متواصلة. قام إمام سني معروف بتأبينه بوصفه مسلما. لكن ذلك لم يمر، ولم تنتهِ القصة عند هذا الحد. بعد أن انتهى التأبين السني، أصر مشايخ العلويين أن يؤبنوه بوصفه واحدا منهم أيضا ، ولن يتركوا الأمر يمر هكذا ، فلهم في الرجل الكثير، فسمحنا لهم بذلك اختصارا للمشاكل، كل ذلك ظهر عبر بث تلفزيوني مباشر للجنازة، وهو ما أظهرها جنازة مرتبكة مقارنة بالجنازة الصارمة التي كانت يوم وفاة أخي وأشرف عليها

أبي. لكن سواء كان المراسم على الطريقة السنية أو العلوية، فإن الرجل القوي قد مات.

كانت وصية أبي أن يدفن في بلدته، غريبة بالنسبة لي! رغبت مرات عديدة في سؤاله، لماذا لم يوصِ بدفنه في دمشق بدلا من بلدته؟ وكل مرة أهم بالسؤال، سرعان ما أتراجع، لأني كنت أعتقد أن السؤال محرج ولا يرغب أبي بالإجابة عليه، المرة الوحيدة التي تحدث فيها عن الموضوع، كانت حين تحدث عن رؤيته للحياة. وجاءت وصيته للدفن كمثال، عندما قال: «أعتقد أن الحياة لها شكل الدائرة الكاملة، بحيث تكون كل نقطة فيها هي نقطة البداية ونقطة النهاية في ذات الوقت. ولأنها كذلك على كل شيء أن يعود إلى بدايته وعلى كل إنسان أن يسعى أن يعود في نهاية حياته إلى المكان الذي بدأ منه حياته، فهناك تكتمل الدائرة، البداية هي النهاية.» طبعا أنا لم أقتنع بهذا التفسير، لأنه طالما الحياة دائرية، فإن أي نقطة في مساره تصلح لأن تكون نهايته، لا يحتاج ليعود إلى مكان الولادة، دمشق تصلح لأن يدفن فيها أكثر من بلدته. بقيت أفكر في حكمة خياره أن يدفن في بلدته. لم أجد حكمة من وراء ذلك، سوى أنه كان يريد مزيدا من إخضاع البلد حتى بعد وفاته، وكأنه يتعامل معها

باحتقار، دمشق المدينة التي حكمها وحكم منها سورية لمدى ثلاثة عقود، لا تستحق أن يُدفن فيها. شعرت وقتها أن الجلوس الطويل في السلطة، لا يجعل المرء شكاكا فحسب، بل يصبح مريضا بالارتياب وباحتقار ما هو تحت سلطته أيضا، وأعتقد أن قراره بالدفن في البلدة هو مزيج من الارتياب والاحتقار للمدينة وللبلد الذي حكمه.

لقد زاد ارتيابه منذ حربه الدموية على الإخوان المسلمين، قبلها كان يعامل الآخرين من المسؤولين برسمية، ليس له أي علاقات حميمية. بعد انفجار الصراع ازدادت الرسميات حتى مع المقربين، ولم يعد هناك أي علاقات اجتماعية بيننا وبين أي عائلة أخرى، فلم يعد يدعو أحدا إلى بيتنا، ولم يعد يزور أحدا، أحيانا أمي تقوم بالمهمات الاجتماعية بالنيابة عنه. ولم يعد أحد يستطيع الوصول إليه، سوى قلة قليلة من الأشخاص، كان له مكتب في البيت وآخر في القصر الجمهوري، ولم يكن أحد يعلم في أي من المكتبين سيعمل صباح اليوم التالي، في عمله ليس هناك يوم عطلة، كل أيام الأسبوع أيام عمل. ليس هناك عطلة في منصب الرجل الأول في الدولة، وعلى جميع من يعمل معه التواجد في أماكن عملهم طوال أيام الأسبوع، حتى أن مدير مكتبه كان ينام في

المكتب عندما يكون أبي خارج البلد، ولا يغادر إلى بيته سوى عند عودة الرئيس. كان عليه البقاء إلى جانب الهاتف على مدار الساعة منتظرا التعليمات التي تأتيه في أي وقت، وإيصالها إلى الجهة المعنية، وليس هناك وقت دوام لهذه التعليمات التي قد تأتي في أي وقت من الليل أو النهار. كان يعمل وقتا طويلا، لم يكن يومه روتينيا، وعدم روتينية يومه، هو نوع إضافي من الإجراءات الأمنية. فقد شكل أمنه الشخصي هاجسا دائما له، عرف جيدا، أن كل الذين تم الوصول إليهم واغتيالهم من شخصيات زعامات وقادة وشخصيات عامة في العالم، كانوا يقعون في ذات الخطأ، أو أن لديهم يوم عمل روتيني معروف، ومعرفة هذا الروتين، جعلت استهدافهم أسهل وأنجح، لذلك لم يكن أحد يعرف إلى أين سيذهب بعد ساعة حتى أقرب المرافقين له، يخبرهم بوجهته في اللحظة التي يقرّر فيها التحرك.

مع الفطور، يبدأ يومه بقراءة التقارير الأمنية وبعد ذلك يبدأ بالتحرك إلى القصر الجمهوري أو يبقى في البيت، وقد يبقى في البيت أسبوعا كاملا لا يغادره، رغم ذلك يذهب الموكب الرئاسي في جولات وهمية، لتظهر أن الرئيس يتحرك. لم يكن أي شيء بالنسبة له مستعجلا، هناك سفراء

أجانب انتظروا شهورا لتقديم أوراق اعتمادهم، حتى تمكنوا من مقابلته، وهناك سفراء أنهوا فترة خدمتهم وعادوا إلى بلدانهم دون أن يُعتمدوا منه. الكثير من الزوار الهامين تُركوا في الانتظار لأيام، وهناك من انتظر أشهرا كاملة، خاصة المسؤولين اللبنانيين. تراكمت الوثائق والأوراق التي تحتاج إلى توقيعه، دون أن يجرؤ أحد على سؤاله عنها، تراكمت لدرجة مذهلة، جبل من الأوراق كان في انتظار التوقيع عندما وصلت للرئاسة. على مدى سنوات طويلة هناك أوراق لم يوقعها، قضيت وقتا مقيتا وأنا أوقع آلاف الأوراق المتراكمة من عهده. لم يعد يترأس اجتماعات، ولم يعد يتواجد جسديا في الكثير من المؤسسات القيادية، وأصبح صوتا على الهاتف بلا جسد، وإذا لم يكن الاجتماع ضروريا وله وظيفة استثنائية، أو يراد منه التأكيد على أن الرئيس ما زال حيا وبصحة جيدة، لم تكن تعقد أي اجتماعات، الاجتماعات تعقد من أجل التصوير، وعندما ينتهي التصوير ينفض الاجتماع. كان يتابع كل شيء بالهاتف، يقضي جل وقته بين التقارير والاتصالات الهاتفية. هو من يتكلم، ولا أحد يستطيع الوصول إليه أو المبادرة إلى الاتصال به، سوى ثلاثة أو أربعة مسؤولين، على رأسهم مدير مكتبه، ورئيس شعبه

المخابرات العسكرية. أما الآخرون مهما كانت مناصبهم في البلد، عليهم أن يكتفوا بالاتصال مع مدير مكتبه أو يتلقوا التعليمات منه. رغم ذلك، كان الكل يخاف من أن يرن الهاتف على مكتبه ويكون الرئيس على الطرف الثاني، عندها يدّب الرعب في المكان، لم يكن أحد يستطيع التقدير ماذا يريد الرئيس، الجميع يتنفس الصعداء عندما تنتهي المكالمة بدون توبيخ. أصبح رجلا غامضا وبعيدا أكثر من قبل بالنسبة للجميع.

الطاعة، هي الدين الذي نشره أبي في البلد، وسيطر عليها به، الطاعة والولاء وباقي الأشياء لا أهمية لها، وضع الشخص يتحدد وفق قانون الطاعة والولاء. لا شيء خارج هذا القانون. السلطة دينها الطاعة والولاء وبعد ذلك يتم الاعتراف بالعلاقات الأخرى، حتى القرابة. أي انحراف عن الطاعة يجب قطع دابره على الفور، مهما كان ومن كان الشخص الذي يتمرد على الطاعة. فعندما مرض أبي، طمع عمي بالسلطة وتعامل معه كأنه ميت، ولم تبقَ سوى مراسم الدفن، ليعلن نفسه رئيسا للبلد، في الوقت الذي أصبح يمارس هذا الدور فعليا دون إعلان. ساهم الكثير من المسؤولين الإمعات في تعزيز طموح عمي إلى الرئاسة، عندما

يغيب السيد سرعان ما يلهث الإمعات في البحث عن سيد جديد لهم. عندما تعافى أبي، كان ساخطا، ليس على عمي فحسب، بل وعلى الذين عززوا نزعته المتمادية للرئاسة أيضا. أدار أبي معركة كبيرة معه، متجنبا سفك الدماء. كان واضحا بالنسبة له أن المسألة إذا احتاجت لسفك الدماء، فلن ترّف له جفن، حتى لو كان الذي يقف في الجانب الآخر أخوه ابن أمه وأبيه. عندما تدخل عمي الأكبر من أجل الشفاعة لعمي عند أبي، قال له أبي بوضوح: «أنتم مدينون لي بالطاعة. لا تنسوا أنني أنا من صنعتكم جميعا.» في السلطة ليس هناك رجلين في قمة السلطة، هناك رجل واحد وعلى الباقي الطاعة، لقد تمردوا على تعليماته وعلى كل من تمرد أن يدفع الثمن، وأولهم أخوه. ولم يتردد في تكليف أقرب رجاله في احتواء أخيه. اعتقد عمي أنه يسيطر على كل الأوضاع، وانه بوجود كتيبة تابعة لقواته وعلى رأسها رجل موثوق من قبله في حراسة مبنى هيئة أركان الجيش، فلن يستطيع أحد التحرك ضده. كان مخطئا. فقد تم تهريب آلاف الجنود من الوحدات الخاصة المؤيدة للرئيس باللباس المدني إلى داخل مدينة دمشق التي كانت القوات التي يقودها عمي تحاصرها. وعندما اكتملت القوة داخل دمشق، جاءت أوامر الرئيس

بوصفه قائدا عاما للجيش والقوات المسلحة لهذا الضابط بإخلاء مقر الأركان هو ورجاله، فقال مستندا إلى قوة قائده: لن أغادر حتى يأمرني القائد. يقصد عمي طبعا. لم يكن من مدير الاستخبارات العسكرية الذي رافق مسيرة أبي منذ كان وزيرا للدفاع، وصاحب الاسم المرهوب في البلد، سوى أن ذهب بنفسه إلى مبنى رئاسة الأركان. عندما وصل إلى هناك، وجد قائد الكتيبة يهدّد ويزبد ويرعد ويلوح بمسدسه. قال له «أنا هنا وبدون سلاح. وأرى ماذا ستفعل.» قال قائد الكتيبة له: «لا تقترب مني.» رد مدير المخابرات وهو يسير باتجاهه: «سأقترب يا كلب وارى ماذا ستفعل.» وصل إلى المكان الذي يقف فيه قائد الكتيبة، نزع مسدسه ولطمه على وجهه، واعتقله. بعد اعتقال الرجل، جنّ عمي، فأن يحدث هذا مع رجله لا يعني إهانة للرجل فحسب، بل هي إهانة شخصية له أيضا. ولأن أبي يعرف أن تصرفا كهذا سينزل على عمي كالصاعقة، فقد منع عمي من الوصول إليه سريعا لحل الموقف. بعد ساعات، عندما استطاع عمي أن يتصل بأبي من أجل حماية رجله، سأله: «أين رجلي.» قال أبي: «لقد أعدمناه.» سأل: «ولماذا تفعلون ذلك». قال أبي: «أمرت بانتقاله، فرفض الأمر العسكري، وعقوبة العسكري الذي

يرفض الأوامر هي الإعدام.» طبعا، لم يتم إعدامه، وكانت حرية الرجل ضمن صفقة خروج عمي من البلد نهائيا، ورافقه على نفس الطائرة الذاهبة إلى موسكو ومن هناك إلى باريس.

أدار أبي الصراع مع أخيه بنفسه، وفي ذروة الصراع، كانت مدافع الدبابات على جانبي نهر بردى وسط مدينة دمشق في مواجهة بعضها البعض، يفصل بينهما أقل من خمسين مترا، وكانت قذيفة واحدة خاطئة من أحد الطرفين، كافية أن تشعل حربا دمشقية مدمرة بين الجانبين. ولم يتردد أبي في إيصال أقسى الرسائل لأخيه، وأنه مستعد للحرب ولن يتورع عن خوضها إلى نهاياتها مهما كانت النتائج، حتى لو فاض نهر بردى بالدماء، كل ذلك حتى يدرك أخوه أنه تجاوز حدوده، وأن ما أقدم عليه يشعل معركة تحرق الجميع وتحرق البلد، قبل أن يصل إلى مبتغاه، ولن تكون له السلطة، مهما كان الثمن. السلطة لم تأتِ بسهولة، حتى تذهب بسهولة، وأفهمه أنه لم يكن شريكا له في انتزاع السلطة، إنما كان جنديا من بين جنود كثيرين خاضوا معه الصراع، وعندما يخطئ الجندي يجب مُعاقبته، وما ارتكبه عمي كان مؤامرة أميركية - سعودية على سورية كما ردّد أبي. شعر عمي أن أبي جاد جدا في خوض

الصراع إلى نهايته وعندما نُقل له ما رواه أبي لمجموعة من الضباط كان حريصا أن تصل الرواية إلى أخيه، أن الألمان في الحرب العالمية الثانية قد أسروا ابن رئيس الاتحاد السوفيتي جوزيف ستالين، الذي كان ملازما في الجيش الأحمر، واقترحوا مبادلته بجنرال ألماني أسير عند الروس، وهددوا بقتله إن لم يوافق على الصفقة. فأجاب ستالين بتجهم: فليقتلوه، ثم بكى. كانت الرسالة واضحة، أدركها عمي الذي يعرف أبي جيدا، فقرّر التراجع، وبدأت مسيرة إخراجه من البلد. بقي عمي خائفا من أبي حتى وصوله إلى موسكو، ولم يقبل أن يغادر دمشق، إلا إذا رافقه على الطائرة ذاتها ضباط كبار مقربون من أبي، حتى لا يفجر الطائرة به، فقد أدرك تماما أن السلطة لا تعرف القرابة، وهذا ما كان له، أقرب الضباط لأبي ركبوا الطائرة معه ليخرجوه من البلد نهائيا.

٣

ساقني قدري إلى الرئاسة بسبب حادث سير، نعم حادث سير، هذه هي الحقيقة، قيادة أخي الكبير الطائشة لسيارة على طريق مطار دمشق الدولي أودت بحياته، وهو الذي كان أبي يعده لخلافته في منصب الرئاسة. بعد وفاة الابن البكر، وقع اختيار أبي عليّ لأكون خليفته في المنصب، ليس لأي سبب خاص، بل لأني ابنه الثاني في الترتيب بمحض الصدفة، لو لم يكن هذا ترتيبي في العائلة لما آلت الرئاسة لي إطلاقا.

في البداية، لم أصدق الخبر، كان صاعقا، بقيّت مدهوشا طوال الوقت، حتى عندما أخبرت الطبيب المشرف عليّ في المستشفى في لندن، أنني مضطر للعودة إلى دمشق. لم أخبره السبب، لأني لم أكن مصدقا بعد أن خبر موت أخي حقيقي. توقعت دائما خبر وفاة والدي لأسباب طبيعية أو غير طبيعة بفعل فاعل، كأن تكون عملية اغتيال. أما موت أخي الأكبر شابا، فكانت صدمة كبيرة. هو شاب رياضي

ويتمتع بصحة جيدة وصاحب بنية قوية، كل شيء يؤكد أنه سيعيش حياة مديدة، لكن لا أحد محصّن ضد الحوادث، ولا حتى أولاد الرؤساء رغم كل الحماية الأمنية المتوفرة لهم، ولا أحد محصن ضد الموت، وكذلك الموت لا يعرف تسلسلا زمنيا، فلا يأخذ البشر بتسلسل تاريخ ولاداتهم وحسب دورهم، الموت طائش يحصد البشر كيفما اتفق.

لم يسألني مشرفي عن سبب عودتي إلى دمشق، قدّر أن أسبابا قاهرة وحدها جعلتني أقطع دراستي وأعود على وجه السرعة، وأن لي أسبابي في عدم الكلام عن السبب، لا أعتقد أنه عرف أني تحت تأثير الصدمة. فيما بعد، أعتقد أنه عرف السبب من الأخبار. ابن الرئيس السوري يقضي في حادث سير، عندما عرف، أرسل لي تعزية رقيقة. كلنا كنا نعرف أنه يقود سيارته بسرعة وتهور وقد حطم الكثير من السيارات، ولطالما حذره أبي من القيادة المتهورة، ووبخه من أجلها، حتى لا يؤذي نفسه والآخرين. هذه المرة كانت قاتلة، لم يعد موجودا ليوبخه من جديد. كان مستعجلا في كل شيء ومصابا بغرور الثقة بالنفس المبالغ فيها، معتقدا أنه يستطيع القيام بأي شيء. هذا الغرور يمكن أن يمارسه على الآخرين، بوصفه ابن الرئيس، لكن لا يستطيع ممارسته

ضد قوانين الطبيعة، فهذه القوانين لا يمكن التعامل معها بغرور، ليس لها القدرة لا على تحطيم غرور أي شخص فحسب، بل والقضاء عليه أيضا. كان عليه السفر إلى ألمانيا لمتابعة علاج أخي الأصغر، الذي أرسله أبي للعلاج هناك. لم تكن «اللوفتهانزا» شركة الطيران الألمانية لتنتظره، حتى لو كان ابن الرئيس، فهي لن تتأخر عن موعد إقلاعها من أجله، وهو لن يستطيع إيقافها. لو كانت شركة الطيران السورية، لكان الأمر سهلا، اتصال هاتفي واحد لوزير النقل كافٍ ليجعل الطائرة وركابها ينتظرون ابن الرئيس. كان عليه أن يصل في الوقت المحدد، فقاد السيارة بسرعة جنونية، أراد الوصول سريعا، فلم يصل أبدا. بعد أن سمعت الخبر تداعى شريط الذكريات المشترك بيننا، لقد عشنا معا طوال طفولتنا ومراهقتنا في غرفة واحدة، عبرت رأسي كمية هائلة من الذكريات المشتركة بيننا بسرعة، ذكريات تستعيد كل مراحل علاقتنا المشتركة، لحظات فرح وضحك، مقالب مؤذية، مقالب طريفة، لحظات حزن وبكاء وخصام... كل أنواع الذكريات مرت كشريط سينمائي أمام عينيّ، كنا نرى بعضنا كثيرا في المنزل، نحن المحاصرون بالحرس الرئاسي، رغم غياب أبي الدائم عنا، فهو غائب عنا حتى وهو

حاضر في المنزل، أيام تمر وأبي في المنزل دون أن يتمكن من رؤيتنا. منذ اللحظة التي اختاره أبي لخلافته في الرئاسة، لم أعد أراه سوى مرات قليلة في الشهر. لقد أخذته السلطة، انبهر بفكرة أنه سيحل محل أبي في يوم من الأيام وسيحكم البلد، رغم كل الرزانة التي حاول إظهارها، فقد كان فرحه عارما باختياره خلفا لأبي، كطفل وجد لعبته المفضلة. عندما بدأت عملية إعداده، بالغ بحضور استعراضي في كل الأماكن التي يذهب إليها. حاول أبي أن يُقنعه أن القوة ليست الحضور القوي بين الناس فحسب، في السلطة القوة تعني إمساك الخيوط الكثيرة والحفاظ على التوازنات وتجنب كل المخاطر والاستعداد لها في ذات الوقت. كان فرحا ومختالا بنفسه، يهز رأسه موافقا، وسرعان ما ينسى الكلام عندما يخرج من عند أبي. أعتقد أن فكرة الخلافة ليست ابتداع أبي، إنما هي فكرة أعجبته. بدأت تخطر له الفكرة منذ عين الرئيس الكوري الشمالي ابنه قائدا للجيش في مطلع التسعينات، فقال لنفسه لما لا يكون هذا في سورية أيضا. وهي ليست المرة الأولى التي يعجب فيها بالنموذج الكوري الشمالي، فقد استحضر منها تجربة الطلائع في منتصف السبعينات، وعمل على نموذجها طلائع سورية تنظم الأطفال

في بدايات سنواتهم الدراسية الأولى (الابتدائي) لتسييس مبكر للمجتمع أكثر من نماذج الدول الأوروبية الشرقية في ذلك الوقت، عندما كانت اشتراكية. ولا أعرف إن استحضر أشياء أخرى من كوريا الشمالية أيضا. عرفت في ما بعد أنه تابع باهتمام بالغ تجربة كوريا الشمالية، وعندما توفى الرئيس الكوري الشمالي وحل الابن محل الأب بسلاسة في ذات العام الذي توفى فيه أخي الأكبر، فرح لنجاح التجربة هناك، وحزن لأن ابنه الذي أراده خليفة له في الرئاسة خطفه الموت. نجاح التجربة في كوريا زاد من قناعته بصحة ما يفعل، طالما نجحت هناك، فليس هناك أي سبب يمنعها أن تنجح في سورية. وهو ما جعله أكثر حماسا للتجربة من قبل، وهذا ما جعله يزيد من ضغوطه عليّ، حتى أصبح أكثر ملائمة لهذا الخيار، وظهر أكثر حيوية من السابق، رغم اشتداد مرضه عليه.

كلنا في العائلة صُدمنا بالوفاة المبكرة لأخينا الشاب، ظهر الحدث وكأنه كذبة غير قابلة للتصديق. أبي الوحيد الذي لم يكن مصدوما بهذا الموت، رد فعله على الوفاة كان غريبا بالنسبة لنا. بعد أن اختبرت الموقع الذي شغله أبي وواجهت تحديات أكبر من التحديات التي واجهها. استطيع

القول، إنه رجل يتعامل مع الوقائع، فمهما كانت الوقائع مشحونة بالعواطف أو مهما كانت قاسية، كان يتعامل معها بعقل بارد، لا بالعواطف، التي لا مكان لها في منصبه. يبدو أنه من موقعه توقع الأسوأ دائما، وفكر في كيفية التعامل معه، طبعا دون رغبة منه في وقوع الأسوأ، لكن بالاستعداد له، وهذه كانت واحدة من ميزاته الاستثنائية. يحب ابنه بالتأكيد، تمناه خليفة له، جاء القدر وأخذه، لن يجلس ليندب حظه، بل عليه أن يعمل على بديل سريع ومنطقي، أو بالأصح أن يعمل على البديل الذي قرره سابقا، في حال واجه هذه الحالة، كان دائما عندما يفكر بأمر ويقرره، يفكر في ذات الوقت في البدائل الممكنة. كان جاهزا لكل طارئ تقريبا، أو هكذا اعتقدت حينها. عندما أخبره المقربون بوفاة ابنه البكر في حادث سير، خافوا من ردة فعله، خافوا أن يثور ويغضب، أو أن يؤثر الخبر على صحته، فينتكس. لم يحصل أي من هذا. سأل ببرود: «هل هناك شيء مدبر في هذا الحادث؟» كان الجواب من وزير الدفاع الذي كُلف بنقل الخبر له: «لا، انقلبت سيارته، حتى أنها لم تصطدم بأي سيارة أخرى، وفحص السيارة لم يظهر أي خلل أو تلاعب فيها.» عندها انتقل إلى ما بعد الوفاة مباشرة. أعد جنازة تليق

به لا بابنه، صمم الجنازة التي كان يحب أن تكون جنازته، شاهدها وهي تسير في شوارع دمشق واللاذقية، وشاهد حزن الناس على الفارس الشهيد، ولوح للناس ووزع لهم ابتساماته، في الوقت الذي كان فيه الجميع العائلة والمسؤولون يبكون حزنا على الشاب الذي خطفه الموت مبكرا. بعد حوالي ستة أعوام ونصف ستسير جنازته بذات المدن وعلى ذات الطرقات وبذات الترتيب، لكن هذه المرة دون أن يراها هو أو يلوح لأحد، وأنا قررت أن لا أقلده، فلم ألوح لأحد في جنازته ولم أبتسم، كنت خائفا، نعم كنت خائفا، البلد كلها خائفة وتقف على كف عفريت، كيف ستسير الأمور بعد غياب الرجل الذي حكمها لثلاثين عاما؟! هل سأنجح في الحلول مكانه، وكيف ستسير إجراءات خلافته؟ هذا السؤال الذي شغل البلد حينها، سؤال لا جواب عليه بعد أن جلس الرجل المتوفى ثلاثين عاما في المنصب، لقد كان المستقبل بالنسبة للجميع ضبابيا، وبالنسبة لي حانت ساعة الحقيقة.

بعد وفاة أخي، استدعاني أبي وأخبرني أن عليّ البقاء في دمشق، وأن أنسى موضوع العودة إلى لندن لإكمال اختصاصي، قال: «هناك مهام كبرى بحاجة لك، أهم من دراستك، وعليك أن تتفرغ لها.» فهمت قراره بحرفيته، لقد

فهمت أن عليّ البقاء في دمشق، ولم أفهم أنه اختارني خليفة له إلا بعد أيام. حتى تلك اللحظة، لم أفكر أن أكون بديلا عنه وأحتل منصبه في يوم من الأيام، وبعد أن وصلني خبر وفاة أخي، لم يخطر لي ذلك أيضا، وفي دمشق دار الهمس حول أخي الذي يصغرني، وقد سمعت هذا الهمس بنفسي، لم أكن أنا في الحسبان. هكذا اعتقدت، وهكذا كانت الشائعات، ولكن أبي وحسما لأي لغط يمكن أن يتسبب في خلق حساسية في العائلة، كان قد اتخذ قراره باختياري، ولم يقبل أن يتجاوزني لمصلحة أخي الذي يصغرني، لأن هذا يعني الشقاق في العائلة، كان خياره الترتيب الزمني الذي جاء لصالحي. لم أكن يوما تواقا إلى السلطة وأبي يعرف ذلك. ويبدو أن كل شيء كان معدا سلفا قبل وفاة أخي. فكر مسبقا بكل البدائل، فقرّر أني سأكون البديل في حال غياب أخي، وكل كلام آخر يجب أن يخرس، فخرست حتى الهمسات. إضافة للترتيب الزمني، أعتقد أن أبي قرّر مسبقا أن أخي الذي يصغرني، رغم طموحه السلطوي، فإن فجاجته وتهوره وانفعاله يجعلونه غير صالح للمنصب. طبعا، وقتها أذعنت لرغبته في البقاء في دمشق، أو هكذا أظهرت، مع أن السبب كان واضحا وضوح الشمس.

عندما أخبرني أبي بعد يومين، أن عليّ أن أدير المؤسسات التي أدارها أخي المتوفى سابقا، كما عليّ الالتحاق بالجيش من جديد والخضوع لدورات عسكرية على مستوى الأركان. عندها قطعت الشك باليقين، وعرفت أنه اختارني لأكون بديله القادم. كان لهذا الاختيار هيبته عليّ، شعرت بالخوف، لذلك، في البداية، لم أكن سعيدا تماما بهذا الخيار، لم تكن السلطة مطمحي ومطلبي، في ذات الوقت لست متعففا. تصورت مسارا آخر لحياتي أكثر هدوءا وبعدا عن الأضواء. لكن ما تصورته ذهب أدراج الرياح بسبب حادث سيارة تسبب بانعطاف بحياتي باتجاه طريق آخر.

قبل أن أكون مرشحا لخلافة أبي، كانت حياتي أبسط، وقدرتي أكبر على بناء صداقات أفضل، رغم معاناتي الطويلة من انتهاك خصوصياتي بوصفي ابنا للرئيس بسبب الحراسات الدائمة. فعدم امتلاكي طموح لإشغال أي منصب، جعلني متحررا أكثر في علاقاتي وصداقاتي، صحيح أنني ابن الرئيس، لكن لم تشغلني السياسة. في جبال اللاذقية كنت أشعر بالحرية أكبر وأتنقل مع أصدقائي متخففا من حراساتي، وهذا لم يكن مسموحا به في دمشق. كنت أرافق أصدقائي إلى مطعم «الشرفة» وهو مطعم صغير

ومتواضع على شاطئ بحيرة تشرين شمال اللاذقية. هناك الهدوء يعني كل شيء، بعيدا عن صخب المحتفلين بك حقيقة أو تمثيلا. لم أكن أحب المظاهر الفخمة، كنت أحب البساطة، ضحكاتنا تسبح بعيدا على سطح البحيرة تحت ضوء القمر الساطع في ليل هادئ، هناك، سمعت من النكات ما يكفي ليقتلني ضحكا. حتى الآن وفي ذروة انشغالي، عندما أذكر أحداها، أضحك وحدي كأن جنيّا مسني أو تحولت إلى شخص مجنون يضحك وحده. خارج منصب الرئاسة، الحياة أبسط، والأصدقاء أجمل، والوقت يتسع للكثير من الأعمال، حتى السخيفة منها، كل شيء حقيقي، وكنت أحب الحقيقي. في منصب الرئاسة، اختفى الأصدقاء من حياتي، والمنصب أكل كل حياتي، لا شيء مجانيا في هذا العالم، كل شيء له ثمن، وأغلى ثمن تدفعه في منصب الرئاسة هو الغربة المطلقة، أنت غريب بالمطلق، الجميع يريدون إرضائك، ولكن لا أحد قريب منك ليكسر وحدتك وغربتك. لا يستطيع الأصدقاء أن يعاملوك كما كانوا قبل المنصب، ولا تستطيع أن تعاملهم كما كنت تفعل سابقا. المنصب يرفع الجدران ويوسعها مع الآخرين، لا يعاملك الجميع كما كانوا يعاملونك من قبل، كل شيء

يتغير. حتى أقرب الناس إليك، زوجتك في البيت تريد منك تنفيذ مطالبها، تريد أن تخرج إلى المجتمع وتلعب دور السيدة الأولى، فكان عليّ أن أخترع لها شيئا ما للتسلية، فكانت جمعية «الفردوس» الخيرية التي عملت في كل شيء. لم تكتفِ بذلك، الجمعية كانت واجهتها الاجتماعية، وهناك الكثير من النشاطات الخلفية ذات الطابع التجاري التي مارستها وتمارسها، فالاقتصاد اختصاصها وعملها، وهي مثل الجميع تريد حصتها من الثروة والسلطة. أعتقد أنها حصلت على ثروة عن هذا الطريق لا أعرف حجمها بالضبط، فأنا لا أعرف غير تلك التي تصرح لي بها. عملت بجد واستعانت بأصدقائها وأقاربها لبناء شبكة من المشاريع والمصالح. أعرف الكثير منها، بحكم متابعتي لكل شيء، لكن هي لا تعرف أني أعرف هذه الأمور، وأنا لا أُشير أو أُلمح من بعيد أو من قريب أني أعرف أعمالها التي تُخفيها عني.

في لندن، كان حبنا عاصفا، هناك لم تعاملني على أني ابن الرئيس. عندما وصلت لندن كانت الخلافة معقودة لأخي وأنا خارج المعادلة، وفي تلك الظروف اجتاحنا الحب. كنت أتردّد على بيتهم بين الحين والآخر في زيارات اجتماعية. لقد قالت نظراتنا كل شيء قبل أن تتحول الكلمات إلى أفعال.

دعاني والدها لحفل في جمعية المغتربين السوريين التي يرأسها. قبلت الدعوة، رغم أني نادرا ما كنت ألبي الدعوات في لندن. قبلت تلك الدعوة من أجلها، وطوال الوقت تمنيت أن تكون هناك حتى لا تكون استجابتي للدعوة بلا طائل وأُصاب بالخيبة والإحباط. لم أتوقع أن أجواء الحفل خانقة بالنسبة لي، فكل الحرية التي شعرتها في لندن بوصفي إنسانا عاديا يمشي بين بشر عادايين لا يعرفون من هو ولا يهمهم أن يعرفوا تلاشت في الحفل، وكأني عدت إلى دمشق دفعة واحدة وأحضر حفلة في أحد مطاعمها، تحلق الجميع حولي، البعض يريد التقاط الصور معي، والبعض يريد التعرف عليّ عن قرب، رجعت فجأة ابن الرئيس. بذلت جهدا مذهلا للتخلص والاعتذار من الموجودين، وعندما انفردت بها أمام أنظار الجميع، كانت تضحك من رؤيتي وأنا أكافح للخروج من مأزقي، فهي تعرف ما أعاني تماما. قالت لي: «أنت محاصر تماما.» قلت وأنا أتنهد: «لقد أعادوني إلى دمشق.» قالت: «لا عليك، أعرف أنه من الصعب أن تكون ابنا للرئيس.» قلت: «وأنا أحب أن أكون نفسي لا ابن الرئيس.» قالت: «أنا أراك أنت.» تجرأت وقلت دون مقدمات: «أنا جئت من أجلك.» اندهشت وقالت: «هذا يسعدني.» قلت: «أتمنى أن أراك ونخرج

سوية بعيدا عن هذا الحصار.» شعرت أنني تحدثت كمراهق، لكن الكلمات كانت قد خرجت ولم يعد من الممكن إستعادتها. شعرت بالخجل، لكن ابتسامتها أخرجتني من خجلي، وجوابها كان واضحا «يسعدني أن أرافقك إلى أي مكان.» تبادلنا بطاقاتنا. قلت: «انتظر مكالمتك، اعتذر منك، نظرات الآخرين تلسعني، سأعود إلى العقاب، لكن على الأقل وعدك بمرافقتي، يستحق هذا العقاب وأكثر.» ضحكت وضحكت أنا، وقالت وأنا أصافحها: «لا تهتم، سأعوضك عن هذا العقاب.»

لم أنتظر طويلا، اتصلت في اليوم التالي، وكنا على موعد، كانت لندن ممتعة بفضلها، هي ابنة المدينة، ولدت هناك، فكانت دليلي إلى مدينة الضباب، نهارها وليلها، وأماكنها الأثيرة. وأنا أحببت ليل لندن كثيرا. وكلما هربت من ابن خالي الذي سكن معي في شقة لندن وذهبت لأسهر معها، أعود لأجده غاضبا. لأسابيع طويلة اعتدت رؤيتها على الأقل ليلة السبت أو الأحد، ذهبنا إلى مطاعم فخمة، ذهبنا إلى بسطات تبيع أشياء بسيطة وشعبية، أكلنا هناك، شربت الكثير من الخمر في بارات لندن، وكثيرا ما ركبنا التكسي عائدين إلى البيت، ولا مرة تعرف عليّ أحدهم

بوصفي ابن الرئيس السوري. كنت راكبا مجهولا مثل كل الركاب المجهولين الآخرين الذين يعودون إلى شققهم سكارى ليلة العطلة. وجودها معي في لندن أعطى المدينة جمالية خاصة، وكوني حرّ من أي التزام جعل حياتي هناك أكثر بساطة ومتعة. لم نخطط لشيء، كانت نزهاتنا عبثية وبلا تخطيط، هي بنت اللحظة، نرتجلها حسب المزاج والطقس، وبذلك تكون أجمل. نسير في الشارع، فجأة، تقترح أن نذهب إلى مكان تذكرته، نذهب فورا دون نقاش أو تردّد. سرقنا القبلات في الشوارع كالأطفال، هربنا من مطر داهمنا فجأة، ركضنا بين الناس ضاحكين، جلسنا على حافة الرصيف نراقب قمرا في يوم هارب من ضباب لندن... منذ طفولتي لم أشعر أنني حرّ وغير مقيّد مثلما شعرت في تلك الفترة التي قضيتها في لندن على قصرها. هناك، ولأول مرة وأنا أدعو امرأة إلى شقتي، لم أخف من رقابة أبي ومن احتمال وجود كاميرات خفية رُكِبت في مكان ما، أو من مراقبة أجهزة المخابرات، كما كنت أخاف عندما أرافق امرأة في دمشق إلى شقة ما. يومها، طردت ابن خالي من الشقة، لأني أردت أن نكون وحدنا. كان ذلك يوما من شتاء لندن بمطره الخفيف الذي يؤجج المشاعر التي تحلق مغسولة

بين حبات المطر. هناك إحساس غريب يثيره المطر داخلي، إحساس بحميمية تجاه كل شيء، الأشخاص والأشياء. عندما دخلنا الشقة وتخلصنا من معاطفنا المبللة في المدخل، كنا نضحك بلا سبب محدد، نضحك لأننا فرحون، وليس لأن كلاما ساخرا قد قيل أو نكتة قد ألقيت. عرضت عليها كأسا من النبيذ لطرد البرد من أجسامنا، فوافقت. ذهبت إلى المطبخ، فتحت زجاجة النبيذ الفرنسي «شاتو» واستمتعت وأنا أسمع الفرقعة الخفيفة التي تصدرها الزجاجة عند سحب الفلينة منها. وأطربني صوت انسياب النبيذ في الكأسين. عندما عدت إلى الصالة، كانت تقف أمام زجاج الباب المطل على الشرفة تتأمل المطر والأضواء التي يغسلها في الخارج. ناولتها كأس النبيذ دون أن أتكلم، وقفت إلى جانبها أتأمل ما تتأمل، ألتفت بين الحين والآخر لأنظر إلى وجهها وعينيها المتلألئتين. خجلتْ من نظراتي، لامستني بجسدها، وأرخت رأسها على كتفي. صمت جميل يلّف المكان، صمت مُتواطئ عليه، يقول ما لا تستطيع الكلمات قوله. أفرغت كأسي ووضعته على الحافة التي تعلو جهاز التدفئة، أخذت كأسها أيضا، وضعته إلى جانب كأسي. أمسكتها من كتفيها وأزحتها حتى باتت مقابلي تاما، وجهها مقابل وجهي. تأملت

وجهها الساحر، عينان واسعتان، ووجنتان عاليتان، وابتسامة آسرة، وذقن دقيق، وصف أسنان من اللؤلؤ وشعر مبلل ببقايا المطر يعطيها شكلا غجريا كأنها خارجة من الأفلام السينمائية، سعادة كاملة تبث الحرارة في جسدي. تمنيت لو أبقى أتأملها إلى الأبد، احتضنتها، فعدت واشتقت إلى وجهها، أبعدتها قليلا، لأعرف هل ما رأيته حقيقة أم أني أعيش حلما. لم أعد أتمالك نفسي، وأنا أحسّ أنفاسها الحارة على صدري وأسمع دوّي دقات قلبها. عندما قبلت حلمة أذنها، صدرت عنها آه ناعمة، أثارت جنوني، احتضنتها بقوة وقبلت شفتيها، اجتاحتني الرغبة كما اجتاحتها، يداها تعبثان بشعري، ويداي ترفع كنزتها القطنية، نسير بلا وعي نحو غرفة النوم كأننا نسير في حلم ساحر إلى مغارة السحر. كأن كل شيء معدّ لهذه اللحظة التي يلتحم فيها جسدان، يتوحدان ويخرجان من العالم صانعان عالمهما الخاص ويعيشان أغنيتهما الخاصة، ويؤديان رقصة جسدين اشتعلا حريقا لاهبا، لا يطفئه سوى توغل عميق لرجل محموم في جسد امرأة يرتجف رغبة لا بردا.

بعودتي إلى دمشق، شعرت خسارتي كبيرة بابتعادي عنها، وفاة أخي جعلت حياتي تتعطف إلى طريق لم يكن

يوما خياري. لم تنقطع العلاقة معها بعد عودتي إلى دمشق، بل أخذت شكلا آخر. كانت تأتي إلى دمشق بين الحين والآخر، لكني لم أكن حرا في دمشق مثلما كنت في لندن حتى أرافقها بنزهات مجنونة، مثل تلك التي قمنا بها في لندن، وكانت أجمل أيام حياتي، وأنا دائما ما أحنّ إلى تلك الأيام. في دمشق كنت مضطرا أن أراها بعيدا عن العيون أو في أماكن فيها أقل عدد ممكن من الناس. وعندما تكون في لندن، تقتصر العلاقة على المكالمات الهاتفية التي كانت تتناقص بفعل انشغالي الكبير في ملفات الرئاسة الكثيرة والمتشابكة.

بعد أن توليت منصب الرئاسة بفترة قصيرة، اتخذت قرار الزواج منها، عندما فكرت في خياراتي للزواج، كانت هي الخيار الأفضل، لاعتبارات سياسية واجتماعية وعائلية وجمالية، إضافة لذلك، فأنا عشت معها قصة حب جميلة في لندن. نعم كل المواصفات اللازمة لزوجة الرئيس تنطبق عليها. عندما أخبرتها بعزمي الزواج منها، لم تصدق ذلك. قلت: «صَدِقي» خلال فترة قصيرة تم ترتيب كل شيء، أخبرتها أنه لن يكون هناك حفلا كبيرا، سيقتصر الأمر على حفل صغير مقتصر على العائلتين الصغيرتين، دون

إعلانات وأخبار إثارة صحفية عن هذا الزواج. وافقت فورا والفرحة العارمة تجتاحها. من يعرض عليها الزواج، ليس ذلك الشخص الذي عاشت معه قصة حب في لندن بوصفه ابنا للرئيس، وشخص ليس له طموحات سياسية، ولا يُعد لأي منصب. من يعرض عليها الزواج بات شخصا آخر، ليس طامحا للرئاسة، بل أصبح الرئيس بالفعل، لم تصدق ما يحدث معها. أتساءل اليوم، هل فعلا لم تكن مكترثة بأني ابن الرئيس عندما تعرفت عليّ في لندن، وأن شخصيتي هي التي أعجبتها؟ اليوم أشك بذلك، فرحتها بزواجها من الرئيس كانت تقول غير ذلك. كانت مكترثة منذ البداية وكان يثيرها أن تقيم علاقة حب مع ابن الرئيس، ولا شك كان مثيرا بالنسبة لها أن تكون زوجة لابن الرئيس، ولا شك بأن الإثارة ستزيد عندما تكون زوجة الرئيس دفعة واحدة، والسيدة الأولى في البلد. لم يكن هذا الزواج ليمر بذات السهولة التي سار عليها، لو اتخذت القرار وأبي على قيد الحياة، أو أن أبي اختار لي امرأة محددة لأتزوجها لمتطلبات ترتيب خلافته لما استطعت الرفض، ولاضطرت لتنفيذ رغبته على أكمل وجه. كنت محظوظا في هذا الموضوع، لم يفكر أبي بتزوجي، فوجدت نفسي أختار من أريد للزواج. عارضت

أمي زواجي من امرأة سنية، أرادت أن أسير على طريق والدي وأتزوج امرأة من طائفتي ذاتها، وهو ما يُقوي مركزي داخلها ويجعلها أكثر ولاء لي، على اعتبار أن الزواج من امرأة من طائفتي، سيعتبر وسط الطائفة إخلاصا لها، فالطائفة هي حامية النظام من وجهة نظر أمي، لذلك علينا أن نراعي ذلك. وحسب رأيها، أبي اعتمد اعتمادا رئيسيا على المقربين من الطائفة، فهم موضع ثقته لأنهم الأكثر إخلاصا له على مدى تجربته الطويلة في الحكم. لذلك اعتقدت أنني أحتاج أن أكون أقرب إلى الطائفة كلما سنحت الفرصة، والزواج من إحدى بناتها مناسبة لذلك، خاصة وأني تزوجت في بداية تسلمي منصب الرئيس. كان لي وجهة نظر أخرى، وبعيدا عن الحب، حاولت اقناعها بها. عليّ أن أكون رئيس كل السوريين، وبزواجي من امرأة تنتمي إلى الأغلبية في البلد أعلن أنني ابن هذا البلد، وليس ابن الطائفة، هذا لا يغني عن رعاية الطائفة والاهتمام بها كما كان يفعل أبي. لكن هناك أفضليات وأولويات، الأولية بالنسبة لي أن يعرف الجميع أني أتعامل بوصفي رئيسا لكل السوريين وليس لفئة صغيرة منهم. أمي لم تقتنع، ولكنها تمانع رغبة الرئيس في أن يتزوج من يختار، أبدت رأيها وثم صمتت، وقامت بما يجب

عليها القيام به، النصيحة. صحيح وقع الكثير من المشاحنات بين أمي وزوجتي، لكنها المشاحنات التقليدية بين الحماة والكنة.

بعد عودتي من لندن، وجدت نفسي منشغلا وغارقا في إعدادات لا تنتهي، وخلال أشهر تحول التردد إلى اندماج كامل في المسار الذي اختارني أبي والقدر له، استسلمت له، وأخذت أقوم بما يتوجب عليّ القيام به على أكمل وجه. أدركت وقتها أني ودعت حياتي السابقة إلى غير رجعة. من بين الإعدادات التي تم العمل عليها لترسيخ خلافة أخي قبل وفاته هو انتشار الصور، فقد ملأت صور ثنائية لأبي وأخي معا البلد، كنت تجدها في كل مكان، مطبوعة على الورق ومرسومة على الجدران. بعد الوفاة مباشرة، استبدلت الصورة بصورة ثلاثية، لأبي ولأخي ولي معا، أصبحت تراها في كل مكان في البلد. لقد بدأ العمل على أكثر من صعيد لإظهاري والتركيز عليّ بوصفي الاستمرارية الأمثل لخلافة أبي في حكم البلد. هذا جزء من آلة العمل في البلد كما صممها أبي منذ سنوات طويلة. طبعا لم تكن تلك الصور لترى النور دون موافقته. لم يأخذ أبي القرارات كلها بإصدار الأوامر إلى الآخرين بالقيام بالكبيرة والصغير، هناك قرارات كثيرة

أخذها بالسلب. ومنها آلية الحضور في المجتمع وفي وسائل الإعلام. فقد كان حوله مجموعة من الرجال يعرفون ما يريد، ويحاولون دوما تحويل إرادته وترجمتها إلى واقع من دون أن يقول ذلك أو يطلبه. وإن نجحت عملية الترجمة والتحويل يكافئ فاعلها ومبتكرها، وإن فشلت يطلب إزالتها ويوبخ أو يعاقب الذي قام بها لأنه فشل بالقيام بالمهام المطلوبة والمتوقعة منه. وفي هذا الموضوع، مباشرة وأثناء الجنازة بدأ التركيز عليّ، حتى قبل أن يخبرني أن عليّ البقاء في دمشق، وكأن كل شيء معدّ قبل أن أصل إلى دمشق، وأن هناك أشخاصا مقربين من أبي يعرفون هذا القرار قبلي. كان مستعجلا، صحته تتدهور باستمرار، ويعتقد أن حياته قد لا تصمد حتى أبلغ الأربعين من عمري، وهو شرط الدستور لعمر الشخص الذي يسمح له بشغل منصب رئيس الجمهورية، وأنا في ذلك العام كنت في التاسعة والعشرين من عمري فقط، أخذ تحضيري للرئاسة يسير بسرعة لم أكن قادرا على ملاحقتها أغلب الأحيان، في الوقت الذي يسير كل شيء بالبلد ببطء.

خلال أيام وجدت جدولي اليومي مزدحم بالكثير من القضايا التي يجب الاطلاع عليها، مسائل عسكرية،

اقتصادية، سياسية، أمنية، قانونية... وأشياء أخرى يجب تعلمها وأخرى يجب أن أمارسها، فالسلطة تحتاج كل هذا وأشياء إضافية أيضا لا أحد يعلمك إياها، تعتمد على موهبتك. والسياسة تحتاج في البداية والنهاية أن تحبها، أن تتغمس بها. في البداية شعرت بالضيق والتعب والإرهاق من ازدحام جدولي اليومي، بعد ذلك أصبحت أستمتع به، أتهرب منه في بعض الأوقات، لكني أقوم به في نهاية المطاف بالكثير من الشغف والحب. كان أبي صارما في بعض القضايا ولم يسمح لي بالتهرب منها، خاصة تلك التي لها علاقة بالقضايا الأمنية والعسكرية والمتعلقة بالسياسة الخارجية. هذه مهمات لم يكن من الممكن التهرب منها ولا اللعب بها ولا أخذها بخفة. لقد أفهمني بشكل مباشر وغير مباشر، أن هناك قضايا لا يمكن العبث بها، لأنها ببساطة قد تكلفك السلطة، فالسلطة غير محصنة بذاتها، نحن الذين نمسك بها، نحصنها. دائما، يفكر الآخرون في الجلوس مكاننا. ببساطة، السلطة مغرية. ونحن في العائلة يجب أن نكون حريصين جدا وحساسين تجاه كل القضايا التي تتعلق بالسلطة، فهي بالنسبة لنا قضية حياة أو موت، ليس أقل من ذلك، لذلك يجب الإمساك بها بأقصى قوة

ممكنة. عندما تربط حياتك بالسلطة، فهو رباط إلى الأبد، ليس لك خيار الانسحاب. سأتذكر هذا الدرس وأفهمه جيدا، عندما تشن الحرب عليّ من الجميع وعلى كل الجبهات. فالسياسة ليست كلها فترات رخاء وتمتع بالسلطة، هناك فترات أزمات، وحتى فترات حروب، وهناك أثمان يجب أن تُدفع. في الأزمات الكبيرة عليك أن تمشي على خيط رفيع وعليك أن تحافظ على توازنك وأن لا تقع. لذلك عليك استثمار كل حواسك حتى لا تفلت الأشياء منك. ينصحك الآخرون، تستشيرهم، يدلون بآرائهم ويغادرون، لكن عليك أنت وحدك أن تقرّر، والقرار في هذا الموقع ليس سهلا في كل الحالات. عرفت مبكرا، أن السياسي يشبه الممثل، والسياسي الجيد هو الذي يستطيع أن يلعب كل الأدوار بألمعية تماما مثل الممثلين النجوم. فعندما تعمل في السياسة عليك أن تنسى قضاياك الشخصية، فكل شيء يجب أن يُوظف من أجلها، من أجل الدور الذي تقوم به، لذلك لا يمكن ممارسة السياسة في أوقات الفراغ، إنها تستولي على حياتك كلها، إذا أردت أن تكون سياسيا جيدا، فعليك أن تتفرغ تماما للعمل السياسي، وكل الأعمال الأخرى هناك من يتابعها ويقوم بها بدلا عنك.

كانت العلاقة مع المثقفين واحدة من الأشياء المعذبة التي فرضها أبي عليّ، ولازمتني بعد أن أصبحت رئيسا. منذ بداية مشواري، سألت نفسي: «ماذا سأتعلم من ثرثرة المثقفين؟» كنت أستمع إليهم ضمن برنامج لم أختاره أنا، اختاره لي أبي. أنا لم أحب المثقفين يوما، أنهم يثرثرون دون أن يقدموا شيئا ملموسا، يتكلمون ويتكلمون دون ملل، فالكلام مهنتهم، ويعتقدون أنهم سيغيرون العالم بكلماتهم، ويعتقدون أنهم سيغيرون البلد من خلالي بكلماتهم، أنا واسطتهم للتغيير الذي يريدون. صحيح أني سمعت الكثير من الكلام المهم، ولكن سمعت كلاما تافها أكثر بكثير من الكلام الذي يحمل معنى، استمتعت بالنقاش معهم، وكنت أفحمهم في الكثير من المرات. مع الوقت، اكتشفت أنهم يلعبون هذا الدور من أجل تعزيز ثقتي بنفسي في الحوارات، أو أنها قوة السلطة التي أمثلها تفرض نفسها عليهم وليس قوة ومنطق الكلمات التي أقولها للدفاع عن حججي في النقاش، لذلك عليهم أن يقروا بصحة ما أقول بصرف النظر عن رأيهم الحقيقي. وقتها عرفت، الفارق الكبير بين الكلام والواقع في بلدنا. من غير المسموح لأحد أن يقول أن ما تقوله السلطة غير واقعي مهما بدا كلاما يتناقض مع واقع الحال. وصاحب

السلطة مُقنع سواء كان كلامه قريبا من الواقع أو بعيدا عنه، إنه مُقنع بقوة السلطة وعنفها، لذلك رجل الدولة لا يندم على قراراته حتى لو كانت خاطئة. الكثير من هؤلاء المثقفين يمكنهم لي عنق اللغة من أجل اكتشاف عبقرية رجل السلطة في كلام في غاية الغباء والسخف، إنها مهنتهم في التمسح بالسلطة والتغطية على زيف الواقع بالكلمات. يزيف السياسي الواقع لمصلحته في الشعارات الكبيرة، يأتي المثقف ليشرح الشعارات ويجعلها قواعد عبقرية في منطق التاريخ والرؤية البعيدة لمستقبل زاهر لن يراه أحد. لم أراهن عليهم، هذا ما جعلني أعتمد على نفسي في تثقيف نفسي، قرأت كتبا في السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع وحتى في الفلسفة التي لم أفهم منها شيئا. في رحلتي مع الكتب عرفت أني أستطيع أن أكوّن وجهة نظري ونظرتي إلى الحياة والعالم باستقلال عن هؤلاء الأغبياء المتملقين. وجهة نظر استطيع من خلالها قيادة البلد بعد أبي إلى المستقبل الذي تستحقه. التهمت الكتب بقدر ما أستطيع، وحاولت أن أعبر عنها كتابة، ألخص بعض الأفكار العميقة، وأحيانا أطلب من بعضهم أن يصيغوها بتوسع أكثر. كنت أتفاجأ كثيرا من غرابة ما يكتبوه في شرح ملاحظاتي على الكتب، وأحيانا

أخرى أستغرب شرحها الدقيق وتوسيعها بطريقة ذكية لتبيان عمق أفكاري. في كل الحالات، حتى يشرح الآخرون كلامك بشكل جيد، عليك أولا أن تملك أفكارا واضحة. وأنا عملت بجد على أن أملك أفكاري الخاصة قبل أن أحل في المنصب مكان أبي. وأنا الطبيب صاحب التأهيل العلمي، بات عليّ أن أعيّد تأهيل نفسي بمعارف متنوعة احتاجها في الموقع الجديد الذي وجدت نفسي فيه، وفي الموقع الذي اخترت لأشغله في المستقبل. كان عليّ أن أُحصِّل بأسرع وقت ممكن، معارف كثيفة في السياسة والتاريخ وعلم النفس والاقتصاد وعلم الإدارة والقانون الدولي والعلوم العسكرية وغيرها من المعارف الضرورية لهذا المنصب. من خلال معارفي الجديدة وإطلالتي الجديد على العالم والبلد ومشاكله، بدأت أشعر بضرورة إحداث تغيير إذا كنا نريد أن نسير فعلا نحو مستقبل أفضل، فهناك كم هائل من المشاكل المتراكمة. بدأت أدرك الكثير من الأشياء الخاطئة في البلد التي تحتاج إلى إصلاح. أخذت بالكثير من التروي أصيغ وجهة نظر بحالة البلد وبالإصلاحات التي تحتاجها ومتطلبات هذه الإصلاحات ومدى شموليتها، وكان والدي يدفع بهذا الاتجاه، حتى أبدو رجلا ينتمي إلى المستقبل لا إلى الماضي.

حاولت منذ عودتي من لندن إقناع أبي بضرورة إدخال الانترنت إلى سورية، إلا أنه لم يقتنع، وأحال الموضوع إلى الأجهزة الأمنية، معتبرا أنها هي صاحبة القرار في هذا الموضوع، والأجهزة الأمنية تعارض هذا الدخول، لأنها تعتبره سيفا ذا حدين. بتقدير هذه الأجهزة، إدخال الانترنت، يمكن أن يؤذي أمن البلد كثيرا ، فكان القرار رفض إدخاله. اعتبرت تأخر دخول الانترنت وهو وسيلة الاتصالات الحديثة، يجعلنا في سورية خارج السياق الذي يسير به العالم. لذلك عندما استلمت الرئاسة، كان من الأولويات إدخال الإنترنت إلى البلد. في البداية، عارضت الأجهزة الأمنية هذا الدخول، قلت لهم بوضوح، إن القرار لا رجعة عنه، وأن عليهم أن يتخذوا الإجراءات الضرورية لحماية البلد من مخاطره، لكن لا عودة عن دخوله البلد فلن نبقى بلدا ينتمي إلى عالم ما قبل الإنترنت. وأنا أعرف أن هناك في الأوساط القريبة مني، من يعيد تفاقم حرب الإرهاب علينا إلى إدخالي الانترنت إلى البلد ، فهم يعتبرون أنه بلا إنترنت القدرة على التحكم بالبلد أسهل. لا يمكن أن تستمر سورية خارج عصر الاتصالات الحديثة، بلا هواتف خليوية وبلا إنترنت، ومن يرفض هذا الأشياء يعيش في الستينات والسبعينات، أي خارج العصر.

على البلد أن تتعايش مع التطورات الحديثة، وأن تحمي نفسها من مخاطرها الجانبية في نفس الوقت. وعندما تفشل أجهزتنا الأمنية في أداء مهامها، تعيد هذا الفشل إلى هذه الوسائل التي باتت موجودة في كل العالم دون أن تمس أمن الدول التي أدخلتها.

في سنواته الأخيرة، انشغل أبي بقضية واحد، خلافته، ويبدو أنه أدرك وضعه الصحي الحرج تمام الإدراك وأن الوقت يضغط عليه بشدة. أهم صورة لي أرادها أن تترسخ في ذهن الناس في تلك الفترة، هي أنني صاحب اليد النظيفة والقوية في محاربة الفساد من أي موقع جاء هذا الفساد، ولن يكون أحد خارج دائرة المحاسبة، حتى عائلة الرئيس. لذلك كلفني بإزالة ميناء صغير استخدمه عمي الذي نفيَّ خارج سورية لتهريب البضائع خارج الجمارك، وكلفني أيضا باعتقال بعض الشباب من أبناء العائلة أصحاب السمعة السيئة للغاية في مدن الساحل لأنهم ارتكبوا أفعال شائنة. بمثل هذه الأفعال رسم لي صورة مختلفة عن الفساد الذي تستفيد منه العائلة وبعض المسؤولين المتنفذين، دون أن يكون الرئيس أو أبناؤه جزءا منه، بل على العكس عندما يعرفون يحاربون

كل فاسد، حتى ولو كان الفاسد من العائلة الضيقة، اعتقد أن هذه الصورة عززت مكانتي في البلد.

٤

احتاج منصب الرئاسة إلى مراكمة معارف متنوعة، وهذا ما فرض عليّ قراءة الكثير من الكتب لتعزيز قدراتي وإمكانياتي في المعرفة وفي الجدل مع الآخرين، وعندما لا أملك الوقت الكافي لقراءة الكتب كاملة، أطلب تكليف آخرين بتلخيصها بحيث أستطيع معرفة محتواها دون أن أقرأها كاملة. في كثير من الأحيان وجدت أن الملخصات تغني عن الكتب الكبيرة التي فيها استطرادات لا تنتهي. علمتني متابعتي للجدل والنقاش والسياسة والكثير من الأفكار والمدارس السياسية درسا مهما لكن من خارجها، هو أن كل الكلام السياسي لا أهمية له طالما لا يملك القوة التي تسنده. القوة هي الأساس للفعالية السياسية، وهي التي تستطيع أن تُخضع كل الأفكار. كان المثال الحي أمامي دائما، وهو أن مئات وآلاف المقالات لا تستطيع تحريك شيء في الواقع أو تغير رئيس بلدية صغيرة، لكن عندما تملك

السلطة التي هي التعبير عن القوة وتملك أدواتها، تستطيع أن تعزله دون أن يرّف لك جفن، ودون أن يستطيع المعزول التذمر. قد لا يبدو المثال موفقا تماما. هكذا اعتقدت أن الأمور تجري في الواقع. لذلك، لم يكن هناك مانع من إعطاء الوعود بتغييرات تحتاجها البلد، تغييرات سياسية واقتصادية وتكنولوجية وغيرها. فالكلام في نهاية المطاف لا يغير الواقع، الأفعال هي التي تغيره، وأصحاب الكلام طوال ثلاثين عاما من حكم أبي لم يستطيعوا أن يؤثروا في أي قضية جوهرية. ظلوا يقولون ما يريدون، وبقيَّ أبي يفعل ما يشاء. صحيح أن الكثيرين دفعوا أثمانا غالية في تطاولهم على الدولة وعلى أبي، وقضوا سنوات طويلة في السجون بسبب آرائهم في سياسات أبي وفي طريقة حكمه للبلد. لكني أعتقد أن الكلام بحد ذاته لا يشكل خطرا، وبالتالي، فليتكلموا كيفما شاءوا طالما أنهم لا يؤثرون فعلا على القرار. كانت الأحاديث مع كثير من المثقفين تذهب باتجاه واحد، أن البلد بحاجة إلى تغيرات كبيرة، أولها السماح بحرية الرأي حتى تستطيع الناس التعبير عن نفسها ومطالبها، والسماح بحرية الرأي يحتاج إلى السماح للناس بالتجمع، وبالتالي الانتظام في أحزاب سياسية، وهذا ما كان يمنعه

قانون الطوارئ دون موافقة مسبقة من أجهزة الأمن. كانت قناعتي حينها، أن هناك مبالغة في الإجراءات الأمنية التي تقيد المواطن وتجعله خائفا من كل شيء ومن أي أحد، يعمل بنظام التقية حتى لا يقع في المحظور ويدفع ثمنا غاليا، حيث تستطيع أن تعمل في كل شيء وتتحدث عن كل شيء، إلا في السياسة، فهنا تدخل دائرة الخطر مباشرة. أدركت أن أبي قد صمم النظام على قاعدة على المواطن أن يفهم أن حياته كلها مكشوفة أمام الأجهزة الأمنية، لذلك عليه أن يخاف كل الوقت من الوقوع في الخطأ حتى لا يدفع ثمنا غاليا، لذلك عمّ الخوف البلد، ولا أحد يستطيع التحدث في أي شأن عام، خوفا من أن يُفهم ذلك تدخلا في شؤون الدولة ما يؤدي إلى السجن مباشرة دون محاكمة، توقيف عرفي، تحت أحكام قانون الطوارئ. ومن خلال مناقشات مطولة مع اختصاصيين في كل المجالات، تبين أن البلد تحتاج إلى كتلة ثلاثية من الإصلاحات، السياسية والاقتصادية والإدارية، وقد جمعتها في بداية استلامي الرئاسة، تحت عنوان: «الإصلاح والتطوير والتحديث» وكل كلمة كانت تدل على الحاجة التي تحمل عنوانها. الوضع السياسي والجبهة الوطنية بحاجة إلى إصلاح وتطوير كذلك الكثير في الوزارات ومجلس

الشعب والمجالس المحلية، قانون صحافة، وقانون أحزاب... وغيرها. والاقتصاد بحاجة إلى التطوير، لأنه مع المتغيرات في العالم بات اقتصادا متقادما ولم يعد يصلح للزمن الجديد، لذلك يحتاج إلى تطوير حتى يستطيع أن يتماشى مع اقتصاد العالم. كذلك البنية الإدارية في وزارات الدولة متقادمة ومتهالكة وهي بحاجة إلى تحديث إداري وتكنولوجي. وصلت إلى هذه القناعة قبل وفاة أبي، وعملت على تطوير توجه يستفيد مما أرساه أبي من استقرار، أي أن لا يشكل الإصلاح قطيعة مع تراث والدي. صغت كل ذلك في خطاب القسم عندما توليت المنصب بعد استفتاء الشعب وانتخابي رئيسا. قلت أننا بحاجة إلى العمل على ثلاثة محاور. المحور الأول: يتضمن طرح أفكار جديدة في المجالات كافة سواء بهدف حل مشكلاتنا ومصاعبنا الراهنة أو بهدف تطوير الواقع الحالي لجعل مستقبلنا أفضل. المحور الثاني: يتضمن تجديد أفكار قديمة لا تناسب واقعنا مع إمكانية الاستغناء عن أفكار قديمة لا يمكن أن نجدّدها ولم يعد ممكنا الاستفادة منها بل أصبحت معيقة لأدائنا. المحور الثالث: ويتضمن تطوير أفكار قديمة تم تجديدها لكي تتناسب مع الأهداف الحاضرة والمستقبلية وكل عمل بحاجة إلى قياسات

لتحديد نسبة الإنجاز والتقدم فيه، ومن المفيد في هذا المجال أن نستند إلى مجموعة من المعايير. كل ذلك عبر النقد البناء الذي نحن بحاجة ماسّة له، على أن يؤدي ذلك إلى تطوير ممارساتنا الديمقراطية، المستندة إلى قبول الرأي الآخر، على أن يكون ذلك طريقا ذا اتجاهين حيث ما يحق لي يحق للآخرين.

كان لخطاب القسم وقع طيب، وقد اعتبر من الأطراف الداخلية والخارجية، خطابا واعدا بسورية أخرى، سورية جديدة مع العهد الجديد. وسرعان من ظهر بيان لعدد من المثقفين يطالب بإلغاء حالة الطوارئ والأحكام العرفية المطبقة في سورية منذ ١٩٦٣وإصدار عفو عام عن جميع المعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي والضمير والملاحقين لأسباب سياسية، والسماح بعودة المشردين والمنفيين وإرساء دولة القانون، وإطلاق الحريات العامة، والاعتراف بالتعددية السياسية والفكرية وحرية الاجتماع والصحافة والتعبير عن الرأي، وتحرير الحياة العامة من القوانين والقيود وأشكال الرقابة المفروضة عليها... وولدّ الكلام كلاما أكثر تفصيلا في بيان آخر وقعه أكثر من ألف هاجموا الحزب الحاكم وطالبوا بإنهاء دوره كقائد للدولة والمجتمع، وطالبوا

بالحريات السياسية للجميع... وغيرها من المطالب التي تجاوزت خطاب القسم وذهبت بعيدا. لم يبقَ الكلام كلاما، تحول إلى ممارسات في الواقع، وأخذت بعض الشخصيات تتجرأ على افتتاح منتديات، تناقش فيها الكثير من القضايا التي كان الكلام فيها ممنوعا، وأخذت تنتشر في المحافظات الأخرى وتستقطب المزيد من المترددين على هذه المنتديات، بدأت محاولات علنية لتأسيس أحزاب جديدة غير تلك المؤتلفة في إطار «الجبهة الوطنية التقدمية» الحاكمة بناء على وعود علنية مني بإصدار قانون للأحزاب. كبرت كرة الثلج وتدحرجت، وما كنت أعتقده من أن الكلام لا يشكل خطرا طالما لا يملك القوة، بدأت الوقائع التي شهدتها تغير هذه القناعة، وبدأت أقتنع أن الكلام نفسه يمكن أن يشكل القوة، أو الكلام بذاته قوة، وبالتالي يمكن أن يتحول إلى تهديد للدولة. كنت أراقب الوضع خلال الأشهر التي تلت خطاب القسم، وحاولت دفع أعضاء الحزب الحاكم الذي أقف على رأسه للذهاب إلى المنتديات ومناقشة المنتقدين لسياستنا الحجة بالحجة. اتضح أن الحزب مترهل وغير قادر على الدفاع عن نفسه في مناقشة حرة، لقد أفسده الحكم الطويل للبلد وبات في غاية الترهل. وأصبح واضحا

لي، أن ما يجري من مخاض سياسي يشكل خطرا جديّا، وكان تقدير الأجهزة الأمنية، أن هناك قناعة أخذت تتشكل في الشارع أن الرئيس الجديد ضعيف وغير قادر على السيطرة على الوضع. ورأي بعض المسؤولين، أنه بعد فترة طويلة من منع التعبير عن الرأي، يشكل السماح به خطرا على السلطة المصمّمة على العمل بطريقة مختلفة لا تتناسب مع الحريات التي تتصاعد المطالبة بها، هذه المطالبة التي ولدت بفعل وعودي الشخصية بالانفتاح على المجتمع وإحداث تغيرات أساسية تحتاجها البلد. تبين أن حرية التعبير تحتاج إلى سلطة مصمّمة بشكل آخر وعلاقاتها مع المجتمع تمر بقنوات أخرى، غير تلك الموجودة في سورية، لذلك شكل هذا النوع من الحريات خطرا داهما على الدولة بكل مكوناتها بما فيها منصب الرئاسة، الذي اعتقدت سابقا أنه بمنأى عن أي خطر. بعد خطاب القسم بدأت أرى المشهد من موقع الرئيس، ومن هناك اختلف المشهد تماما عمّا كان عليه وأنا أتأمله في ظل حكم أبي. الرئاسة منصب لا يحتمل ترف التجريب، لأن التجريب قد يؤدي إلى فتح ثغرات غير متوقعه في الجدران، وهو ما لا تحمد عقباه. أدركت أن الكلمات الغامضة التي قيلت في خطاب القسم، قد تم حملها بعيدا عن معناها وتم

إعادة بناء خطاب سياسي بحيث يبدو أنه لا يتصادم مع خطاب القسم، بل يكمله ويشرحه، لكنه يفكك قواعد السلطة كما بناها أبي، بذلك تم حمل خطاب القسم بعيدا ليتناقض مع الدولة ذاتها التي أقف على رأسها. لقد تم توظيف خطاب القسم ضد الدولة وضدي شخصيا، والذين حاولوا أن يُظهروا أنفسهم أنهم يقفون معي في مواجهة المصاعب والمشكلات التي تعاني منها سورية ودعوت الجميع إلى المساهمة في حلها في خطاب القسم. بدأت تتضح أهدافهم الخبيثة من خلال القول إن هذه المشكلات لا تحل بالأدوات التي طلبت أنا شخصيا العمل من خلالها لحل هذه المشكلات، بل هي بحاجة إلى هدم بنية الدولة الاستبدادية لأنها هي العائق الأساسي أمام حل هذه المشكلات بالطرق الأمثل، ولذلك لا يمكن العمل في ظل قانون الطوارئ، الحزب الحاكم، الجبهة الوطنية، أجهزة الأمن، منع حرية التعبير، وانتهاك حقوق الإنسان... الخ كل هذا يجب الخلاص منه، حتى تتمكن سورية من التعامل مع أزماتها ومشاكلها. كل هذه المطالب تم توظيفها من أجل تفكيك السلطة التي أنا على رأسها، بذريعة الوقوف مع التطوير والتحديث الذي دعوت إليه.

استثمر المثقفون المعادون خطاب القسم لتخريب البلد، أكثرهم تبنتهم المخابرات الأميركية للقيام بالمهمة وإفشال الإصلاح الجاد الذي بدأت به عندما وصلت إلى الرئاسة. ولدينا معلومات مؤكدة عن ذهاب عدد منهم في زيارات مستمرة إلى الولايات المتحدة، وخضوعهم لدورات تدريبية بإشراف CIA ونعرف متى دخلوا ومتى غادروا، وهم يعملون بأوامر أميركية. والسؤال الذي أخذ يطرح نفسه هو: هل سنجعل العملاء يتحكمون في عملية الإصلاح ويوجهونها ضد البلد ويصبحون أبطال الحرية كما يدعون؟ الجواب بالتأكيد: لا. ما يهم هؤلاء العملاء ليس الإصلاح ومستقبل البلد وحقوق الإنسان، ما يهمهم هو أن يشطبوا ثلاثين سنة من البناء والتضامن المتحققة في البلد بفضل عمل أبي المتواصل الذي جلب الاستقرار. يشطبون ثلاثين سنة من التاريخ المشرف في مواجهة حروب ومخاطر ومؤامرات على البلد تكاد لا تنتهي. وهذا ولا شك يجعلنا نرى بكل المتشككين والمشككين في المسيرة التي سارت عليها البلد خلال هذه السنوات مجرد خدم للأجنبي. حاولوا أن يجعلوا من البلد أضحوكة بالتشكيك في كل شيء وتصويرها مجرد بلاد خربة، ومني رجلا لا يصلح لحكم هذه الدولة، ومنصب

الرئيس لا يناسبني، وهم بذلك حاولوا خلق شرخ كبير داخل الصف الوطني خدمة للصهيونية. لذلك، كان من الضروري التصدي لهم، لأنهم يريدون أن يذهبوا بالبلد بعيدا في حماقاتهم. ماذا يستطيع أي مسؤول أن يفعل في شخص يهدّد بلده من قلب الولايات المتحدة الأميركية، وعندما يقرّر العودة إلى بلده، يُصرح بكل عنجهية: «أن لا أحد في سورية يستطيع اعتقالي لأني محمي من الولايات المتحدة.» أي بلد يقبل على نفسه ذلك التحدي دون أن يفعل شيء.

كان لا بد من تحويل هكذا شخص إلى القضاء ليأخذ عقابه العادل على الاتصال بالأجنبي والتآمر على بلده وهو ما يجرمه القانون السوري. هل يمكن المراهنة على هذا النوع من المعارضة لبناء مستقبل البلد والحفاظ على استقلالها والنضال من أجل تحرير أراضيها من الاحتلال؟! هذه المعارضة سعت إلى تخريب البلد والركوع أمام الأجنبي وتدمير تاريخ سورية الوطني الذي تعمد بالدم طوال نصف القرن المنصرم. أمام هذه الوقائع العنيدة، كان لا بد من التحرك واتخاذ قرار بوقف هذا التخريب، فالحملات ضد أبي ووصفة بـ«الطاغية» و«السفاح» لم يكن يهدف للمس بأبي فحسب، بل إلى المس بالدولة التي بناها أيضا فضلا عن كونها مدخلا

للمس بي شخصيا أيضا. وحتى لا نحوّل الإصلاح إلى خراب، كان لا بد من تقديم عملاء الخارج والذين يحاولون تغيير النظام بطرق غير قانونية إلى المحاكم، لمحاكمتهم على الجرائم التي ارتكبوها بحق البلد. اعتقدوا أني رئيس ضعيف، ولن استطيع ملء المنصب الذي شغله أبي، واعتبروا دعواتي إلى الإصلاح تعبيرا عن الضعف، الذي حاولوا استغلاله أبشع استغلال، فكان لا بد من وقف هذه المهزلة وإعادة الإصلاح إلى طريقه الصحيح، بحيث يكون مطورا للبلد في المستقبل وليس مدمرا له، كما شاءت المعارضة المأجورة. وبات من الضروري أن يعرف الجميع، هل أنا دمية بيد آخرين كما كانوا يقولون، أم أنني المتحكم الفعلي بالسلطة، وأني صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في هذا البلد. فكان قراري بوقف المهزلة الدائرة في البلد، وفق القانون، وقد تمت محاكمتهم، محاكمة عادلة، وفق أحكام قانون العقوبات السوري العادي، وليس وفقا قانون الطوارئ، حتى أنهم قضوا محكومياتهم في السجون المدنية، ولم يرسل أي منهم إلى السجون العسكرية، كما جرت العادة أيام أبي. لقد سُجنوا في المكان الذي يليق بهم بين المجرمين العاديين.

كان من الضروري وقف هذا التداعي، حيث أصبح الجميع يتجرأ على الدولة وعليّ وعلى أبي، حتى أن موظفا قديما وعجوزا في الدولة، كتب رسالة تهنئة وقحة لي بمناسبة وصولي إلى الرئاسة، قال فيها: «لقد كفانا يا سيدي من الكلام الفضفاض: مكاسب الشعب، انجازات الشعب، إرادة الشعب. الشعب غائب يا سيدي منذ زمن طويل، إرادته مشلولة تقوم اليوم على تحقيق هدفين: الأول وعلى الصعيد الخاص أن يعمل ليلا نهارا كي يضمن قوت أولاده. والثاني على الصعيد العام أن يقول ما يُطلب منه قوله، وأن يتبنى السلوك الذي يطلب منه (مسيرات، هتافات..)» وبعد ذلك طالب الرجل بالتحول تدريجيا من وضع الرعية إلى وضع المواطنة. ولم يكتفِ بذلك، بل ووقع بيانات ضد الدولة. عاد وتجرأ أكثر وكتب مقالا على شكل حوار مع حفيده يقول فيه لحفيده: «الاستبداد هو الشر، الحرية هي الخير. مجتمع «الرعية» هو الموت، المجتمع المدني هو الحياة... وستعيشه أنت وجيلك في السنوات القليلة المقبلة إذا قررتم أن تدفعوا ثمن الحرية. فالمستبد جبان، يزج الناس في السجون. قد يقتلهم، لكن دفاعا عن نفسه. ويبدو لي حسب تجربتي أن عهد الاستبداد صار من الماضي البعيد. وهو اليوم في موقع

الدفاع عن النفس. لقد دخلنا القرن الحادي والعشرين الذي جعل القرن العشرين من الماضي ليدفعنا باستمرار نحو المستقبل. وكلي ثقة بأن مستقبلكم سيكون مشرقا كالحرية، لا حد يحدها.» انتهى كلام الرجل، وهو كلام في منتهى التحريض عليّ وعلى الدولة، لولا سنه الذي تجاوز الخامسة والثمانين لكان لحق أصدقاءه إلى السجن، لم أرغب في تشويه صورة سورية بمحاكمة رجل طاعن في السن إلى هذه الدرجة.

بات المعنى من تحرك المثقفين واضحا، فهم لا يريدون حل المشاكل التي تعاني منها الدولة بالتعاون معي، فحسب رأيهم، هذه الدولة هي المشكلة ولا تصلح لحل مشاكلها المستعصية. لذلك، يجب هدم الدولة القائمة وبناء دولة حريات أخرى على إنقاذها. الخطر واضح، وأصبحت الكلمات أخطر سلاح في تجميع الحشود والتأثير عليهم، وتحطيم خطاب الدولة والسخرية منه بوصفه خطابا مأزوما، على اعتبار أن اعتماد خطاب السلطة في حل المشكلات المتراكمة يفاقمها بدلا من وضعها على سكة الحل نهائيا. يهدف هذا الخطاب إلى تدمير الدولة باستهداف الدستور وتغييره بطرق غير مشروعة. بعد حوالي العام أصبح الوضع لا يطاق، وبات

من الضروري وضع حد للفوضى التي تسبب بها خطاب القسم. وكان عليّ هذه المرة أن أتخذ قرارات رئاسية، تهدف إلى حماية الدولة من مخاطر تهددها بفعل خطاب قدمته أنا شخصيا، أنا الرجل الذي يُفترض أنه ساهر على حماية الدولة. كان القرار وقف هذه المهزلة بشكل نهائي وسريع وحاسم.

رغم ضيقي من المثقفين، كنت دائما قريبا من الناس، وأشعر بالضيق من الخطابات التي تُكتب لي، لأنها تشكل حاجزا بيني وبين الناس وأشعرها تقيدني في لغة معقدة ومتعالية على الناس البسطاء. لذلك، اعتدت الخروج عن النص المكتوب لأشرح أفكاري بشكل أفضل وبطريقة أسهل وأبسط من الفذلكة المصاغة من قبل المستشارين في نص الخطاب المكتوب، عندما أجد أن الكلمات ليست واضحة تماما بالنسبة إلى المستمعين، اشرحها بطريقة أفضل وأقرب إلى القلب، وتجد قبول أكبر عند الجمهور، وأرى هذا القبول على وجوه المستمعين. ولا أتردّد في استخدام النكتة إذا كانت تفي بالغرض وتجعل الفكرة أوضح وأكثر بساطة، وهو يُضحك المستمعين، ما يعطي للخطاب حيوية ودفئا أكبر ويصل إلى القلوب مباشرة. في الوقت الذي كنت

أشعر بالضيق مع المثقفين وكلامهم الكبير وغير المفهوم، فذلكة لا تنتهي، كنت أشعر بالراحة مع المواطنين، مع الناس البسطاء، كلمات بسيطة يقولونها، أقابلها بكلمات بسيطة، أشعر بالسعادة، فيحتفلون بأنهم قابلوا ابن الرئيس، والرئيس في ما بعد. عيونهم تمتلئ بالفرح والسعادة عندما يعرفون أني بينهم، وهذا يمنحني السعادة أيضا.

لقد حرمتني الحرب التي نخوضها من هذه المتعة، فكل الأجهزة الأمنية، ترفض أن أنزل بين الناس، لأنه يشكل خطرا عليّ، وإذا كنت في كثير من الأحيان أضطر إلى الإذعان للحماية، لكن في بعض الأحيان، كنت أرفض هذا، وأقول أنا الرئيس ويجب أن أكون بين شعبي. كنت مصرا بعد أشهر من اندلاع الأحداث، أن أنزل بين جموع الناس مع عائلتي، وبدون سترة واقية، لأثبت أني غير خائف، وأن البلد بأمان رغم كل الكلام الكبير عن الاضطرابات والاحتجاجات وقمع المتظاهرين خارج البلد. طلب الجميع مني أن أصرف النظر عما أنا مقدم عليه، لأنه من الخطر أن أنزل مع عائلتي إلى ساحة الأمويين بين عشرات آلاف الناس حتى لو كانوا مؤيدين لي.

قلت للجميع بوضوح: «أنا من يقرّر ما يجب فعله، والموت مسألة تتعلق بالقدر، تقومون بواجبكم، لكننا في النهاية سنموت جميعا. وأنا أدرك تماما أنني يجب أن أكون وسط شعبي، لا أحد يراجعني في الموضوع. يوم التجمع في الأمويين سأكون بينهم، ولا أريد مرافقة ظاهرة، أريد أن أبدو واحدا منهم. انتهى النقاش.» عندما طلب أخي مني التروي في القرار. قلت: «لقد اتخذت قراري.» وكان ذات الجواب لزوج شقيقتي عندما أراد أن يحدثني عن المخاطر الأمنية، أوقفت النقاش وقلت: «اتخذت قراري.» عندما وصلت إلى الحشد في ساحة الأمويين، كان الاحتفال بي عاصفا، الجميع يريد أن يصافحني ويعانقني ويقولون كلاما لتأييدي، هذا ما ظهر على شاشة التلفزيون. لكنه لم يكن المشهد الحقيقي. ما أفقد الحدث أي معنى. وما أحبطني ونغص عليّ متعتي أن المشهد كان مفبركا، مشهدا سينمائيا محدودا ومكبرا ليظهر الحشد المحيط بي حشدا ضخما. أزعجتني ملابسي الخفيفة أيضا، بعد أن عرفت بفبركة المشهد، رغم أن زوجتي قالت لي إن هذه الملابس ليست مناسبة للطقس البارد في الخارج، إلا أني لم أسمع الكلام، لبست بدلة وقميصا مفتوحا دون ربطة عنق، لأظهر أني فعلا لا ارتدي سترة واقية

وأني لست خائفا. بصعوبة ألقيت كلمتي ارتجالا، وبدا شكلي غريبا، أن أرتدي ملابس خفيفة في الوقت الذي كان فيه الجميع يرتدون ملابس ثقيلة لأن الطقس كان شديد البرودة في ذلك اليوم. أردت أن تكون تجربة رائعة من التلاحم بين القائد والشعب، فحصلت على مشهد هزيل ومحبط. الجموع الغفيرة لم تكن سوى مئات تم تركيزهم في زاوية صغيرة من الساحة، وتصويرهم بوصفهم حشودا بالآلاف. وعندما طلبت تفسيرا للأمر، جاء الشرح إنها الإجراءات الأمنية، لم يكن ليغامروا بتعريض حياة الرئيس للخطر. لذلك كان كل الذين حولي ترتيبا من الحرس الشخصي وأجهزة الأمن، حيث تم تجميع المقربين والموثوق بهم من طلبة الجامعة وعناصر الأمن ليشكلوا الجمهور القليل الذي تواجد في ساحة الأمويين التي أغلقوها من كل الجهات في ذلك اليوم. أي أني كنت محاطا فعليا بشبكة أمنية ضيقة. عندما شرح رئيس الحرس الشخصي هذه الإجراءات وضرورتها، شعرت بالضيق والغضب، صرخت طالبا منه التوقف عن الكلام، لأني لا أريد أن أعرف كيف جرت المهزلة. سكت الرجل، اعتذر وخرج، وأنا أتجرع كأس الخيبة والحسرة. وما زاد من سوء الوضع وجعله أكثر هُزالا، أن أحدهم صور

الحشد الهزيل من مبنى هيئة الإذاعة والتلفزيون المطل على الساحة، من هناك ظهر هزالة الحشد أمام الساحة الكبيرة الفارغة، وتم تسريب مقطع الفيديو إلى الفضائيات المعادية وعرضه على شاشاتها، ما حول ما أردته حدثا كبيرا إلى نوع من السخرية المرّة. وفوق الإحباط والمرارة عانيت من النزلة الصدرية التي أصابتني بعد النزول إلى الساحة في البرد بملابس خفيفة، وهو ما جعلني مريضا لأسبوع كامل بعد ذلك الظهور العلني في ساحة الأمويين.

مهما كنت قريبا من صانع القرار، لا تستطيع معرفة المكانة التي يشغلها والقوة التي يمتلكها، إلا عندما تجلس في مكانه وتحوز سلطاته. فمهما بنيت من تصورات نظرية، فهي تقترب أو تبتعد عن حقيقة موقع صاحب القرار، لكنها تبقى أقل من الحقيقة. الجلوس هناك، وحده، يعطيك الصورة الحقيقية والواضحة، فهو يقدم لك كل المعطيات. هناك فارق كبير بين أن تعمل تحت قيادة أحد، وبين أن تكون أنت القائد الأوحد، ليست المكانة واحدة وليست الرؤية ذاتها. صحيح أني كُلفت بإدارة الملف اللبناني كتمرين أولي على حكم سورية، لكن الفارق كبير بين أن تدير الملف اللبناني وان تكون الرجل الأول في سورية. صحيح أن لبنان مهم،

لكنه في النهاية تفصيل في لوحة الرئاسة السورية. يختلف كل شيء عندما تشغل منصب الرجل الأول، السلطة تمنحك القوة والقدرة على فعل الكثير، تعطيك وسائل تجعلك تتحكم بالأشخاص والأشياء. أنت المركز، كل شيء يدور حولك، الأشياء الكبيرة والصغيرة في البلد في خدمتك. الكل يريد إرضاءك. لم أعرف حقيقة ما تعنيه السلطة، إلا بعد أن جلست على الكرسي، السلطة كائن مخيف، لكنه ممتع لمن يشغلها. فمن موقعها يختلف مكانك في العالم ويختلف مكان العالم بالنسبة لك، رؤية السلطة من خارجها لا تشبه رؤيتها من داخلها، لا تشبهه على الإطلاق. أنت لست نفسك خارج الموقع وداخله، هناك شيء ما يتغير داخلك وفي المحيط والعالم. المنصب الأول يمنحك الإحساس بالقوة، لكنه يعطيك الإحساس بالملّل أيضا، فلا أحد ند لك، لذلك تفتقد العلاقات مع الآخرين إلى المساواة والتوازن والندية. لا أعرف كيف كان أبي يعمل ثماني عشرة ساعة ويدخن أربع علب سجائر محلية الصنع في اليوم الواحد، أنا متأكد أنه كان مهووسا بالسلطة. ثماني عشرة ساعة على مدى ثلاثين عاما، حتى في فراش المرض، أي جنون، أي هوس هذا؟! لا أشك أنه كان في غاية الاستمتاع، مكتفيا بحب السلطة

والاستحواذ عليها، أخذته من كل شيء، متطلباته الشخصية في غاية التواضع، الطعام والشراب والملابس.. الخ، كان شرها للسلطة، مهووسا بالإمساك بكل التفاصيل الصغيرة والكبيرة. وهذا ما جعله يعمل على مدى ثلاثين عاما على ترتيب أدق التفاصيل في البلد. أنا أدعي أني أعمل ثماني عشرة ساعة كما كان يفعل، ولكن هذا ليس حقيقيا، فأنا لا أستطيع أن أعمل كل هذا الوقت، هذا لا يعني أني لا أستمتع بمنصبي وكوني الرجل الأول في كل شيء، لكن في كثير من الأحيان أشعر بالوحدة، فالعيش في القمة فيه الكثير من الوحدة والملل، وهو يفقدك كل أصدقائك، وعليك التعامل بريبة مع الجميع، حتى أقرب الناس إليك، وهذا الوجه الآخر للسلطة الذي يجعلها بمثابة كابوس حقيقي يدفعه المرء مقابل الحصول على متع السلطة.

عندما وصلت إلى الرئاسة، عرفت أن هناك الكثير في السياسة لا يمكن تعلمه نظريا، عليك أن تمارسه في الواقع حتى تعرف ما هو، أي لا أحد يستطيع أن يعلمك إياه، عليك أن تتعلمه بجهودك الخاصة والذاتية. هناك الكثير في السياسة مما يُمارس ولا يقال، تفعله ولا تتحدث عنه، لا يُسمح لأحد في التحدث عنه، حتى إذا تم الحديث عنه، عليك

أن لا تنفيه، لأن النفي في السياسة تأكيد لما يجري الحديث عنه، لذلك أفضل شيء التجاهل، كأن شيئا لم يحدث. انفصال السياسة الممارسة عن السياسة المدعاة مسألة عادية في السياسة الممارسة في كل بلدان العالم، كل السلطات تمارسها دون أن يرّف لها جفن. الشعارات والادعاءات الكبرى تخدمك في ترسيخ سلطتك والقبض عليها بقوة أكبر، فالسياسة هي البراغماتية المطلقة حتى عند أصحاب أكثر الشعارات تطرفا. فعليك أن تدعي أنك تقوم بأشياء في الوقت الذي تقوم واقعيا بأشياء أخرى. الشعارات للآخرين، وليست لي، على الآخرين أن يعتقدوا أني ملتزم بها، لو كان ادعاؤهم كاذبا أو تحت تأثير الخوف، هذا ليس مهما، أما أنا فلا تعنيني الشعارات طالما هي تخدمني، فأنا لا أعمل شيئا من أجل وقفها.

هنا، في الرئاسة، فهمت كيف عمل أبي، وكيف أدار البلد، وما فعله به، وكيف أعاد اختراعه بصبر وجَلَد مذهلين. من هذا المكان عرفت، لماذا رمى أول موازنة للقصر الجمهوري قدمت له في سلة القمامة عندما وصل إلى الرئاسة. لا أعرف تماما إذا كان عرف مسبقا ما الذي سيفعله في كل شيء. لكن أنا متأكد من قضية واضحة وحاسمة في

بناء سلطته، أن أبي عرف مسبقا، أن كل درجة صعد عليها في سلم السلطة، عليه أن يحطمها بعد ذلك، حتى لا يستخدمها أحد بعده في الصعود إلى السلطة، وهو ما أبقاه طويلا في الرئاسة. وأعتقد أن الكثير من القضايا الأخرى ارتجل فيها. لكن هناك أشياء عرف تماما ما الذي سيفعله بها، أولها أنه إذا أراد أن يكون الرجل الأول والوحيد في البلد، فعليه أن يكون فوق أي هيئة أو مؤسسة أو سلطة تشرف أو تراقب أو تراجع ما يفعله الآخرون. هو الذي يراقب الجميع ويحاسبهم وهو فوق أي محاسبة، له كل السلطات ولا أحد ولا مؤسسة لها سلطة عليه. طبعا، هو لم يلغِ المؤسسات، بل بقيت قائمة، لكنه فرَّغها من كل مصادر القوة، بقيت هياكل يتم ملؤها بالمنتفعين المتحدثين بحمده طوال الوقت، بقيت تملك شكل مؤسسات الدولة، لكن محكومة من خارجها. كانت نقابات المحامين والأطباء آخر من فكر في معاندته في مطلع الثمانينات، فسحقها، وأعاد ترتيبها على طاعته مثل الجميع. لقد بنى أبي سلطات البلد من طابقين، طابق ظاهر وهو مؤسسات الدولة الرسمية والوزارات والدوائر الرسمية والقضاء ومجلس الشعب التي تقوم بأعمال الدولة العادية. خلف هذا الطابق الظاهر، طابق آخر مخفي،

يسيطر على الطابق العلني ويديره، مرتبط بشبكة تخترق كل المؤسسات على كل المستويات، وتُشكلها كما يريد هو. هذه السلطة الخفية هي التي تملك السلطة والقوة الحقيقيتين في البلد. نشر الشبكة الأمنية في كل مكان، وكانت أداته الرئيسة في إدارة البلد والقبض بقوة على مفاصلها وحماية سلطته من كل المخاطر، لذلك كانت المخابرات أكبر جهاز عامل في الدولة، كل خيوطها مرتبطة بهذا الموقع الذي أجلس فيه. لقد كان تصميما عبقريا، الجميع مرتبط به وحده، ولا أحد مرتبط مع الآخر، ولا يسمح لهم بالارتباط ببعض، كل الخيوط تصل إليه، وكل الخيوط بين الآخرين مقطوعة، إلا ما يقرّره هو ولفترة وجيزة، وقت الحاجة فقط. لذلك، ليس من الغريب أن تتجسس الأجهزة الأمنية على بعضها، وعلى كل مسؤول، وحتى على أفراد عائلة الرئيس أيضا، وعندما كان يعرف أنها تتجسس على بعضها لم يكن يوقفها، فالمنافسة بين الأجهزة كانت تعني بالنسبة له تعزيز الولاء، الوحيد الذي كان خارج عمل الأجهزة الأمنية، هو الرئيس نفسه. شكلت الأجهزة الأمنية آلة فعالة داخل آلة كبيرة، التي هي الدولة. الآلة الفعالة الصغيرة الممسكة بكل مفاصل الآلة الكبيرة

غير القادرة على العمل الذاتي بدون المفاصل المسيطر عليها من خارجها. فهي تحركها بالطريقة التي تشاء. عندما تدربت على الحكم شعرت بهذه الآلة الباطنية جزئيا وعرفت أنها قوية، لم أعرف حقيقة قوتها إلا عندما وجدت نفسي على كرسي الرئاسة. وقتها، أدركت صورتها الكاملة ومدى قوتها وقدرتها وتشعباتها. بنى أبي السلطة الخفية ورعاها طوال الوقت، وأعطاها كل الصلاحيات، وأعفاها من كل محاسبة قانونية، حتى تكون على أكمل وجه من الفعالية في مواجهة أعدائه، فلم يكن لأي كان سلطة على هذه الأجهزة يستطيع مساءلتها سواه شخصيا. طبعا، هذا لا يعني أنه أهمل الآلة الكبيرة، لكن اهتمامه الأكبر انصب على السلطة الخفية، وتشكيل توازناتها حتى لا تشكل خطرا على سلطته. كانت فعلا آلته الخاصة، سوطه القوي الفعال، وأدانت له بالولاء المطلق ونفذت كل رغباته، تلك التي يقولها وتلك التي يلمح إليها دون أن يقولها. عندما وصل إلى السلطة، كان همه الأول أن ينقل كل السلطات التي حازها عندما شغل منصب وزير الدفاع إلى منصب رئيس الجمهورية، حتى لا تشكل هذه السلطات خطرا ضده وتنقلب عليه ممن يخلفه في المنصب. فعمل طوال الوقت على ربط الجيش والمؤسسة

العسكرية وفروع المخابرات كلها به شخصيا. وحتى يتحكم في الجيش، بنى شبكة أمنية داخله، منعت أي قائد وحدة من تحريك وحدته وقيادتها فعليا دون المرور بهذه الشبكة الأمنية، ما شلَّ قدرة قادة الوحدات على قيادة وحداتهم. وهذا ما انطبق أيضا على رئاسة الأركان وأجهزة المخابرات ذاتها وعلى وزارة الدفاع التي أدارها رجل متواضع على مدى خمسة وثلاثين عاما، موهبته الوحيدة ولاؤه المطلق لأبي، أما مواهبه المتواضعة الأخرى، فهي كتابة الشعر الرديء وتأليف كتب عن فن الطبخ، وزير دفاع مشغول بكتاب عن الطبخ! شيء مضحك. لقد صرح عشرات المرات تصريحات خرقاء، كلامه لم يعنِ شيئا، ولم يكن أحد في البلد وخارجها يحمل تصريحاته على محمل الجد. لأنه لا يشكل أي خطر بقي في منصبه هذه المدة الطويلة، بقي وفيّا لأبي حتى بعد مماته، ساهم بفعالية في أخذ الولاء لي من الضباط الكبار في الجيش في اليوم التالي لوفاة أبي، جمعهم وآتى بهم إليّ بعد ذلك ليعلنوا ولاءهم لي شخصيا، لقد ساهم في إدارة انتقال السلطة لي دون مشاكل تذكر، وهو ما كان يشير إلى أن الكل يعمل عند الرئيس حتى بعد وفاته، لذلك، أطلقوا اسم أبي على البلد، أعجبه الشعار فحافظ

عليه، وهو ينطبق علي أيضا فحافظت عليه. وبسبب من هذا الوفاء ورثت وزيرا للدفاع في رئاستي من تركة أبي من بين أشياء كثيرة ورثتها عنه بعد وفاته.

عندما تكون رئيسا، لا تنتهي الأمور بموتك، كما هو الأمر بالنسبة إلى الرجل العادي. فهناك الكثير من الآثار التي تتركها وهي موقع جدل، وبالتالي يستمر الجدل حول الرئيس كأنه ما زال حيا. حكمه الطويل جعله يطبع البلد بطابعه، لذلك اعتبر الكثيرون أن حكمه كان ثقيلا على البلد، لذلك لا بد من محاكمة تجربته حتى بعد أن رحل. لأن الكثير من الوقائع في البلد لم تُعرف حقيقتها. فهناك أيضا الكثير من الكلام الذي يلقى جزافا، يحاول البعض من خلاله تحريف الحقيقة، وأبي من أكثر الناس الذين تعرضوا للظلم في هذا الشأن. بالتأكيد، أنه لم يكن حاكما مثاليا، فمثل هذا الحاكم لا يمكن أن يوجد في بلاد تعيش كما هائلا من التعقيدات مثل تعقيدات بلادنا. نجد من يقول: أن أبي جلب الاستقرار للبلد، باعتباره جلب السلطة عبر فوهة الدبابة، رغم الكلام عن أن السوريين شعروا عند وصوله إلى السلطة بالارتياح لثباته وانضباطه، ولكن ذلك كان تبريرا وليس واقعا. صحيح أنه لم يكن ساديا في لجوئه إلى العنف،

لقد كانت هناك منهجية لأفعاله القاسية، استثمرها بهدوء وفعالية في إخضاع البلد. وحسب هؤلاء، لم يسبق له أن رفع صوته، ولم يكن يلجأ إلى الصراخ والتهديدات الفارغة. كان في أحسن الأحول متحدثا عاما متوسط المستوى. لم يكن لديه الكثير من الحيوية والحماس خلال العقد الأول من حكمه. لم يمارس العنف بيده، فوّض أمور الوحشية إلى أخيه الأصغر (عمي) الذي لم يتورع عن العنف والانحطاط الشخصي. كان قد أسس لنفسه كيانا على صورته وفعل ذلك في مكر وقسوة متساويين. بنى ذلك على خلفية الحرب الباردة على نمط سلطات أوروبا الشرقية والكتلة السوفياتية. كان هناك اضطرابات ومؤامرات واستيلاءات عسكرية على السلطة في تاريخ سورية بعد الاستقلال، فقام بإنهاء ذلك. في دولة الأمن التي اخترعها، أصبح كل شيء مستباحا وشى الابن بعائلته، وفضحت الزوجة أسرار زوجها، وعشرات الألوف أرسلوا إلى السجون السياسية، وانتشر الرعب في كافة أنحاء البلاد من أكبر المدن إلى أبعد القرى.

لا يتورع كاتب هذا الكلام أن يقول، أبي حطّم بلاده، وخلفيته العلوية غذت وحركت الإرهاب. كان ابن فلاحين وانشقاقيا. كانت دمشق عاصمة السلالة الأموية، مستودع

العقيدة الحضرية السنية التقليدية. الأمر الذي له أهمية لانطباع سورية عن نفسها. كانت هناك أقليات، لا أقل من ١٨ طائفة وجماعات عرقية، ولكن فخر المكان كان للمدن الرئيسة: حلب وحمص وحماه، وللعقيدة السنية التي غلبت على هذه المدن. كانت طبقة التجار وأعيان المدن وعائلات المسؤولين في الدولة تعتبر سيادتها أمرا مسلما به. لم يخطر ببال السنة بأن عسكريا علويا من خلفية فلاحية سيحكم المدن المفعمة بالحياة. كان صعوده إلى السلطة بداية من ١٩٧٠ حذرا للغاية. اختبأ وراء رجال السنة كواجهة له، وبذل جهده لتطمين عائلات التجار الكبار بأن مصالحهم ستكون محمية من قبل نظامه، وأنه يمكن الاعتماد عليه ضد الأيديولوجيات المتطرفة في حزب البعث والجيش. ولكونه كان دائما على وعي بالإساءة التي تمثلها خلفيته العلوية لدى المحافظين من السنة، فقد حصل على فتوى من حليف في لبنان: الإمام موسى الصدر، بأن العلويين جزء من الشيعة الإثني عشرية. (...) إن تقديس الإمام علي والذي هو أساس للعقيدة العلوية تم ضبطه، وحاول الحاكم نفسه أن يعمل المستطاع ليبدو منسجما مع الممارسات السنية. كان يصلي في العلن، ويتناول إفطار رمضان برفقة علماء الدين، وأظهر

التقوى المتوقعة من رجل أتيحت له الفرصة ليحكم مدينة ذات أهمية قصوى للإسلام مثل دمشق. طوّع المؤسسات الدينية السنيّة لتكون تحت إرادته. فأعطى الفقهاء ميزة، ولكنه حدّ من دورهم السياسي. أكد الفقه السني على طاعة الحاكم وتحاشي الفتنة. وتقيّد الفقهاء السنة الذين عينتهم الدولة بذلك المبدأ. كان مزاج الجهاز الديني الرسمي قد شكّله رجل تم تعيينه مفتيا أكبر للجمهورية عام ١٩٦٤ والذي بقي في المنصب أكثر من أربعة عقود، وترقى في منصبه من خلال الرعاية السياسية، ولم يحظ بتعاطف أقرانه في المؤسسة الدينية. في عام ١٩٧١ أقدم على خرق فاضح غير مسبوق للمتعارف عليه حين قبل تعيينا في البرلمان. وقد قدم للنظام وسيده العلوي الشرعية والدعم الذي احتاجه. ففي عام ١٩٩١ أعطى الإعادة الروتينية لانتخاب الرئيس مسوغا غير عادي واصفا إياه بأنه: التزام وطني وواجب ديني. ولم يتورع عن إرسال أصدقائه إلى سجن طويل، أو يعمل على اغتيالهم. حتى أصاب ذلك رئيس الدولة السني الذي كان في الحقيقة غطاء للقادة العلويين، كان الأمر أن الفائز يأخذ كل شيء في هذه اللعبة العنيفة. ثبّت الرجل حكمه وأرسل الرجلين الآخرين إلى السجن. إن النظام بقاعدته الاجتماعية وجوهره

العلوي، قد طبع دمشق بطابع ريفي. في واقع الأمر تقاطر أهل الريف على المدينة وكان هناك أيضا تحول ثقافي: استيلاء الفلاحين على السلطة. حتى سياسته الخارجية لا تخلوا من نقد باعتبارها مكملة لسياسته الداخلية وهو ما ينجر إلى عهدي أيضا، فبنية النظام في عهدي أبي وعهدي، في تحالفاته الداخلية، كالتحالف مع السلطة الدينية، ومع التجار السنة من جهة، وإذكاء روح العداء للمدينة لدى الريف من جهة أخرى، أما تحالفاته الإقليمية، وصراعه الظاهري مع إسرائيل الذي جعله (شيطانا مفضلا) لديها، فتقود إلى تحالفاته للسيطرة على لبنان، ثم مأزقي الذي أنا فيه، ومقايضاته الأمنية الفجة في الحرب على الإرهاب، وصفاقة صفقاته مع أمريكا... دون أن ينسى الحديث عن جوهر السلب والنهب والفساد والطائفية، الذي طبع هذا الحكم، ووزع العلويين على أهم مرافق الدولة.. وكيف ولماذا فجر هذا الشعب الصبور الثورة أخيرا... وهذا ما يدل على أن حكم العلويين غير مقدر له أن يدوم، والمغامرة العلوية حملت في طياتها بذور دمارها.

هل هناك ظلم أكثر من هذا الكلام الذي يكتبه أكاديمي أميركي من أصلي عربي، في سياق الحملة

لإركاعي وبالتالي إركاع سورية؟ هل هناك اشتراك في المؤامرة أكثر من هذا؟ كل الصراعات التي خاضها أبي من أجل سورية والحفاظ عليها موحدة، لم ولن تشفع له، فعندما تعم المؤامرة يصبح كل شيء مباحا، وتصبح المعركة على كل المستويات، وأخطرها معركة نزع الشرعية التي تهدف إلى زعزعه الدولة الشرعية القائمة، بالضد من القوانين الدولية. وخطر هذا النوع من الدعاية السامة، أنها ليست كلها أكاذيب، فهي تضع السم في العسل. يبدو أن الكثيرين راهنوا على مثل هذا الكلام، بوصف النظام قشرة خارجية عن المجتمع، وأن أي تحرك يلبس اللبوس الشعبي تديره أياد خارجية يمكن أن يطيح بالدولة الشرعية. لم يكن حكمنا مثاليا، لكن كان أفضل ما يمكن لسورية، عملنا، أبي وأنا، كل ما نستطيع لخدمة هذا البلد، وخضنا حروبه للدفاع عن كرامته واستقلاله وحماية وحدته. ويأتيك من يقول هذا الكلام الفارغ. من يجلس مرتاحا هناك في الولايات المتحدة، ليس كمن يجلس في قلب الصراع الدامي ويرى حجم المؤامرة المتعددة الأطراف، وحجم التضحيات التي يقدمها البلد والشعب والجيش من أجل دحر المؤامرة المستمرة على البلد منذ عقود.

إن الذين يوحدون التجربة بيني وبين أبي، يظلموني ويظلمونه. صحيح أني ابن أبي فأنا تربيت في بيته، لكن أنا لا أشبهه، من الطبيعي أن أحيا بشكل مختلف عنه، فليس بالضرورة لأني شغلت ذات المنصب أن أكون نسخة عنه. صحيح أني ورثت منه أشياء كثيرة، إلا أني لي تجربة وخبرة في الحياة مختلفة عن تجربته. أنا مثله في ما يتعلق باتخاذ الرئيس القرارات. فهي يجب أن تتبلور على أساس الواقع الاجتماعي ووضع الدولة والشعب وليس على أي أساس آخر، هكذا كان أبي يتصرف وهكذا فعلت، من هذه الناحية نحن متشابهان فعلا. لكن الواقع الذي عشته والتحديات التي أواجهها، تختلف عن الواقع الذي عاشه والتحديات التي واجهها. في الوقت الذي أُعتبر هو مجددا في نهاية الستينات، فالزمن حوله متخلف جدا بالنسبة لي. فأنا أنتمي إلى جيل آخر يفكر بطريقة أخرى، والآن أختبر بكل القسوة الممكنة الفروق بين الزمنين، الذي عاشه أبي والذي أعيشه أنا. لقد كان زمنه أسهل بكثير من زمني، كان كل شيء بالنسبة له أسهل. صحيح أنه لم ينتزع السلطة بسهولة، لكن زمنه أبسط من زاوية أدوات السيطرة والحكم وضغط وسائل الإعلام والميديا الحديثة وحتى قوة حلفاءه. استطاع إغلاق

البلد بقرار، وبعد هذا القرار يمكن التحكم بكل ما يتسرب من معلومات إلى خارجه، ويمكن التحكم بها أيضا، وهذا ما جرى مرات ومرات في عهده. اليوم ضغوط الميديا الحديثة وإمكانية تسرب المعلومات والتلاعب بها أكبر بكثير من السابق، وهذا ما يعني ضغوطا إضافية لم يعرفها أبي، ولا أعتقد كان يمكنه التعامل معها لو بقي على قيد الحياة إلى هذا اليوم.

٥

لم أكن الطفل المفضل عند أبي، لطالما أنبني بوصفي ابنه «الأهبل»، لا أعرف عدد المرات التي وصفني فيها بهذا اللفظ، ودارت الدائرة ليجد نفسه مجبرا على اختياري خليفة له. لا أعتقد كان سعيدا في الظرف الذي وجد نفسه مجبرا على اختيار آخر من يعتقد أنه يصلح لمنصب الرئاسة. ولم يتوقف عن نعتي بـ«الأهبل» إلا عندما أصبحت مرشحا لخلافته، رغم ذلك، كثيرا ما كنت أرى في عينيه شكا في أنني أستطيع أن أكمل المهمة التي اختارني لها. أعدَّ كل شيء بشكل دقيق لاعتقاده، أنني لا أعرف كيف أتصرف إذا غاب فجأة، ولعدم ثقته بقدراتي، أعدَّ الخلافة كاملة بكل تفاصيلها، خوفا من أن أرتكب خطأً يجعلني أخسر السلطة قبل الوصول إليها. في دمشق شبه البعض ما جرى من حلولي في منصب أبي في الرئاسة، بقصة أخذ معاوية بن أبي سفيان البيعة لابنه يزيد في حياته. وتقول القصة: لم يكن

معاوية واثقا من أن يزيد يستطيع أخذ البيعة لنفسه بعد وفاته، فأخذها له من علية القوم في حياته. بايع الجميع يزيدا خليفة في حياة معاوية، ما عدا عمرو بن العاص الذي تهرَّب من ذلك. قبل وفاته أوصى معاوية بأن ينزله صديقه ورفيق دربه عمرو بن العاص إلى القبر عند وفاته. عندما مات معاوية، أخبروا ابن العاص بوصية معاوية، فما كان منه إلا أن نفذ الوصية. نزل إلى القبر وأنزل جثمان معاوية، عندما أراد الخروج من القبر، رفعوا عليه السيوف وهو ما زال في حفره القبر. قالوا له: «أما أن تبايع يزيدا خلفية للمسلمين الآن، وأما تلحق بصاحبك.» فما كان من ابن العاص بعد أن وجد السيوف تحيط به من كل جانب، سوى أن بايع يزيد بن معاوية خليفة. وقال ابن العاص بعدها: «إنها من هذا» وأشار إلى جثة معاوية في القبر. «وليست من هذا» وأشار إلى يزيد. قُصد من تداول هذه القصة في دمشق أني لم يكن لي أي دور في وصولي إلى منصب رئيس الجمهورية، وأن كل شيء قام به أبي قبل مماته ورتبه حتى بعد مماته.

كان أبي داهية، رغم ذلك، لم يعرف إمكانياتي، ولم يعرفني جيدا، أنا الابن المهمل دائما في عائلة الرئيس. لكني تحولت من هذا الشخص المهمل إلى الضرورة التاريخية ليس

للعائلة فحسب، بل وللبلد أيضا. القدر آتى بي إلى هذا المكان، لأني أناسبه تماما، ويناسبني تماما، لم أسعَ إليه، لكنه أتاني لأنه لي وليس لأحد آخر. القدر هو الذي اختار لي هذا الطريق، وأنا أثبت أني أكبر من المهمة التي شغلتها وحتى أني أكبر من البلد نفسه، لست أَقِلُ عن أبي في شيء، بل تفوقت عليه في الكثير من الأشياء.

شعر أبي نفسه يسابق الزمن من أجل الوصول بإعدادي إلى مستوى مقبول من أجل الرئاسة، وكلف كثيرين لإعطائي فكرة عن كل القضايا، ولم أعد أذكر الكثيرين منهم. اعتقد أبي أني بحاجة لأن يشرح الآخرون لي كل صغيرة وكبيرة، من نائب الرئيس الأحمق حتى مرافقه الشخصي الذي ورثته عنه أيضا، لا لكفاءته، بل لإخلاصه. لقد عرفتُ الدرس مبكرا، ومن دون أن يشرحه أبي لي، ولم يكن الدرس بحاجة إلى شرح، لقد مارسه أبي وبشكل فج. في السياسة والسلطة الكفاءة لا معنى لها، بل على العكس قد تتحول إلى كارثة على الحاكم، الكفاءة خطر حقيقي على السلطات الثابتة. لقد شاهدت وعلى مدى الثلاثين سنة التي حكم فيها أبي البلاد، كيف كان عبقريا في اختيار الرجال الذين يعملون معه، إنهم رجال بلا طموح. كان خبيرا

في اختيار أكثر الناس تواضعا لحكم البلد في المناصب الشكلية، رؤساء وزارات ووزراء وضباط كبار وغيرهم، في الوقت الذي يمسك هو بكل تفاصيل البلد بيد من حديد. لم يكن هذا الاكتشاف بحاجة إلى عبقرية لمعرفته، كل طفل في سورية يعرفه، وأعرف أنه سادت نكتة عندما عين أبي رجلا في غاية الضعف والتواضع رئيسا للوزراء تقول: «عندما عين أبي الرجل رئيسا للوزراء قال لمرافقه: «اذهب واشترِ للرجل ملابس رسمية تناسبه، على رأسها حذاء دون رباط.» اعترض الرجل قائلا: «لكن يا سيدي أنا أحب الحذاء برباط.» فأجابه أبي: «أنا أريدك لا تحل ولا تربط.» نعم، كان أبي عبقريا في اختيار الشخصيات المتواضعة التي لا تملك طموحا حتى تبقى هناك هوة واسعة بينه وبين الآخرين. لم يكن في سورية أيام أبي ولا اليوم رجل أول ورجل ثاني ورجل ثالث. ما وجد في سورية رجل أول والباقي إمعات. كنت أرى نظرات الاستهزاء في عيون الكثيرين الذين يعتبرون أنفسهم قد ساهموا في إعدادي للرئاسة. وبيني وبين نفسي، كنت أسخر من استهزائهم، لأنهم لم يكونوا يعرفون مع من يتعاملون، لقد اعتقدوا في أحسن الحالات أنني سأكون ألعوبة بأيديهم، لم يعرفوا أنني لا أقل دهاء عن أبي.

فالعبقريات لا تظهر إلا عندما تشغل مكانها الصحيح، لذلك أدهشت الجميع بأدائي في مواجهة التحديات التي تعرضت لها.

توقع الكثيرون أن لا أصمد في منصب الرئاسة، وأنني أفتقد إلى الكاريزما والثقة بالنفس، وعددوا الكثير من العيوب الأخرى التي تجعلني غريبا عن منصب الرئاسة. وهو ما جعل الكثيرين يعتقدون أن ولايتي ستكون مرحلة انتقالية حتى يحسم ضباط الجيش الكبار خلافاتهم الداخلية، أو يقروا لواحد منهم بأحقيته في الحكم، على اعتبار أن الرئاسة أكبر من حجمي. حتى أن أحد أقرب الشخصيات الغربية إلينا في العائلة والذي كتب كتابا هاما عن أبي قال: أني كحاكم لسورية أفتقد إلى «غريزة القاتل» الضرورية جدا لكل من يريد أن يحكم سورية. لكن هؤلاء لم يعرفوا عن أي شخص ولا عن أي دولة أو جيش أو ضباط يتحدثون. استطاع أبي أن يصنع جدارا من التعمية على آليات عمل السلطة، ومكانة كل شخص فيها، ولم يعرفوا، أنه خلال ثلاثين عاما من العمل، لم يعد هناك في قمة السلطة أحد يفكر في أن يكون الرجل الأول، لقد صنع أبي سقفا فولاذيا يحول بينهم وبين منصب الرئاسة. لذلك كانوا كلهم منفذين لإرادة القائد حتى بعد موته، كانت آلته فعالة بوجوده

وبغيابه، لو أراد أن يكون خليفته لعبة من قش، لما وجد من يقول له: لا في كل البلد. قد يكون الغموض حول شخصيتي وعدم قدرة الجميع على فهم قدراتي، قد منحني الفرصة المناسبة لأكون كل شيء ما عدا ما توقعوه، الرجل الذي قال إني أفتقد إلى «غريزة القاتل» لم يتوقع أن أنجح بعد سنوات في التصدي لحرب كونية تُشن على البلد من عشرات الأعداء، والبلد صامدة في وجه هذه الحرب الهمجية عليها، بتضحيات أبنائها، وبـ«غريزة القتال» عندي ومواجهة التحدي، لا بـ«غريزة القاتل» كما قال صديقنا. القتل والدموية ليس خيارا عشوائيا، إنه خيار مرّ، لكن لا بد من الإقدام عليه في الوقت المناسب، وللأسباب المناسبة. فهو في محاربة وباء الإرهاب ضرورة ملّحة لا تحتمل التأجيل. أنا طبيب وأعرف جيدا أهمية التدخل الجراحي، ولكن استخدام الجراح للمبضع لا يجعله قاتلا، لأنه يستخدمه لإنقاذ مريضه من آلامه، إنها الوسيلة القاسية، لكنها المناسبة، لاحتمال الألم المؤقت من أجل الخلاص من الألم الدائم. أو استأصل الجزء المصاب من جسم المريض لنحافظ على حياته. فقد نرى الطبيب بملابس غرفة العمليات ويديه ملطخة بالدماء، فقد يحتاج الجراح إلى قطع يد، أو قدم، أو فتح بطن لإزالة ورم،

فهل نقول أن يديه ملطخة بالدماء وأنه قاتل، أم نشكره على إنقاذ حياة المريض. الإرهاب ورم خبيث في المجتمع واستئصاله يحتاج إلى عمل جراحي، وفي كل عمل جراحي يسيل دم، هذا الدم الذي يسيل ضروري لشفاء الجسد من أورامه. ولحماية الوطن من الخطر لا بد من الدماء، لسنا نحن من ذهب باتجاه هذا الخيار، بل الإرهابيون ومن يدعمهم من المتآمرين على البلد. وعمل الرئيس في حماية البلد في الأزمات الكبرى يشبه عمل الجراح، يحتاج إلى جرأة ودقة، حتى يتم استئصال الورم الخبيث من جذوره.

كانت السنوات المنصرمة اختبارا بالنار لي، وأنا لا أزال صامدا في مواجهة مؤامرة شاملة ومستمرة، أعتى رجال التاريخ لا يمكنهم الصمود في مواجهتها. عندما انطلقت الاحتجاجات في الدول العربية بدءا من تونس، قلت كلاما واضحا، إن سورية خارج هذا السياق، لأن العلاقة بين القيادة والشعب مختلفة عن الدول الأخرى. أذكر تماما ذلك اليوم الذي دخلت فيه مستشارتي إلى مكتبي، وهي تقول: «سيدي الرئيس، هذه المقابلة التي أجرتها مع سيادتك صحيفة «وول ستريت جورنال» الأميركية. إجابات سيادتك رائعة، محكمة ومنطقية وواقعية ومقنعة.» قالت كلماتها وهي تمد يدها من

فوق مكتبي بنص المقابلة، تناولته وابتسمت لها، كنت مرتاحا في تلك المقابلة، فأنا أعرف ما أريد، أعرف بلدي وأعرف المنطقة جيدا، وأعرف كيف تكون العلاقة الجيدة مع الشعب، أحد عشر عاما في منصب الرئيس كافية للحكم على هذه العلاقة، هذه ليست علاقة يوم وليلة، إنها علاقة طويلة، حتى لو لم نضف إليها السنوات التي عملت فيها إلى جانب أبي، قبل أن أصبح رئيسا. لطالما قدمت للرؤساء والملوك العرب النصائح من أجل أن تكون علاقتهم مختلفة مع شعوبهم، لكن كل تلك النصائح ذهبت أدراج الرياح. لقد استحقوا مني وصفهم بأنصاف الرجال، فهم لا يريدون الاقتراب من شعوبهم ويكونوا محبوبين مثلي. ليس كل القادة قادرين على التمكن من هذه المعادلة الناجحة. ولأنهم تعالوا على تلك الأفكار استحقوا المصير الذي شهدوه، فهم ارتبطوا وارتهنوا للخارج وفقدوا كل استقلالية لبلدانهم، على عكس ما تعيشه سورية من استقلالية وتحد لكل المخططات الأميركية والإسرائيلية والغربية، هم ذهبوا وأنا بقيت رغم أن ما تعرضوا له من مؤامرة جزء يسير مما تعرضت له أنا وبلدي. لقد حارب الجميع سورية أربعين عاما، وكانت الحملة الأخيرة قبل سنوات في لبنان، صمدنا وأفشلنا

مخططاتهم، صحيح أن قواتنا خرجت من لبنان، لكن وجودنا فيها صار أقوى بعد خروجنا من هناك، لأن تأييدنا في لبنان عارما. سياستنا المبدئية الممانعة والمتصدية للغرب تجد التأييد داخل سورية وفي البلدان العربية، وهو ما جعل أوروبا نفسها تركض وراءنا في الأعوام الأخيرة. هذا لم يعرفوه في تونس ومصر اللتين احتمتا بأميركا، ولا حتى في اليمن وليبيا. لم يعرف الرئيس التونسي الهارب كيف يتعامل مع شعبه، فاستحق ما جرى له، لو كان أقرب إلى شعبه وعبر عن طموحاته، لما وصل إلى ما وصل إليه، ولما اضطر للفرار من تونس. والرئيس المصري، لسنوات طويلة، بعيد عن شعبه يسكن بعيدا في منتجعات شرم الشيخ ومرتهن لأمريكا وإسرائيل فاستحق الانتفاضة عليه.

وضعتُ المقابلة أمامي، وأشرت للمستشارة أن تجلس. جلست المستشارة على حافة الكرسي الموضوع أمام المكتب. أخذتُ أقرأ المقابلة، تجاوزت المقدمة إلى الأسئلة مباشرة، قرأت:

«- نشكرك ثانية لاستقبالنا، ونحن نقدر ذلك. ربما نستطيع أن نبدأ من الوضع الإقليمي الذي يطغى على جميع الأخبار. كرئيس لسورية، كيف ترى ما يحدث في تونس

ومصر والجزائر والأردن؟ كيف ترى المنطقة تتغير؟ وأخيرا، ماذا يعني ذلك لسورية بالذات؟

+ إذا أردت أن تتحدث عن تونس ومصر، فنحن خارج هذا الأمر. وفي النهاية، نحن لسنا تونسيين ولسنا مصريين. لا نستطيع أن نكون موضوعيين، ولاسيما أن الوضع ما زال ضبابيا وليس واضحا. إن الأمور لم تستقر بعد، ولذلك فإن أيا كان ما تسمعه أو تقرأه في هذه المرحلة، لا يمكن أن يكون واقعيا أو محددا أو موضوعيا. ولكنني أستطيع الحديث عن المنطقة بشكل عام أكثر من الحديث عن تونس أو مصر لأننا نشكّل منطقة واحدة. نحن لسنا نسخا عن بعضنا لكن لدينا الكثير من الأمور المشتركة. إذن أعتقد أن الأمر يتعلق باليأس؛ وكلما كان لديك ثورة فإن من الثابت أنه سيكون هناك غضب، لكن هذا الغضب يتغذى من اليأس. اليأس مرتبط بعاملين داخلي وخارجي. الداخلي هو ما نلام عليه كدول ومسؤولين، أما الخارجي فهو ما تلامون أنتم بشأنه كقوى عظمى أو ما تدعونه في الغرب بالمجتمع الدولي، في حين بالنسبة إليهم فإن المجتمع الدولي مكوّن من الولايات المتحدة وبعض الدول الأخرى،

ولكن ليس العالم كله. لذلك دعنا نشير إلى الأخير باسم القوى الأعظم المنخرطة في هذه المنطقة منذ عقود.

أما بالنسبة للعامل الداخلي فإن الأمر يتعلق بالقيام بشيء لتغيير المجتمع، وعلينا أن نواكب ونجاري هذا التغيير كدولة ومؤسسات. عليك أن تطوّر نفسك مع تطور المجتمع. لابد أن يكون هناك شيء ما لتحقيق هذا التوازن، وهذا هو العنوان الأكثر أهمية. أما فيما يتعلق بالغرب فإن الأمر مرتبط بالمشكلات التي لدينا في منطقتنا، مثل غياب السلام، وغزو العراق، وما يحدث في أفغانستان، والآن تداعياته على باكستان ومناطق أخرى. وهذا أفضى إلى اليأس والغضب. ما أخبرك به الآن هو مجرد عناوين رئيسية، أما من ناحية التفاصيل فربما يكون لدينا تفاصيل للحديث عنها لأيام، في حال أردت المواصلة. أنا أعطيك فقط الطريقة التي ننظر فيها إلى الوضع بشكل عام.»

قفزتُ عن بعض الأسئلة، وقرأت:

«- إذا كانت سورية في صف واحد مع شعبها فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، لماذا يشكل الإصلاح السياسي مثل هذا التحدي داخليا؟ هذا أمر تعمل عليه لكن الناس يشعرون بأنه لم يتم تحقيق تقدم كبير فيه.

بدأنا الإصلاح منذ أصبحت رئيسا. لكن الطريقة التي ننظر بها إلى الإصلاح مختلفة عن الطريقة التي تنظر بها أنت إليها، بالنسبة إلينا لا يمكن أن تضع الأحصنة أمام العربة، إذا أردت أن تبدأ يجب أن تبدأ بـ١.. ٢.. ٣.. ٤ لا يمكنك أن تبدأ بـ٦ ومن ثم تعود إلى الواحد، بالنسبة لي الرقم «١» هو تماما ما ذكرته للتو: كيف تطور المجتمع بكامله. بالنسبة لي كدولة ومؤسسات الأمر الوحيد الذي يمكن عمله هو، لنقل، إصدار بعض المراسيم والقوانين.. من الناحية الفعلية هذا ليس إصلاحا. الإصلاح يمكن أن يبدأ ببعض المراسيم لكن الإصلاح الحقيقي يتعلق بكيف تجعل المجتمع منفتحا وكيف تبدأ حوارا.

المشكلة مع الغرب أنهم يبدؤون بالإصلاح السياسي ومن ثم التوجه نحو الديمقراطية.. إذا كنت تريد المضي نحو الديمقراطية فإن أول أمر يجب أن تفعله هو إشراك الشعب في صنع القرار لا أن تقوم بإصدار القرار.. هذه ليست ديمقراطيتي كشخص بل هي ديمقراطيتنا كمجتمع.. إذا كيف تبدأ؟ تبدأ بخلق حوار.. كيف تخلق حوارا؟ نحن لم يكن لدينا في الماضي إعلام خاص ولم يكن لدينا انترنت أو جامعات أو مصارف خاصة. كل شيء كانت تديره الدولة..

لا يمكنك أن تخلق الديمقراطية التي تسأل عنها بهذه الطريقة.. لديك طرق مختلفة لخلق الديمقراطية.

- هل الشعور بأنك عندما تفعل ذلك قبل أن تفتح عقول المواطنين فإن النتيجة ستكون التطرف؟

لا ليس لهذا السبب، بل السبب هو أن الحوار ممارسة وعليك أن تدرب نفسك على كيفية إجراء الحوار، وعندما تكون لا تتكلم، وفجأة تتكلم، فإن ما يحدث هو أنك لا تتكلم بالطريقة الملائمة أو الطريقة البناءة.. نحن نتعلم.. ولكن نتعلم من أنفسنا. أنت لا تتعلم من أي شخص في هذا العالم.. وعندما يكون لديك إصلاح لابد أن يكون إصلاحا وطنيا.. يمكنك أن تتعلم إذا رغبت، من تجارب الآخرين أو من أحد مظاهر هذه التجارب ولكن لا يمكنك أن تعتنق التجربة بكاملها.. أول أمر يجب أن تتعلمه هو كيف تجري حوارا وكيف تجعله بناء.. وهكذا بدأنا نجري حوارا في سورية من خلال الإعلام قبل ست أو سبع سنوات مضت. اليوم أفضل من ست سنوات مضت.. لكنه ليس الوضع الأمثل. ما زال أمامنا طريق طويل لنمضي فيه لأن الأمر هو عملية متواصلة.. لو أنني نشأت في ظروف مختلفة لكان علي أن أدرّب نفسي، ولنكون واقعيين علينا أن ننتظر الجيل المقبل

لجلب هذا الإصلاح.. هذا أولا ، ثانيا في سورية لدينا مبدأ مهم للغاية أتبناه شخصيا.. وهو إذا أردت أن تكون شفافا مع شعبك فلا تفعل أي شيء تجميلي سواء كان الهدف خداع شعبك أو لتحصل على بعض التصفيق من الغرب.. هم يريدون انتقادك، دعهم ينتقدون ولا تقلق.. فقط كن شفافا مع شعبك وأخبرهم أن هذا هو الواقع.. ما تفعله اليوم قد يكون سيئا الآن ولكن جيد جدا العام المقبل.. إذن الوقت مهم بالنسبة للإصلاح وذلك يعتمد على مدى ما يمكنك المضي به إلى الأمام.. وبالعودة إلى عامل الركود، نحتاج إلى مياه متدفقة ولكن كم ستكون سرعة تدفقها.. إذا كانت سريعة جدا يمكن أن تكون مدمرة أو يمكن أن يتسبب بفيضان.. لذلك لابد أن تجري المياه بسلاسة.

ـ مما رأيناه في تونس ومصر خلال الأسابيع الماضية هل يجعلك ذلك تفكر بأن هناك بعض الإصلاحات التي يجب أن تقوم بتسريعها؟ وهل هناك أي قلق من أن ما يحدث في مصر يمكن أن يصيب سورية؟

إذا لم تكن قد رأيت حاجة للإصلاح قبل أن يحدث ما حدث في مصر وفي تونس فإن الوقت سيكون قد تأخر كثيرا للقيام بأي إصلاح.. هذا أولا. ثانيا ، إذا قمت بالإصلاح

فقط بسبب ما حدث في مصر وتونس فسيكون مجرد رد فعل وليس فعلا.. وطالما كان ما تفعله هو رد فعل فإنك ستفشل.. إذا من الأفضل أن تفعل ذلك عن قناعة.. لأنك مقتنع به.. وهذا أمر نتحدث عنه في كل مقابلة وكل اجتماع.. نحن دائما نقول إننا نحتاج إلى الإصلاح ولكن أي نوع من الإصلاح.. هذا أولا.. ثانيا، إذا أردت أن تجري مقارنة بين ما يجري في مصر وسورية فعليك أن تنظر من زاوية مختلفة.. لماذا سورية مستقرة على الرغم من أن لدينا ظروفا أكثر صعوبة؟ مصر مدعومة ماليا من الولايات المتحدة بينما نحن تحت الحظر الذي تفرضه أغلبية دول العالم.. لدينا نمو على الرغم من أننا لا نملك الكثير من الاحتياجات الأساسية للناس.. وعلى الرغم من كل هذا لا تجد الناس يخرجون في انتفاضة.. لذلك فالأمر لا يتعلق فقط بالاحتياجات وليس فقط بالإصلاح ولكنه متعلق بالعقيدة والمعتقدات والقضية.. هناك فرق بين أن تكون لديك قضية وبين أن يكون هناك فراغ.. إذا كما قلت لدينا الكثير من الأمور المشتركة ولكن في الوقت نفسه لدينا بعض الاختلافات...»

توقفت عن القراءة عند هذا الحد، نعم رؤية واضحة لمن يريد أن يصلح بلده ويكون شفافا مع شعبه، رفعت رأسي عن

المقابلة، نظرت إلى المستشارة، سألتها: «هل قرأتِ المقابلة؟» فهمت من لهجتي أني أتهمها بعدم القراءة ولم أكن أقصد ذلك، كنت أريد معرفة تقديرها للمقابلة. أجابت بسرعة وبصوت مرتبك كتلميذ ابتدائي خائف: «نعم قرأتها.. قرأتها..» قلت: «ما رأيك بها؟» قالت: «سيدي الرئيس، إنها رائعة، لقد أجابت على كل الأسئلة التي تدور في رأس المواطن، ليس هناك تحليل أعمق ومقاربة للوضع الراهن في المنطقة وداخل القطر من الكلام الذي قلته سيادتك في هذه المقابلة. وهي يجب أن تكون منهاج عمل ليس في القطر، بل في العالم العربي، الذي تُلقي عليه المقابلة نظرة شاملة وتضع الحلول المناسبة له، حتى لا ينزلق إلى ما هو أسوأ. إنها نظرة ثاقبة وعبقرية تعطي الحلول للوضع العربي المعقد...» قاطعتها بإشارة من يدي وأنا أبتسم، ليس هذا ما أردت مناقشته، مع هذا الشكل من المديح، لا يصلح أي حوار، فهمتْ المستشارة الإشارة واستأذنت بالمغادرة، هززت رأسي موافقا، ثم خرجت.

صحيح أن الأمور أخذت شكلا آخر في سورية، لكنها اتخذت هذا المسار بسبب من صحة ما قلته في تلك المقابلة وليس بسبب خطأه، وبات من الواضح أنه يجب تحطيم النموذج السوري واثبات أنه يشبه غيره من الأنظمة في المنطقة.

العديد من الأطراف في المنطقة والعالم اعتقدت أن الفرصة باتت مواتية من أجل الانقضاض على سورية، في ظل موجة من الاعتراض السياسي التي اختلط فيها الحابل بالنابل في المنطقة. قبل أن أدلي بدلوي في تلك المقابلة، كنت أدرك أن هذه القضايا لا تعالج بالمقابلات الصحفية، هناك إجراءات استباقية يجب القيام بها، وهذه الإجراءات يجب العمل عليها، حتى لو كانت إمكانية أن تنتقل المظاهرات إلينا إمكانية محدودة ولو بفعل تآمري. أنا أدرك مكانتي عند شعبي، وهذا لا يمنع الآخرين من التآمر عليّ والعبث بأمن البلد. مبكرا، كلفت لجنة من مدراء أجهزة المخابرات ومدير مكتب الأمن القومي، وبعض ضباط الأمن المتقاعدين، لوضع إستراتيجية أمنية لمعالجة أي تحركات مشبوهة مشابهة ومقلدة لما جرى في تونس ومصر، وطلبت منهم أن تكون جاهزة في أسرع وقت، وفعلا كانت على مكتبي، بعد أسبوع واحد، كما أني طلبت استشارة أمنية من أصدقائنا الإيرانيين عن الإجراءات الأمنية التي اتخذتها الدولة في إيران للتصدي لمؤامرة ما سمو بـ«الإصلاحيين» هناك قبل أكثر من عام من بداية التحركات في الدول العربية، للاستفادة منها، كانت إجراءاتهم ناجحة في مواجهة المؤامرة

ومحاصرتها والقضاء عليها مبكرا. اعتمدت الإستراتيجية الأمنية على مجموعة من الإجراءات المضادة لأي تحرك تخريبي، من نوع تقسيم المناطق في المدن الرئيسية، لمربعات أمنية صغيرة ومحاصرتها وقطع تواصل هذه المناطق مع بعضها، لمنع أي تدفق بشري كبير وتشكيل تجمع حاشد كبير، مواجهة الحشود الصغيرة بحشود أكبر منها من عناصر الأمن بشعارات داعمة للدولة، واعتقال من يمكن اعتقاله، وإطلاق النار على المتآمرين عند الضرورة، على أن لا يقع ضحايا كثيرون، تصوير التحركات على حقيقتها بوصفها مؤامرة تحركها أيد خارجية، وليس احتجاجات مطلبية. وغيرها من الإجراءات العادية من سرعة التحرك، وتأمين وحدات صغيرة مستنفرة دائما لتأمين التحرك السريع لمواجهة أي تحرك مضاد في أي مكان، هذه الإجراءات كانت فعالة في امتصاص أولى الهجمات على الدولة.

عندما أجريت المقابلة مع «وول ستريت جورنال»، لم أكن أعرف أن الأحمق رئيس فرع الأمن العسكري في درعا وابن عمتي قام باعتقال مجموعة من الأطفال وعذبهم تعذيبا مبرحا لأنهم كتبوا على جدران المدرسة «جاك الدور يا دكتور» ويقصدونني شخصيا. طبعا، أنا مع تأديب من كتب

الشعارات، ولكن ليس بهذه القسوة، وهو بالغ في قسوته، والأسوأ أنه أهان أهالي درعا، وطلب منهم أن يحضروا نساءهم لينيكوهن ويعلموا رجال درعا كيف ينجبون أولادا يحبون الرئيس!! طبعا، أنا لا أرضى عن هذا التصرف، لست مع إهانة البشر بهذه الطريقة الاستعراضية والمذلة. يجب تأديب المخطئ، ولكن هذا التأديب يجب أن يكون محسوبا، وليس عشوائيا ويدار بطريقة حمقاء. كان عليّ أن أعالج الأمر بنفسي، خاصة وأن المؤامرة انتقلت سريعا إلى دوما على مسافة من قريبة من دمشق والى بانياس على الساحل وغيرها من المناطق. كان من الضروري الاستجابة لبعض المطالب المحقة للمتظاهرين حسني النية، صحيح أن أيادي خفية تدير الأمور بعد خطأ أحمق من ضابط أمن غبي، لكن هناك أشياء يجب الاستجابة لها، حتى تتم تهدئة الوضع الذي تسبب به اعتقال الأطفال. ولا سيما أن محاولات تآمرية تحاول أن تستورد ما جرى في تونس ومصر حصلت في وسط دمشق، وتحديدا في سوق الحميدية، إلا أنها لم تستقطب أي تأييد يُذكر. حاولت مجموعة من المشاغبين تقليد ما جرى في مصر وتونس، في منتصف الشهر التالي لاعتقال الأطفال في درعا، لكن لم يكن هناك أية استجابات لهذه الدعوات. في

درعا كانت المشكلة، سلوك الضابط الأحمق الذي كان على اطلاع على الإستراتيجية الأمنية، ولم يفهم منها، سوى صلاحياته في إطلاق النار على البشر، وعندما خرجوا من أجل المطالبة بالإفراج عن أولادهم، قام بإطلاق النار عليهم وتسبب بإشعال المدينة. أحيانا الفرق في المعالجة بين شخصين، تجعل الفروق هائلة في النتائج، فقد جرت احتجاجات في منطقة الحريقة وسط دمشق، بعد أن أهان شرطي مواطنا هناك، وقد تجمع الناس بمظاهرة تنديد بالظلم، وقد ذهب وزير الداخلية بشخصه إلى هناك، وتحدث مع الناس المحتشدة، وقال لهم إن الشرطي سيعاقب على ما فعله، وليس هناك أحد فوق القانون. ما أدى إلى احتواء الموقف وقبل الناس اعتذار وزير الداخلية وتفرقوا دون أي صدامات، بعد أن هتفوا بحياتي. الضابط في درعا تصرف على العكس تماما، كان فجا واستفز الناس بأسوأ طريقة. وبعد إطلاق النار وسقوط قتلى وانتقالها إلى بعض المناطق الأخرى مثل ريف دمشق وبعض مناطق حمص واللاذقية وبانياس، بات أمر معالجتها من مهماتي، وكان علي أن أفكر مطولا في ما يجب فعله، استدعيت عشرات المستشارين العسكريين والسياسيين، استمعت لهم ولرأيهم

في ما يجب فعله. سمعت آراء كثيرة، جل الآراء من أصحاب التجربة السياسة، الذين كان رأيهم الاستجابة إلى بعض المطالب ووعد بالاستجابة إلى مطالب أخرى في المستقبل، ووعد بمزيد من الحرية، دون تحديد وقت أو إجراءات محددة لهذه الحرية. وجزء من الضباط الأمنيين السابقين والعاملين لهم ذات وجه النظر. وآخرون يقولون أن التنازلات تجر التنازلات ولا نعرف أين سننتهي في هذا الموضوع. والبعض توسط بيني وبين المناطق المحتجة، وسكان المناطق كانوا يؤكدون على محلية المطالب لرفع بعض الظلم هنا وهناك، وقد أخبرتهم عن طريق الوسطاء أنني سألبي كل المطالب المحقة وأرفع الظلم عن المناطق المظلومة. وطلبت إعداد صيغ مختلفة للخطاب الذي كنت سألقيه في نهاية الشهر لشرح الأحداث وكيفية التعامل معها.

لم أرتجل القرارات، فكرت كثيرا واستمعت إلى الكثيرين. وأعرف أن هناك وجهات نظر أخرى. وتحاورت مطولا مع مستشاري وأحد الذين شهدوا صراع الثمانينات مع والدي، وهو على معرفة جيدة واطلاع على الأوضاع التي كانت قائمة في ذلك الوقت. قال: «يا سيادة الرئيس، أنت طلبت مني أن أقول ما أعتقد مهما كان، وثقتك بي تجعلني

أقول رأيي بصراحة تامة. أنا أعتقد أن التهدئة ممكنة، ولا أخفي على سيادتك، أن ما جرى في درعا، قد تسبب به سلوك رئيس فرع الأمن العسكري هناك، هو في مهمة أمنية، وليس من أجل أن يهين الناس، عليه أن يردع الناس ويحمي الأمن، وليس أن يستفز الناس. درعا محافظة موالية لسيادتكم، لم يُعرف عنها أنها قامت بسلوك معارض، ولم تكن بؤرة مهمة للإخوان في صراع الثمانينات، على العكس نحن نعتبرها محافظة مؤيدة بقوة للنظام، وهي خزان يرفد أجهزة الأمن والشرطة بالكثير من العناصر. وكما أن هناك سلوكا استفزازيا اتبعه ضابط الأمن والمحافظ هناك، يمكن أن تكون هناك عملية تهدئة. ولا أُخفيك يا سيادة الرئيس، لم يعد مقبولا ، أن يتم تعيين محافظ من غير أبناء المحافظة، لماذا لا يكون هذا المحافظ من أبناء درعا مثلا، أعتقد الكثيرين من أهالي درعا، يستحقون المنصب ويملكون الكفاءة الإدارية والسياسية للمنصب، أما أن يتم تعيين المحافظ من مدن الساحل ورئيس فرع الأمن وغيرهم من الموظفين الرئيسيين من الساحل تحديدا، هذا مشكلة بالنسبة لأهالي درعا. وما كان مفهوما في لحظات ذروة المؤامرة في الثمانينات لم يعد مفهوما بعد أن استقر الأمن في

البلد. يجب تغيير هذه النظرة إلى المواطنين وإفهامهم بشكل أو بآخر، أنهم محترمون، وأن الأمن في خدمتهم وليس لأهانتهم. طبعا، هذا لا يعني أن تهمل الدولة الأمن، على العكس، لكن أعتقد أن هذه الوسائل باتت قديمة ومستفزة، كانت فعالة أيام الوالد، ولكنها لم تعد كذلك. اليوم، على أي سلطة أن تظهر الوجهين، الوجه المرن، والوجه القاسي عند الضرورة، أما أن تظهر وجهها القاسي فقط، فهذا لم يعد مقبولا. وما يجري في البلدان العربية الأخرى يؤكد ذلك. أستطيع أن أقول يا سيادة الرئيس أن هذا الوضع المتصاعد في البلد، من الممكن السيطرة عليه وحله سياسيا.»

كنت أتأمله وهو الرجل الثمانيني، يتكلم بهدوء، يتحدث عن معرفة كبيرة، ليس بتجربته في الثمانينات، بل وبما يجري في البلد. يبدو أن كبر سنه، جعله يقول لي ما لم يجرؤ أحد آخر على قوله لي. وأردت سماع وجهة نظره حتى نهايتها. قلت: «أنا ارغب في سماع وجهة نظرك بالتفصيل، إذا لم يكن لديك مانع.» قال: «أخاف يا سيادة الرئيس أن آخذ من وقتك الثمين بلا فائدة.» ابتسمت له وقلت: «لا عليك، كل الفائدة في الاستماع لرأيك فأنت صاحب تجربة كبيرة، وكنت دائما محل ثقة أبي، ومحل ثقتي أيضا، وأعرف

حرصك عليّ وعلى البلد.» شجعته كلماتي في الاستمرار في الحديث. قال «يا سيدي، الأمن وحده لا يحمي البلد، وأنا أقول لك ذلك، وأنا ابن التجربة الأمنية، وهذه الأجهزة في النهاية لها وجهان، يمكن إدارتها بكفاءة وبالتالي تقوم بحماية الدول بشكل فعال. ويمكن إدارتها بطريقة سيئة بذلك تضع الدولة في مأزق. دائما، يجب أن تدار الأجهزة الأمنية سياسيا، لم يكن الوالد ليدير سياسات أمنية محضة، كل الإجراءات الأمنية التي اتبعها المرحوم كان لها وظيفة سياسية، مباشرة أو بعيدة المدى، لذلك حرص على أن يدير الأجهزة الأمنية، لا أن تديره هي. ولا أخفيك يا سيادة الرئيس، أنه رغم كل الحرص والتروي والحسابات الباردة التي كان الوالد يقوم بها قبل اتخاذ أي قرار، خاصة القرار الأمني، لم يكن هناك أخطاء فحسب، بل لقد ارتكبت جرائم أيضا. ما حمى الدولة ليس دائما القدرة، بل أحيانا حمتها الصدفة وأحيانا الحظ. أقول هذا لأني اليوم أشعر مخاطر الحل الأمني المتبع بدون شبكة أمان سياسية...» توقف عن الحديث عندما دخل مدير مكتبي ليخبرني همسا، بأن الموعد التالي قد آن أوانه، فقلت له على مسمع الرجل: «المواعيد التالية، لتنتظر حتى ننتهي.» قصدت

الكلام بصيغة الجمع. ولد عندي فضولا ورغبة شديدين للاستماع لرجل له مثل خبرته، رافق أبي طويلا، أدار جهازا أمنيا دبَّ الرعب في البلد لسنوات طويلة. خاض صراعا مريرا في الثمانينات وتقاعد بصمت قبل سنوات قليلة من وفاة والدي. قال: «أعتذر سيدي الرئيس، إن أخذت أكثر من الوقت المخصص لي.» قلت ممازحا: «لك كل الوقت أيها العم الطيب، أنا من يحتاجك، لذلك طلبت مقابلتك، لست أنت من يحتاجني، وأنا أعرف أنك خلال السنوات الماضية لم يكن لك أي طلبات من الرئاسة، لطالما اعتبرك أبي الجندي المثالي، وهذا ما يجعل مكانتك محفوظة عندي، وأتمنى أن تقول كل ما تعتقده في شأن ما نعيشه اليوم، دون اعتبار للمنصب، تحدث كأننا أصدقاء، أصدقاء فقط.» قال: «هذا يشرفني يا سيدي، وسأقول لك كل ما أعتقد بكل صراحة» ذكرته: «كنت تتحدث عن شبكة الأمان السياسي..» تذكر وتابع: «نعم يا سيدي، قد تستغرب من رجل ذا تجربة أمنية طويلة أن يقول، أن الأمن وحده لا يحمي النظام، وكانت أسوأ الفترات في تجربتي، هي تلك الفترات التي أُطلقت فيها يد الأجهزة الأمنية والجيش بلا ضابط سياسي. بصراحة أكبر، في معركة حماة في الثمانينات على سبيل

المثال، لم نكن نحتاج إلى تدمير مدينة حماة القديمة من أجل الفوز بمعركة الصراع مع الإخوان المسلمين، ولا أخفيك أيضا أن أعدادهم في المدنية، لم تكن تحتاج إلى كل القوات التي حشدت لحسم الصراع هناك...» لم أرغب في أن تفوتني هذه النقطة حتى أفهم ما الذي جرى في حماة، لقد سمعت الكثير وقرأت الكثير، لكني لم أستطع أن أكون صورة واضحة عما جرى تلك الأيام، فسألت: «أنت ماذا ترى، لماذا حصل ما حصل من وجهة نظرك؟» قال: «إجابتي يا سيدي، أن ما كان وراء هذا الدمار، هو الخوف والانتقام.» سألت: «كيف ذلك؟» قال: «سأحدثك، بكل صراحة. حاول والدك كثيرا تجنب الصراع مع الإخوان، وحاورهم طبعا، حاورهم كالعادة عن طريق أجهزة المخابرات، وكنت أحد قنوات الحوار، لم يقتنعوا أننا جادون في الحوار، وأعتقد أن الحوار مع معتقلين ليس مجديا، خاصة أنك تحاوره وأنت تسجنه. وطيلة فترة الحوار لم يتوقف الصراع والتفجيرات. لكن أعتقد أن المسألة الحاسمة في الصراع كانت شخصية بالنسبة لوالدك، وتاريخية بالنسبة للطائفة. المسألة الشخصية بالنسبة إلى والدك، واعذرني على هذا التعبير، الخوف، عندما استطاع الإخوان الوصول إليه أمام مجلس الشعب بقنبلة

يدوية، الصدفة والحظ هما اللذان لعبا دورا حاسما بنجاته. بعدها شعر بالخوف، لأول مرة بعد معرفة طويلة بوالدك شعرت أنه خائف، ولم يستطع هذه المرة إخفاء خوفه، مع أنه في مرات كثيرة كان قادرا على ذلك، فوالدك له قدرة هائلة على التحكم بنفسه، هذه المرة كل الذين قابلوه من داخل البلد ومن خارجه، أدركوا أنه خائف. انتقل هذا الخوف إلى الجميع، خاصة جماعتنا الذين اعتمد الوالد عليهم لأنهم العصب المركزي التي يدير بها البلد، والخوف استدعى ذكريات ليست جيدة لنا جميعا، لقد عشنا بقهر لسنوات طويلة، وهذا القهر متحالفا مع الخوف، صنع رد فعل أكبر كثيرا من الحاجة العسكرية الفعلية له، لقد كان هناك انتقام من المدينة التي يعتبرها الكثيرون بيننا في جبال العلويين رمزا لقهرنا لسنوات طويلة. ولأنها هي التي قهرتنا من وجهة نظرهم، كانت الحرب على المدينة ولم تكن على المسلحين المتحصنين داخلها فقط. لقد كان عقابا للمدينة ودرسا قاسيا للبلد التي انتهكت بألف شكل وشكل بعد الانتصار عليها.» كان ما قاله غريبا على مسامعي، أحدنا، ينتمي إلى نفس المكان وإلى ذات الطائفة يقول هذا الكلام، لا أشك بأن هناك أشياء كثيرة خفية في هذا البلد من

الصعب معرفتها حتى على الرئيس. لقد شعرت بما يشعر، فهو اليوم خائف، وهناك ما يكرّر نفسه بطريقة أو بأخرى. سألته: «هل تعتقد أنه كان هناك حل آخر غير الحل الأمني؟» قال: «نعم، كان هناك خيار آخر، وحتى عندما لا يكون هناك خيار آخر، على السياسي أن يخترعه، هذا عمله، حتى بعد ما ارتكب ما ارتكب في المدينة، كان هناك إمكانية لمعالجة الجراح وتجاوز الأزمة، لكن روح الانتقام ظلت مشتعلة، لذلك، لم تحل المشكلة إلى اليوم. انتصرنا، وأخضعنا المدينة والبلد بالقوة، لكننا لم نقنعهم أنهم لن يبقوا يدفعون الثمن للأبد لأن هناك جزءا منهم تمرّد على السلطة. لم تأخذ السلطة أي إجراءات من أجل معالجة هذا الجرح، ولم تستطع حتى أن تخبر أهالي المفقودين عن مصير أبنائهم، والى الآن وبحكم معرفتي بما جرى هناك، وبحكم عملي السابق، ما تزال المدينة بعد ثلاثين عاما من الأحداث الدامية خائفة، وما تزال إلى اليوم تعتبر أنها محتلة من طائفة أخرى تعاملها بأشد الاحتقار. نعم، كان هناك إمكانية لمعالجة الجرح، ولكن روح الانتقام منعت حصول ذلك، وبقي الوالد عنيدا جدا في هذا الموضوع، ولم يقبل بأن يفاتحه أحد به، حاولت فتح الموضوع معه عدة مرات، كان يغلقه فورا،

كنت أحترم رغبته، فأسكت. لم تكن معالجة الجراح صعبة، كان يمكن للجنة مصالحة حقيقية، أن تحقق بما جرى، وأن تعترف الدول بأخطائها، وأن هذه الأخطاء سوف تعالج، وأن تخفف القبضة الأمنية الصارمة على المدينة وعن البلد لحد ما، وأن يتم الكشف من مصير المفقودين، وغيرها من الإجراءات التي تقول أنه لا معنى أن ينتصر الإنسان على أبناء وطنه. لكن لم يكن هذا هو الخيار السياسي، على العكس المزيد من الضغط على الجرح حتى تعفن. ولا أخفيك يا سيادة الرئيس أن الوضع هناك محتقن لدرجة أنه يمكن أن ينفجر في كل لحظة. أقول هذا الكلام سيدي الرئيس لأني أعتقد أننا نمر بلحظة لا تقل خطورة عن تلك التي عشناها في مطلع الثمانينات، ولا أخفيك أن مفاعيلها لا زالت مستمرة إلى الآن، لأن القضايا التي لا تنزع فتيلها المتفجر من الأساس، ستبقى تتفاعل وتفعل فعلها في البلد. أتمنى يا سيادة الرئيس أن لا تعتمد الحل الأمني بوصفه حلا وحيدا لمشاكل البلد هذه المرة، ما كان ممكنا في الثمانينات لم يعد ممكنا اليوم.» سألته: «هل لديك تصور معين للحل؟» قال: «لدي تصور، لكن لا أعرف إذا كان عند سيادتك الرغبة في معرفته؟» قلت: «بالتأكيد، أرغب بمعرفته مهما كان، إذا

لم يكن عندك أي مانع في قوله.» قال: «أبدا، يسعدني أن تسمعني سيادتك. أعتقد يا سيدي، إن ما يجري اليوم يجب معالجته سياسيا، فالإجراءات الأمنية لن تحل المشكلة، خاصة وأننا لسنا وحدنا الذين نعيش هذه الحالة، مغادرة الرئيسين المصري والتونسي للسلطة والأوضاع الصعبة التي يعيشها الرئيسان الليبي واليمني، تشجع على الاستمرار في الاحتجاجات، والحل الأمني يعزز الاستمرار والتصعيد أيضا. الحل السياسي وحده القادر على نزع الفتيل وتجنب تعميم الأحداث على كل البلد.» سألت: «ما هو الحل السياسي الذي تتصور انه ينقذ البلد من الانزلاق نحو الأسوأ؟» قال: «يا سيدي، سأقول لك تصوري بكل صراحة. أنا ابن هذه المؤسسة وأعرف جيدا مكامن القوة فيها، كان الوالد حريصا على حصر كل الصلاحيات في يده. رئاسة الجمهورية تتحكم في كل شيء، وصلاحيات الرئيس السوري المعلنة في الدستور وغير المعلنة، لا تشبه أي دولة أخرى في العالم من حيث شمول الصلاحيات التي يحوزها الرئيس. وهذا المنصب هو الذي يملك حل المشكلة، واعذرني بهذه الكلمة، ويملك تعقيدها أيضا. الدولة عندنا تشبه تلك التي كانت في الدولة الاشتراكية، رغم أن هذا النموذج انهار هناك إلا أنه صمد

هنا، آلة الحكم كما صممها السيد الوالد هي من ذات الطراز، وإذا كانت مرونة الوالد هي التي أبقت هذا الوضع قائما، فأنا أعتقد أن هذا الشكل للسلطة تقادم ولم يعد قابلا للاستمرار، وسيادتك اليوم تعرف أكثر مني أن الآلة نفسها التي صممها السيد الوالد ما زالت هي الفاعلة. الحل، سيدي أن تستخدم صلاحيات الرئاسة للقيام بتغييرات واسعة تنقل البلد من مكان إلى آخر. بدل أن تكون هذه الاحتجاجات موجهة ضد منصب الرئيس، يصبح الرئيس والناس في ذات الموقع في شق طريق جديد أمام مستقبل البلد.»

قلت: «كيف يكون ذلك عمليا؟!» قال: «إجراءات واضحة وعلنية تستجيب لما هو أكثر مما يطالب به الناس من إقالة محافظ أو رفع الحظر عن بيع هذه الأرض أو تلك، أو تخفيف القبضة الأمنية... الخ. نحتاج إلى إعلان عقد اجتماعي جديد من أجل المستقبل. أن تعلن سيادتك بشكل ملموس وواضح وصريح، أنه آن الأوان لسورية أن تشق طريقها باتجاه المستقبل، وآن لهذا الشعب أن يختار طريقه بإرادته، لقد ارتكبت السلطة الكثير من الأخطاء والجرائم في هذا البلد، وآن الأوان لتغيير كل هذا. فالشعب السوري يستحق أن يأخذ مصيره بيده. ومن هذا الموقع تستطيع أن تعلن أننا

أمام فترة انتقالية عنوانها الحريات التي يستحقها الشعب السوري بجدارة، طبعا بعد رفع قانون الطوارئ، إننا في هذه المرحلة الانتقالية التي ستنتهي مع انتهاء ولاية الرئيس، وعلينا أن نعمل سوية، لتحويل سورية إلى بلد يختار مستقبله بإرادته، عبر انتخابات تشريعية تعددية لكل الأطياف السياسية في سورية، وعلى أن تتوج هذه الفترة الانتقالية بانتخابات رئاسية تعددية لن تكون سيادتك طرفا فيها، على أن تشمل هذه الفترة الانتقالية، فتح كل القضايا والملفات، لنعبر إلى المستقبل بثقة ونجاح. أعتقد أن هذا الحل ممكن في سورية، وأعتقد يا سيادة الرئيس أن مثل هكذا حل سيجعلك بطلا في نظر شعبك، وسيجعلك المنقذ لهذا البلد في ظل الرياح التي تعصف في المنطقة. أعتقد أن هذه القضية الجوهرية في أي إصلاحات جدية في سورية، وأي إصلاحات شكلية أخرى لن تكون سوى رمي مزيد من الوقود على النار المشتعلة. آسف سيدي الرئيس، إن كنت أخطأت التعبير، وآسف إن تجاوزت حدودي. أقول هذا من باب الأمانة ومن حرصي على البلد وعليك سيدي الرئيس بأن نعبر هذا الأزمة دون أن تذهب البلد بعيدا في هذا الصراع.» دهشت تماما مما قاله الرجل. لطالما كانت فكرتي عن رجال الأمن أنهم ينفذون الأوامر، ولم

أكن أتصور أن أحدهم يمكن أن يملك وجهة نظر كاملة وبهذا الوضوح. لا أعرف بالضبط، إذا كانت أفكاره أم أنه يعتمد على آخر في صياغة هذه الأفكار، لكن أعجبتني جرأته في عرض رأيه ووضوح الفكرة تماما بالنسبة له وقدرته على شرحها. عندما هم بالمغادرة لم أكتفِ في الشد على يده، بل عانقته، وقلت له «أتمنى منك أن تكتب لي وجهة نظرك في وثيقة كمشروع لحل الأزمة، إذا لم يكن لديك مانع؟ فأنا أفخر بالرجال أمثالك.» أجاب: «أنا تحت أمرك سيدي الرئيس» سرت معه حتى باب المكتب، ودعته مرة أخرى.

عدت إلى مواعيدي، وبقيت طوال الوقت أفكر في كلام الرجل، وجهة نظره فيها الكثير من الوجاهة، وبالتأكيد، باتت البلد في حاجة ماسة إلى تغيير كبير وعميق، ولكن كيف؟ لم أكن أعرف، لطالما رغبت في أن أكون رئيس التحولات الكبرى في سورية، لكني لم أنجح في ذلك عندما أتيت إلى السلطة. فعليا، لم أكن أعمل رئيسا، كانت الدولة تسير بقواها الذاتية، وأنا أراقبها، فهي تسير بدوني، بقوة الدفع الذاتي التي صنعها أبي. أتتني الرئاسة على طبق من ذهب، دون أن أبذل جهدا. توفي أبي،

فكان الآلة تتفذ رغبته أو ما قرره سلفا، حتى لا يترك شيئا للصدفة. كنت أعرف أن نص الدستور، لن يسمح لي بأن أكون رئيسا لأنه يشترط أن يكون الرئيس قد بلغ الأربعين من عمره، ولم أكن قياديا في حزب البعث حتى يرشحني للرئاسة... كان هناك الكثير من العقبات التي تمنع وصولي إلى منصب الرئيس، لم أفعل شيئا لتذليلها. منذ اللحظة التي توفى فيها أبي، أخذت العقبات، تتذلل لوحدها بفعل آخرين. في ذات اليوم، تم تعييني قائدا عاما للجيش والقوات المسلحة، بمرسوم وقعه نائب الرئيس، الذي كان شبه معتقل من المخابرات، قُدم المرسوم له فوقعه، وهذا العمل الوحيد الذي قام به، وبقي شبه معتقل حتى انتهت مراسيم انتقال السلطة لي. كنت عضوا في حزب البعث بحكم أن الرئيس أبي، وهو حزب الرئيس، لكني لم أطمح يوما إلى بلوغ قيادته، لقد انتخبت أمينا عاما للحزب دون أن أترشح. كما كان الأمر بشأن التعين في الجيش، تم جمع مجلس الشعب وقام بتعديل الدستور في مادة سن الرئيس حتى يتناسب مع عمري حينها. كانت الأشياء تسير بقوتها الذاتية، لم أقوم بشيء يذكر للوصول إلى السلطة، أتت السلطة لي بفعل قوة الدفع الذاتي التي صنعها والدي. وبإجراء الاستفتاء على الرئاسة

وفوزي فيه في أغلبية ساحقة أصبحت رئيسا. من موقع الرئاسة أدركت ما يتحدث عنه الرجل، فعلا كل السلطات التي يمكن جمعها، تم تجميعها في منصب الرئيس، حتى يكاد المنصب يشرف على كل صغيرة وكبيرة في هذا البلد، وهو يفوض الصلاحيات بكل أنواعها للآخرين عندما يشاء، ويسحبها وقت ما يشاء. قوة منصب الرئاسة في البلد مذهلة وسحب صلاحيات المناصب الأخرى جعل كل منصب في الدولة، منصبا شكليا ومفرغا من أي سلطة فعلية، وخادما لسلطة الرئيس. نعم، ما يقوله الرجل عن صلاحيات الرئيس وقدرته على التغيير كبيرة جدا. شعرت أني أميل إلى رأي الرجل، فعلا لماذا لا أكون الرئيس الذي يقود البلد إلى خيار الحرية، وبذلك، لا تنتقل البلاد من طريق إلى طريق آخر، بل أتخلص أنا من عبء كوني ورثت السلطة عن أبي، وأصبح صانعا لطريق جديد لي وللبلد، لا يتطابق مع طريقة أبي في إدارة البلد، لكنها تجنب البلد صراعا داميا، ليست بحاجة له، وتجعل مكانتي في التاريخ السوري مكانة استثنائية، بوصفي الرئيس الذي جلب الحرية لسورية بعد سنوات طويلة من غيابها. استهوتني الفكرة وبت أفكر في نفسي بوصفي منقذا للبلد من مسار مظلم ينتظرها. إنها

صورة مناسبة لي كمجدد كبير في البلد والعالم العربي، ومع ما أحمله للبلد من مستقبل أفضل، هذا هو ما أريده، صورة المنقذ والبطل، لقد منحني الرجل هذا الخيار وعليّ أن أفكر فيه بجدية. جلست طوال تلك الليلة أفكر في كيف يمكن تنفيذ هكذا تصور، قلت سأنتظر تصوره، فعلا وصل التصور بعد أسبوع، لكن الأمور كانت قد أخذت منحى آخر.

٦

قرّرت أنه آن الأوان للاستجابة لبعض المطالب المحقة، وإحداث تغييرات على مستوى السلطة منسجمة مع الإصلاحات التي وعدت بها منذ أتيت إلى الرئاسة وتراجعت عنها، والتي بدأتها بالإصلاح الإداري، وآن الأوان لنقوم بخطوة أخرى إلى الأمام. أخبرت الكثيرين من حولي انه آن الأوان للإقدام على قفزة كبيرة للأمام، بإجراء إصلاحات كبيرة تتطلبها البلد. تبدأ من استجابة للمطالب المحلية المحقة، ووعد بانتخابات مجلس شعب أكثر تعددية، ووعد بمزيد من الحريات، وتخفيف القبضة الأمنية، ورفع حالة الطوارئ في وقت قريب، وإطلاق حوار وطني جامع للوصول إلى توافق وطني على المستقبل. وآن الأوان أن ننتقل خطوة إلى الأمام على هذا الطريق الطويل نحو المستقبل. كان وقع هذا الكلام طيبا عند الكثيرين.

في صباح اليوم التالي، تحدث الرئيس التركي معي متضامنا، وطالبا مني احتواء الأزمة بالإصلاحات، وقلت له: «الإصلاحات قادمة، سريعة وعميقة، شاكرا تضامن تركيا مع سورية.» وفي نفس الوقت، استدعيت المستشارة لإبلاغها أن هناك إصلاحات قادمة وسريعة بما يتعلق بقانون الطوارئ والتعددية والفساد وإصلاح السلطات المحلية، ورد الاعتبار للضحايا. اقترحت المستشارة أن نرسل نص الخطاب الذي سألقيه إلى الصحفي الأميركي الكاتب في صحيفة «واشنطن بوست» والذي تربطها به علاقات حسنة، ليكتب للرأي العام الأميركي عن الإصلاحات المتضمنة فيه، لكن الظروف منعتني من إلقاء ذلك الخطاب الذي تم إرساله إلى ذلك الصحفي، وتم استبداله عشية إلقاء الخطاب بصيغة أخرى. بعد الخطاب عاتب الصحفي الأميركي المستشارة على التلاعب به، وأن هذا تصرف غير لائق، ولم يكن يتوقع أن نرسل له نسخة من الخطاب، وألقي نسخة أخرى معاكسة في المضمون لما تضمنته مسودة الخطاب التي أرسلت له. تمنى عليها أن توصل عتبه لي، وهذا ما فعلته. المشكلة في مثل هذه الحالات أنك لا تستطيع أن تشرح كل شيء للصحافة. فصناعة القرار تعتمد على المعلومات التي لا تستطيع أن

ترسلها كلها للصحافة، لأنك بحاجة إلى حماية مصادر معلوماتك، وأن تبقى على قناة تدفق المعلومات مفتوحة. طلبت منها أن تعلن كل ذلك في مؤتمر صحفي سريع، وأن يعدوا خطابا يتضمن هذه الإصلاحات، ولم أقل لها أن تضمنه إعلانا عن التنحي في نهاية ولايتي، هذه أضيفها أنا بنفسي عند الصياغة الأخيرة للخطاب. فكان أن أعلنت الوعود، لكن لم يتغير شيء في معطيات المؤامرة التي أخذ انتشارها يتوسع بعد إعلان الوعود. أُعلمت أنه جرى الهجوم على نادي الضباط في مدينة حمص، وأن هناك اشتباكات في مدينة اللاذقية وكأن الإعلان عن هذه الإصلاحات زاد اشتعال الوضع وأعطى وقودا جديدا للمؤامرة. طلبت اجتماعا مع «لجنة الأزمة» التي تم تشكيلها لمتابعة الوضع، لأستطلع رأيها في إمكانية طرح إصلاحات واسعة وسريعة كتلك التي تحدث عنها الرجل قبل يومين. ساد التوتر عند الجميع في اللجنة بعد ما جرى من توسع في المؤامرة، وكانوا قلقين من تصريحات المستشارة التي أعلنت فيها الوعود الإصلاحية. أتى رئيس شعبة المخابرات العسكرية يحمل ملفا ضخما، أطلعني على اعترافات لأشخاص عبروا الحدود يحلمون هواتف متصلة عن طريق الأقمار الصناعية، وعن مبالغ مالية كبيرة لتصرف

على المظاهرات، وعلى ضبط كميات كبيرة من الأسلحة في الجامع العمري بدرعا وغيرها. واعترافات مماثلة لمعتقلين من جنسيات غير سورية بنفس المضامين. المؤامرة واضحة وبالمعطيات بالنسبة لجهاز المخابرات. كان هناك شبه إجماع في لجنة الأزمة، أن الإصلاحات المعلن عنها على لسان المستشارة سوف يعتبرها أطراف المؤامرة مؤشرا على الضعف، ما يعني، أننا سوف نذهب إلى توسيع دائرة الاحتجاجات والاختراقات لمناطق أخرى، وإذا أردنا الوقوف في وجه هذه المؤامرة يجب أن نظهر القوة لا الضعف، هذا لا يعني إهمال الإصلاحات، لكن الأولوية للتصدي للمؤامرة، تصريحات المستشارة تسببت بالمزيد من أعمال التخريب في درعا واللاذقية وجهاز الأمن لم يعد قادرا على صد هجمات الإرهابيين لوحده، وبات لا بد من إنزال الجيش للتصدي للمؤامرة، وهذا ما طلبه رئيس شعبة المخابرات العسكرية في الاجتماع. وعندما سألت وزير الدفاع، عارض فكرة نشر الجيش في المدن، وقال: «لا يجب زج الجيش في هذا، فالجيش قوة ثقيلة لا تصلح لملاحقة المتظاهرين الذين سرعان ما يختفون. للجيش مهمات أخرى يقوم بها، والتصدي لمخاطر أخرى تواجهها البلد. هذا رأيي يا سيدي، والقرار في النهاية

لكم يا سيدي القائد العام للجيش والقوات المسلحة.» سألت رئيس المخابرات: «ما هي المخاطر؟» قال: «يا سيدي، الأغلبية الساحقة من الشعب السوري مع سياسة سيادتكم، لقد خرجت اليوم مظاهرات مؤيدة لسيادتكم بالملايين في كل المدن السورية، ومن معه كل هذا الشعب يجب أن يظهر هذه القوة في مواجهة المؤامرة، تقديم التنازلات يجعل الأقلية المتآمرة تشعر بالقوة، وتخيف رجال جهاز الأمن. وأعتقد أن رجالنا يحتاجون إلى إعلان أن سيادتكم يقف معهم في حربهم على الإرهاب بوصفها دفاعا عن الوطن. أعتقد أن أجهزة الأمن لن تستطيع الصمود طويلا دون مؤازرة الجيش في ظل التوسع المتزايد للمؤامرة. على الأقل هناك اليوم حاجة ملحة للمؤازرة في درعا وفي اللاذقية.» كان من الواضح أن الوضع أكثر خطورة مما تصورت وأن المعلومات الجديدة تقول، أن المؤامرة أسرع من أي إصلاحات ممكن إعلانها. قلت وبشكل حاسم: «فلينزل الجيش إلى درعا واللاذقية، وسينزل في كل مكان يحتاج ذلك، لن نخضع للمؤامرة، وسنخوض الحرب مع المتآمرين حتى النصر.» وجهت كلامي لرئيس شعبة المخابرات: «حدد حاجتك من الوحدات في كل موقع، وأبلغ رئيس الأركان، وأنا سأصدر أمرا عسكريا بهذا

الخصوص.» بعد الاجتماع، استدعيت المستشارة ومدير مكتبي وأبلغتهم أن يصيغوا خطابا يتضمن كلاما وضحا عن المؤامرة وأن يعد بإصلاحات لكن دون أي جدول زمني محدد.

لا شك أن الصورة التي حلمت بها خلال اليومين السابقين كانت جميلة، ترسم مستقبلا رائعا للبلد، لكنها صورة ساذجة وحالمة لا يمكن الوصول إليها في الواقع الحقيقي للبلد. نحن نعيش في بلد تهدده المخاطر من كل حدب وصوب، وهناك جهات كثيرة استغلت الأحداث في الدول العربية الأخرى لتنتقم من سورية على مواقفها، البلد التي صمدت طوال أربعين عاما في وجه كل المؤامرات لن تنحني وستدحر كل مخططات التآمر. هناك تحد أمام البلد ونحن نقبله وسننتصر في معركتنا مع المتآمرين على سورية.

أجمعت الآراء في «لجنة الأزمة»، باستثناء وزير الدفاع، أن تقديم أي تنازلات في مثل هذا الوقت، سيتم تفسيره على أنه حالة ضعف للنظام، وبالتالي سيتم طلب المزيد من التنازلات، وهذا لن يوقف المؤامرة، وكلما كانت التنازلات أكثر فهي تشجع على الوصول إلى نهايات المطالب برحيل النظام. لم يكن من خيار إلا التوجه إلى المعركة بأقصى قوة

كونها معركة وجود، وهو ما كان. المعركة وحدها ما يخرس الأصوات التي تطالب بالإطاحة بالنظام، وفقط بعد الانتصار الساحق سأبدأ بالاستجابة للطلبات المحقة، لكنها تتحول بهذه الحال إلى منح مني بوصفي القائد المنتصر، وليس تنازلات تحت تهديد القوة. كان التقدير، أن ما يجري هو تكرار يكاد يكون حرفي وعلى نحو موسع لتجربة التآمر على سورية في الثمانينات، ولذلك يجب الرد عليها بذات الأدوات والأساليب، لسبب بسيط، أنه لا يمكن التحاور مع المؤامرة، أما بشأن المطالب المحقة فمن الممكن حلها إداريا، مثل تسهيل بيع الأراضي في الأماكن الحدودية وتجنيس الأكراد الذين لا يحملون جنسية سورية... الخ من هذه القضايا التفصيلية.

للمرة الثانية منذ وصلت إلى منصب الرئاسة شعرت بالخوف، ويبدو لأن أبي شعر بالخوف في مثل هذا الوضع قبل ثلاثين عاما أيضا. صحيح أني حافظت على تماسكي أمامهم، لكن بت خائفا. المرة الأولى التي خفت فيها، كانت يوم وفاة أبي، لم أكن أعرف ما الذي علي عمله، لم أكن وحدي الخائف في ذلك الوقت، لقد كانت البلد كلها خائفة، أي سيناريو سيكون صالحا لخلافة الرئيس، لم

أكن واثقا من أني سأشغل المنصب. في المرة الأولى التي واجهت فيها الخوف، قام الآخرون بحل كل مشاكلي، بوصفي الحل لمشاكلهم، بعد غياب سيدهم، ولأنه اختارني سيدا لهم، كان عليهم أن ينفذوا إرادته، غاب الرجل لكن آلاته ما زالت تعمل وما زالت فتاكة، لذلك لم يكن أمام البلد ونخبتها سوى الإذعان لإرادة الميت. هذه المرة الموضوع مختلف، ليس هناك من يرفع الحمل عني، حملي ثقيل وعلى أكتافي وحدي وعليّ أن أرفعه بنفسي. صحيح أن أبي توفي، لكن آلته ما زالت فاعلة، ويمكنني الاعتماد عليها. سألت: «هل هذا يعني الحرب علينا؟» أجاب جميع الحاضرين بالموافقة على إنها الحرب، قلت وقد تغلبت على خوفي: «فلتكن الحرب، تجنبتها خارج سورية، لكن لا يمكن تجنبها داخلها.» تخليت عن الخطاب الذي تم إعداده بشأن الإصلاحات الكبيرة، وقررت أن أشرح أبعاد المؤامرة التي تتعرض لها سورية والتي تستهدف تدمير البلد، وحتى نوأد الفتنة نحن بحاجة إلى أن نكون موحدين شعبا ودولة، هذا كان جوهر الخطاب مع الحديث العام عن الإصلاحات التي تحتاجها البلد.

ما يؤكد المؤامرة، ليس أنها جاءت من المنطقة الجنوبية فحسب، التي يتسرب إليها الكثير من العناصر القادمة من الأردن بتمويل خليجي. فقد أرسلت ممثلين عني من أجل التعزية بالذين قتلوا في الأحداث التي انفجرت في مدينة درعا. أرسلتهم رغم معرفتي أن هؤلاء القتلى كانوا جزءا من المؤامرة، ورغم كل شيء اعتبرت أن عليّ يقع عبء احتوائها وتقديم العزاء لأهالي القتلى. فماذا كان الرد؟ المزيد من التخريب في دوائر الدولة هناك.

في يوم الخطاب في مجلس الشعب قلت الأشياء بوضوح، كان يجب أن أحدّد خلفيات الأحداث، فقلت إني درست مطولا إمكانية إدخال إصلاحات، منذ اللحظة التي ألقيت فيها خطاب القسم في عام تسلمي منصب الرئاسة. لكن الأحداث الخارجية التي كانت تهدد سورية أدّت إلى تحويل الانتباه عن عملية الإصلاح وتأخيرها أكثر من مرة، وهذا لم يكن برغبتنا، بل لأسباب خارجة عن إرادتنا. ومن بين هذه التهديدات، هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) الإرهابية على نيويورك، وغزو العراق، كما اعتبرت الإدارة الأميركية، على حد تعبيرها، أن سورية هي الدولة التالية التي ستستهدفها الحرب الأميركية. كما أشرت إلى الأزمة

اللبنانية في عام ٢٠٠٥، وهجوم إسرائيل على لبنان في ٢٠٠٦ وعلى غزة بين ٢٠٠٨ و٢٠٠٩، فضلا عن سنوات الجفاف الأربع التي عانت منها سورية، كل هذا أثر على إمكانية إقرار الإصلاحات اللازمة للبلد. لم تمر سورية في ظرف مناسب لتنفيذ إصلاحات كبيرة. قلت: «سورية تتعرض لمؤامرة كبيرة... قاموا بالخلط بشكل ذكي جدا بين ثلاثة عناصر: الفتنة والإصلاح والحاجات اليومية. معظم الشعب السوري يدعو إلى الإصلاح. معظم الشعب السوري لديه حاجات لم تلب... لكن الفتنة دخلت على الموضوع وبدأت تقود العاملين الآخرين وتتغطى بهما. ولذلك كان من السهل التغرير بالكثير من الأشخاص الذين خرجوا في البداية عن حسن نية. ولا نستطيع أن نقول إن كل من خرج متآمر. دائما المتآمرون هم قلة.» قلت بوضوح أني تأخرت في إلقاء الكلمة «ريثما تكتمل الصورة» وأشرت إلى عمل «أعدائنا كل يوم بشكل منظم وعلمي من أجل ضرب استقرار سورية». وقلت: «نحن نقر لهم بذكائهم في اختيار الأساليب المتطورة جدا في ما فعلوه ولكننا نقر لهم بغبائهم للاختيار الخاطئ للوطن والشعب حيث لا ينجح هذا النوع من المؤامرات... سورية تتعرض اليوم لمؤامرة كبيرة خيوطها تمتد من دول بعيدة

وقريبة، ولها بعض الخيوط داخل الوطن. وتعتمد هذه المؤامرة في توقيتها لا في شكلها على ما يحصل في الدول العربية.» وأكدت أن «وأد الفتنة واجب وطني وأخلاقي وشرعي. وكل من يستطيع أن يساهم في وأدها ولا يفعل فهو جزء منها.»

لم أكن لأقبل أن أقود سورية لتستسلم لمؤامرة دنيئة، ولا يمكن إملاء أي سياسات على سورية تحت الضغط. لقد تمت قراءة الخطاب في الخارج، بوصفه خطابا متشددا لا يقدم أي تنازلات، ولم يرَ اللجان التي أمرت بتشكيلها من أجل النظر في قانون الطوارئ، والتحقيق بالأحداث التي حصلت في درعا واللاذقية، والنظر بمنح الأكراد الجنسية السورية. فالخارج بالطبع لن يرى خطورة المؤامرة التي هو شريك فيها.

هناك لحظات فارقة في السلطة، هذه اللحظات لا تشبه غيرها، لأن قراراتها لا تحتمل التأجيل، واتخاذها يعني أنها ستذهب في اتجاه محدد، لا تعرف بالضرورة أين ستصل، ولكن في جميع الأحوال عليك أن تتخذ هذا القرار. كان ذلك عندما بدأت المؤامرة على سورية. سألت نفسي: ما الذي سأفعله؟ صحيح أني كنت قد طلبت إستراتيجية أمنية، وكانت على مكتبي وقت وقوع أحداث درعا ودوما وبانياس وحمص، وغيرها من المناطق التي وصلها المتآمرون. أعتقد أن

الإستراتيجية الأمنية كانت فعالة، لكنها لا تعمل لوحدها، فهي بحاجة إلى قرار، وهذا القرار يجب أن يكون من الرئاسة، وليس من أي سلطة أخرى. في اجتماعات لجنة الأزمة كنت واضحا، قلت: «ليس مسموحا أن نبدي أي ضعف، فمن الواضح أن هناك مؤامرة محاكة بشكل محكم، والكثير من المغرر بهم يتبعون المتآمرين بنوايا حسنة، ولا يمكن السماح للمتآمرين أن يعبروا على ظهور السذج الذين يرددون شعارات تم نسجها في دوائر المخابرات الأميركية. لم يكن خفيّا على أحد يملك حدا أدنى من الذكاء أن يرى المؤامرة المعلنة على سورية، تحت ذريعة تمدّد أكذوبة الربيع العربي. لا يمكن السماح بهذا النوع من الإساءة للبلد وأمنها، علينا جميعا أن نتصدى للمؤامرة، وأن نضرب جميعا بيد من حديد أطراف المؤامرة والمنخرطين فيها حتى لو كان هذا الانخراط مجرد سذاجة. في الاجتماع كان من الواضح على الوجوه مواقفها مما أقول دون حاجة للكلام. الحاضرون الراضون عن الكلام، حملوا وجهة النظر التي تقول: أن إظهار أي تراخٍ مع الاحتجاجات، يشجع آخرين على الانخراط في المؤامرة وهذا يشكل خطرا كبيرا على الدولة الشرعية ومؤسساتها. الوجوه غير الراضية، تلك التي كانت

تدعو للتهدئة والحوار مع المناطق المحتجة وتقديم إصلاحات سريعة، لأن هناك مظالم كثيرة تعرضت لها هذه المناطق والاستماع إلى شكواها والاستجابة للمطالب المحقة يغير المعادلة والمزاج المستاء في البلد، ويجعل هذه المناطق تلفظ المؤامرة. عندما كنت أستكشف حقيقة ما يجري في المناطق التي حدثت فيها الصدامات، طلبت من الوسطاء الذي أوصلوا مطالب المناطق المحتجة إليّ، وأوصلوا ما قلته من حرصي على أن يأخذ كل مواطن حقه، أن تشكل كل منطقة من هذه المناطق وفدها من عشرة أشخاص من فئات اجتماعية متنوعة لأستمع إلى مشاكلهم ومطالبهم مباشرة. استقبلت عشرات الوفود من درعا ودوما واللاذقية وحمص وحماة وادلب، وغيرها من المناطق. الكثير من الشكاوى انصبت على ممارسات الأجهزة الأمنية والمظالم التي تعاني منها هذه المناطق من موظفين عامين فاسدين محميين من الأجهزة الأمنية، بحيث لا يستطع أي أحد أن يشتكي عليهم، لأنهم ينتقمون منه بواسطة الأجهزة الأمنية التي تهدده في أحسن الحالات، بحيث يبقى تحت رحمة التهديد، أو يعتقلونه ويلفقون له تهمة كاذبة. لقد اشتكوا من تدخل الأجهزة الأمنية في كل صغيرة وكبيرة في حياتهم. كما اشتكوا من

إفقار منظم تعرضت لهم المناطق التي يعيشون فيها، فلم يعد هناك أعمال والكثيرون باتوا عاطلين عن العمل، والأجور في تراجع لم تعد تكفي مصاريفهم العائلة... الخ من الشكاوى التي أظهرت أوضاعا صعبة تعيشها الكثير من المناطق التي انضمت إلى الاحتجاجات. قلت للجميع أني شخصيا لا أقبل هذه الممارسات وهي ممارسات ضد القانون، ووعدت الوفود بوقفها بأسرع وقت. الكلام الغريب الذي سمعته من هذه الوفود، جاء من شاب ضمن وفد مدينة حماة. عندما سألته: «ما مطالبك أنت؟» أجاب الشاب: «أريد أبي.» قلت: «ماذا تقصد أنك تريد أباك، هل أبوك معتقل؟» أجاب الشاب: «لا اعرف هل هو معتقل أم متوفى، أبي اعتقله الأمن قبل ثلاثين عاما من منزلنا عندما كانت أمي حاملا بي، وكان في الخمسين من عمره. لم أعرفه لأني لم أكن موجودا في هذه الدنيا عندما تم اعتقاله، اليوم عمري ثلاثون عاما ولا نعرف هل أبي حي أو ميت، راجعنا عدة فروع للمخابرات مئات المرات لنعرف مصيره دون جدوى، طلبنا منهم أن يعطونا بيان وفاة له، رفضوا، فلا أحد يعرف شيئا عنه. إننا لا نستطيع أن نتصرف بأملاك أبي، كنا عائلة ميسورة وأصبحنا معوزين وأملاك أبي أمامنا، ونحن غير قادرين على التصرف بها،

لأننا لا نعرف منذ ثلاثين عاما، هل ما زال على قيد الحياة أم لا. نحن ما زلنا معتقلين معه سيادة الرئيس.» قلت: «لا عليك، سأوعز إلى المعنيين لحل مشكلتك.» عندما كنت أسمع الشاب من حماة يروي قصة أبيه، تذكرت رجل الأمن الذي قال لي أن هناك مشاكل من تلك الأيام لم تحل بعد. وعندما سألت عن الموضوع، عرفت أن هناك الكثير من القصص من ذات النوع، لم يستطع أحد التعامل معها، ولم يجرؤ أحد على طرحها على أبي، وتفاقمت مع الأيام، وبات المتضررون منها كثر، شكلت جرحا عميقا مفتوحا بالنسبة لهم. كان صندوق المشاكل يكبر أمامي، وتغذت المؤامرة على هذا الصندوق الكبير وغيره من الصناديق التي لم يعالجها أبي فوجدت نفسي أحمل عبئه.

٧

توسعت المؤامرة بسرعة كبيرة، فالتحالف الدولي المتآمر على سورية أخذ يضم أعضاء جددا ، حتى من أصدقائنا الذين انقلبوا علينا خدمة لأسيادهم، أمثال تركيا وقطر ودول الخليج. وحتى داخليا أخذت تتوسع بانضمام فئات باتت تعتقد أن الدولة باتت ضعيفة وأن عليها أن تأخذ مسافة من السلطة، حتى لا تُحسب على النظام الذي أصبح مستقبله مهددا. حتى حماة التي شكلت ميدان المعركة في الثمانينات وهناك حسمت بالحديد والنار، ما جعل المدينة تخاف وتصبح أسيرة خوفها، تحركت، وكل المتآمرون المتوارون خرجوا من أوكارهم وعملوا على الاحتشاد واحتلال ساحة العاصي وسط المدينة. كانت الأوامر واضحة منذ البداية، أن أي مكان يحتاج إلى إنزال قوات الجيش، يجب على هذه القوات أن تقوم بواجبها ، وتم الاعتماد في درعا ودمشق وريفها على ما يُعرف باحتياطي القائد العام، الفرقة الرابعة والحرس

الجمهوري والقوات الخاصة الفرقة الأولى. وهذه الوحدات تخضع مباشرة لإمرتي بوصفي القائد العام للجيش والقوات المسلحة، ولم تكن بحاجة إلى أوامر من وزير الدفاع. في مدينة حماة، أرسلت أمرا إلى وزير الدفاع للتحرك والقيام بالأعمال اللازمة لإخلاء ساحة العاصي من الإرهابيين، حرّك الوزير القوات إلى محيط الساحة، دون أن تقوم بأي فعل لإخلائها من المتواجدين فيها أو حتى منع الدخول والخروج منها. كانت الأوامر واضحة، يجب الضرب بيد من حديد على يد كل المتآمرين على البلد. عندما رفعت الهاتف غاضبا وسألته: «لماذا لا تتحرك القوات من أجل إخراج الإرهابيين من ساحة العاصي في حماة؟» قال الوزير: «يا سيدي، أعتقد أنه يمكن التوصل إلى حل سياسي مع المتواجدين في ساحة العاصي، دون استخدام القوة، وأعمل أنا والمحافظ على ذلك.» قلت: «إذا كان ذلك ممكنا، لماذا لم تتوصل إلى هذا الحل مع الإرهابيين إلى الآن.» قال: «يا سيدي، أحتاج إلى بعض الوقت، لا يمكن حل الموضوع بسرعة. الوضع تحت السيطرة، ويمكن إجراء المفاوضات مع المتواجدين في الساحة من أجل الوصول إلى حل ينهي اعتصامهم.» تجنب في حديثه معي أن يسمي المتواجدين في الساحة بالإرهابيين

فيوافق على توصيفي لهم، أو يستخدم تعبيرا آخر مثل المتظاهرين أو المحتجين فيصطدم معي. كان يسير على خيط رفيع، لكن هذه المواربة لم تعجبني. قلت: «هل سيبقى الوضع على حاله وهتافاتهم تطالبني بالرحيل بأغاني ساخرة، ويرفعون شعار، ما منحبك ما منحبك ارحل عنا أنت وحزبك، ويرددون وراء مغنيهم، الأغنية الكريهة التي تطالبني بالرحيل وتم بثها مباشرة على الفضائيات، في ظل هذه الظروف تحتاج إلى وقت سيادة الوزير؟! أي كلام سخيف تقوله، عليك القيام بعملك بإخلائهم فورا، والحوار ليس من مهماتك.» قلت كلامي الأخير بلهجة آمرة وبصوت عالٍ، وأضفت بنفس النبرة: «عليك تحريك القوات بأسرع وقت لإنهاء هذه المهزلة، حتى لا نواجه الأسوأ.» تجاهل أوامري تماما، لم يحرك أيا من القوات خلال الأسبوعين التاليين، وهذا ما شجع الإرهابيين والمشاغبين على زيادة أعدادهم في الساحة والقدوم من أماكن أبعد، فهم يمرون بالجيش وآلياته وحواجزه دون أن يعترضهم أو يقترب منهم أحد، أو حتى يحاول منعهم. شعر الإرهابيون هناك بالأمان، فالجيش لم يقم بأية أعمال لردع أعمالهم وفض تجمعهم في ساحة العاصي، بل على العكس ظهر وكأنه متعاطف معهم ويرعاهم ويعاملهم بلطف. زاد

الشعور بالأمان عدد المتجمعين هناك، حيث بات الوضع في حماة كارثيا، والوزير لا يتحرك. وعندما اتصلت به وقلت صارخا «عليك التحرك فورا، الأمور تزداد تعقيدا، والوضع لا يحتمل، والوقت لا يصلح لتأملاتك الفارغة.». قال: «يا سيدي، يصعب علي الأمر، لن أصدر الأوامر بإطلاق النار على المتواجدين في ساحة العاصي، بعد هذا العمر. في حياتي ارتكبت الكثير من الأخطاء والخطايا، لكني لا أستطيع أن أنفذ أمرا يريق دماء السوريين، فأنا تجاوزت السبعين من عمري ولا أرغب أن يسجل التاريخ أنني في آخر عمري تلوثت يدي بدماء السوريين.» قال كلماته بكل هدوء وكأنه أعدها منذ زمن طويل ليجيب على أمر يأتيه من هذا النوع. قلت: «لا بأس، أنت ترفض أمرا عسكريا، ستدفع ثمن ذلك.» قال: «يا سيدي أنا لا أرفض أمرا عسكريا، إنما أطلب إعفائي من مهماتي، وأنا أستقيل من منصبي، وأتمنى عليك أن توافق على استقالتي.» شعرت نفسي غاضبا مثلما لم أكن غاضبا من قبل، صرخت: «هذا ليس وقت استقالتك الحمقاء، نفذ الأوامر.» كنت أعرف أنه لن ينفذ الأوامر وقد قرّر سلفا ما الذي سيفعله عندما تحين هذه اللحظة. وقتها فهمت لماذا بعد بداية المؤامرة في البلد، كان كلما صادفني

وسنحت له فرصة بالكلام معي، يطلب مني إعفاءه من منصبه بسبب المرض، توقع الوصول إلى هذه اللحظة، وحاول تجنبها. كنت أجيبه: «نحن بحاجة ماسة لك ولأمثالك، الجندي الحقيقي لا يترجل في المعركة، ونحن أمام معركة كبيرة، ونحتاجك فيها.» لم يخطر لي أنه يرى الأمور من منظار مختلف وله وجهة نظر أخرى وهو ابن الطائفة المقرب من أبي ومني بعد ذلك. لم أتوقع منه أن يخذلني في مثل هذه الأوقات الصعبة. أنهيت المكالمة معه وطلبت فورا من أخي ورئيس فرع المخابرات الجوية الذهاب إلى وزارة الدفاع بتكليف مني وبأوامر واضحة، وضع الوزير في الإقامة الجبرية، ومنعه من الاتصال مع الوحدات وإبقاء الحراسة الدائمة عليه، والتصرف سريعا، بفض التجمع في ساحة العاصي في مدينة حماة دون تردد ومهما كانت الكلفة. ذهبا إليه وأخبراه أنه مقال ومعتقل بأمر من القائد العام. أُمرت الوحدات التي تتمركز في محيط ساحة العاصي بإخلاء مواقعها وتسليمها لوحدات من الفرقة الرابعة وعناصر أمن القوى الجوية، التي انتشرت بالمحيط واعتلت البنايات العالية المشرفة عليها. لقد تم إبلاغ المتواجدين في الساحة بإخلاء الساحة عبر مكبرات الصوت، لم يكن هناك أي استجابة،

ولم ينتبه المتجمعون هناك إلى أن الوحدات العسكرية قد تم استبدالها، ومن انتبه اعتبر أن ذلك التبديل روتيني بين القوات. لم يطل الأمر، كانت أوامري واضحة بفض التجمع بأي ثمن، حتى لو احتاج إلى إطلاق النار من الدبابات مباشرة على المتواجدين. وهذا ما كان، وتحركت الدبابات إلى داخل الساحة، عندما أطلق الجنود النار وتقدمت الدبابات، عرف المتواجدون في الساحة أن فترة التسامح قد انتهت، فهرب الجميع بشكل عشوائي. وفي هذه الفوضى سقط الكثير من الضحايا، وتم اعتقال الكثيرين. وشاء القدر أن يقع مغني المدينة بيد عناصر فرع المخابرات الجوية، وأن يتعرفوا عليه، فكان الأمر الواضح من رئيس الفرع، أن استأصلوا حنجرته وألقوه في العاصي، فكان له ما أراد. لم أكن لأوافق على مثل هذه الأعمال الوحشية، وقد أنبت رئيس الفرع عليها. وبالنسبة لرئيس الفرع، الوحشية ضرورية مع الأماكن المتمردة على الدولة، فهي تعني أن الدولة يجب أن تضرب بيد من حديد على العصاة، واعتبرت فرعه اليد الحديدية التي تضرب بها الدولة أعداءها الأخطر. وفعلا كنت استخدم عناصر الفرع في الأماكن التي تحتاج إلى استخدام أقصى القوة والقسوة، وهذا ما كان يقوم به هذا

الجهاز تحديدا دون تردد أو سؤال. كان رئيس الفرع أكثر الضباط حماسا للضرب بيد من حديد على يد كل المتآمرين والقضاء على بيئاتهم الحاضنة، وطالب بالسماح له باستئصال السكان في أماكن كاملة مثل داريا القريبة من فرعه، وهذا ما كان بعد صراع مرير مع الإرهابيين في المدينة. طلب الرد بقسوة وعنف على أي تحرك معادٍ للدولة مهما كان صغيرا، وقد قال الرجل لي مبكرا: «سيدي الرئيس، أفضل رد على المؤامرة الضرب بيد من حديد، محاصرة درعا وقصفها بالمدفعية، واعتقال كل شخص يخرج ضد الدولة واعتقال أهله وإغلاق المنطقة وفصلها عن العالم. لن يردع المتآمرين، سوى درس مثل الدرس الذي علمه والدكم للبلد في حماة. حينها، كنت ضابطا صغيرا وشاهدت كيف استطاع الحصار الخانق والعقاب الجماعي للبيئة الحاضنة إجبار مدينة حماة على الاستسلام . وهذا ما نحتاج إليه في درعا سيدي الرئيس. وأنا جندي في جيشكم في هذا المعركة وأنا على استعداد أن أقتل مليون شخص وأذهب إلى محكمة الجنايات الدولية من أجل أن تنتصر الدولة على أعدائها. أعرف يا سيدي الرئيس أن حملكم ثقيل، وأعرف أيضا أن القوة هي الحل الوحيد الممكن مع هؤلاء المجرمين.» قلت:

«أقدر ما تقول وأعرف أنك أفضل الجنود في هذه المعركة مع أعدائنا، وأعرف أنك ورجالك تتحملون عبئا ثقيلا في ملاحقة الأعداء في ظل ملاحقة إعلامية لا ترحم. وعلى القائد أن يحمي جنوده الأوفياء، وهذه مهمتي، لا شك بأنني سأحتاجك في المهام الكبرى، فأنا وضعت فيك كل ثقتي، وعليك أن تتأكد أننا سننتصر في النهاية. أعرف مشاعرك، واحترم رأيك وتضحياتك. ولكن هذه المرة الوضع مختلف عما كان عليه في حماة في تلك الأيام، المؤامرة أكبر وأطرافها أكثر تعددا، ولم يبق أحد في هذا العالم لم يتآمر علينا. لذلك يجب أن تعرف أن المعركة شاملة وطويلة، ولكن ثقتي بكم وبقدرة الشعب على الصمود أكبر من المؤامرة، وهي التي تجعلني أرى النصر، رغم أن المعركة طويلة.» قال: «مرة أخرى سيدي، أعرف أن المهام التي تحملونها ثقيلة، وأنا تحت أمر سيادتك، وعلى استعداد لتنفيذ أي أمر من سيادتكم دون تردد، وأنا أضع روحي بين أيديكم، فلا شيء أغلى منكم سيادة الرئيس.» شكرت الرجل على مشاعره النبيلة، ولم أجد الكلمات المناسبة التي أقولها له. كنت متأكدا أنه من أوفى الرجال، وأنه على استعداد فعلا لتنفيذ أي مهمة أوكلها له، مهما كانت قسوتها، والكثير من المهام القاسية

والمكلفة قام بها رجاله ولم يترددوا أو يرف لهم جفن، في تنفيذ مهامهم التي بالرغم من قسوتها، فهذه القسوة، هي التي حمت البلد من السقوط في أيدي الإرهابيين. بسبب هذه الثقة كلفت الرجل باعتقال وزير الدفاع وإخلاء ساحة العاصي. كان اعتقال وزير الدفاع في مكتبه إجراء ضروريا، بناء على المعلومات التي توفرت لنا من مصادر مختلفة. فقبل اعتقال الوزير، طلبت المخابرات الجوية من وزير الدفاع، عندما بدأ الإرهابيون يتجمعون في ساحة العاصي، تشكيل مجلس عسكري وقيادة عمليات عسكرية لمدينة حماة حيث يعمل الجميع تحت إشراف المخابرات الجوية، كما هو الحال في باقي المدن السورية، مثل درعا وحمص وبانياس... الخ. إلا أن وزير الدفاع رفض ذلك، واعتبر أن حماة لا تحتاج مثل هكذا تشكيل عسكري يجعل الأوضاع أكثر سوءا في الأماكن التي أدار الصراع فيها. ما وضع الوزير في موقع شك بالنسبة للفرع. بعد هذا الخلاف مع الوزير، أخذ الفرع في مراقبة اتصالات الوزير وحركته، وقد رصد فرع المعلومات مكالمة بين وزير الدفاع والأمير السعودي الذي قاد القوات السعودية في حرب تحرير الكويت العام ١٩٩١، تلك الحرب التي شاركت قواتنا المسلحة فيها بلواء

من النخبة قاده حينها الضابط الذي سيصبح فيما بعد وزيرا للدفاع في ظل رئاستي. بقيت العلاقة قائمة بين وزير الدفاع والأمير السعودي منذ ذلك الوقت. وحسب المعلومات، فإن الأمير السعودي طرح على وزير الدفاع بشكل واضح إمكانية تحركه على رأس الجيش للإطاحة بي وبشقيقي والطاقم الذي يعمل معي، وإقامة حكومة عسكرية انتقالية تتولى إدارة شؤون البلاد. على أن يقود الوزير العملية الانتقالية على غرار ما حصل في مصر. أشار الأمير السعودي في مكالمته مع الوزير أن مبادرة الاتصال به جاءت بناء على طلب من الأميركيين وهؤلاء متفاهمون مع السعوديين على هذا التوجه، وأن السعودية وأميركا توصلتا إلى أن الطريق الوحيدة لضمان ولاء الضباط المنحدرين من الطائفة العلوية وقبولهم بالتحرك هو أن يكون على رأسهم واحد منهم، وليس هناك من هو أجدر منه بالأمر. وتقول المعلومات أن الوزير لم يرد على الطرف الآخر بالسلب ولم يرفض الطلب بشكل صريح، ومن السياق الودي للمحادثة ظهر وزير الدفاع موافقا على الكلام الذي يقوله الأمير السعودي. قاموا بإرسال المعلومات لمكتبي بوصفها معلومات عاجلة جدا. كان سلوك الوزير الغريب في معالجة الأوضاع المشتعلة في حماة

والمتعارض مع تعليماتي المشددة في ضرب الإرهابيين يشير إلى موافقته الضمنية على الاقتراح السعودي. وقد تبين أن الوزير شخصيا قد منح السفير الأميركي في دمشق وملحقه العسكري الأذن بزيارة ساحة العاصي وقت الاعتصام، ولم يأتيا بمبادرة ذاتية. وهو ما قلنا عنه في وسائل إعلامنا، أنه تدخل أميركي فاضح في الشؤون الداخلية السورية، وأن السفير الأميركي تحرك دون الاتصال مع الجهات الرسمية السورية. لكنه فعليا، حصل قبل تحركه على إذن ممهور بتوقيع وزير الدفاع. رغم كل هذه المعلومات، إلا أني لا أعتقد أن الوزير كان ضالعا في أي مؤامرة محتملة على البلد، كنت على قناعة راسخة بهذا الكلام رغم قراري بالاعتقال الاحترازي له بسبب من هذه المعلومات. لكن هناك الكثير من الأسباب التي لا تجعل الوزير يفكر في مثل هذا الأمر، فهو يعرف تماما أكثر من غيره، أن الجيش ليس تحت أمرته، ولم يعد لا في إمرته ولا أمره رئيس الأركان منذ زمن طويل، فهو ببساطة لا يسيطر فعليا على الوحدات التي يحتاجها للمشاركة في مؤامرة كهذه. ترافق كل ذلك مع معلومات صحيفة «نيويورك تايمز» الأميركية تتحدث عن احتمال انقلاب يقوم العلويون به على نظام الحكم العلوي في

سورية، حيث اعتبرت الصحيفة أن عائلة وزير الدفاع أكبر من عائلتي داخل الطائفة العلوية وتأثيرها أكبر، ما يشير إلى أنهم كانوا يراهنون عليه. وأن الطائفة العلوية تؤيدني خوفا من تعرضهم للذبح على يد الطائفة السنية في حال تعرض النظام للسقوط. وأن زعماء العلويين بعد الكثير من القتلى بين أبنائهم الذين سقطوا في المواجهات الأخيرة، يشعرون أن سلطتي تتقوض بسرعة، وأني عاجز عن فرض السيطرة على البلد. وأنه إذا شعر القادة العلويون البارزون بالاطمئنان إلى سلامتهم، فإنهم قد يشرعون في الانقلاب ضدي، وبتطمين المعارضة للطائفة العلوية يمكن اقناع القادة العلويين في وحدات الجيش بسحب تأييدهم لي والعمل على الإطاحة بي. وبما أن العلويين سيطروا على سورية منذ تولي أبي السلطة، وأن الجهاز الأمني والجيش يخضع لسيطرتي المطلقة عبر الضباط العلويين وهو ما ورثته عن أبي، فإن الأمن والجيش يدار من الدائرة المقربة مني، أخي وأبناء عمومتي وأخوالي. وأن التخلص من الضباط السنة وتأثر أداء الجيش بذلك، جعلني أستعين بقوات الحماية الشعبية لأعوض النقصان الفادح في القوى التي تحمي النظام. وهذا يجعل الحل بيد العلويين وليس بيد الجيش. بيدهم الإطاحة بالنظام، لكنهم

يحتاجون إلى ضمانات من المعارضة على عدم التعرض لهم. كما ينبغي على المعارضة تقديم مثل هذه الوعود التي ستشجع العلويين جميعا على الانضمام إلى الثورة. لذلك، المسؤولية تقع على عاتق الأغلبية السنية في تطمين العلويين والأقليات الأخرى مثل المسيحيين والدروز والشيعة الذين يعتقدون أنهم يحتاجون إلى حماية النظام بأنهم لن يتعرضوا لعمليات انتقامية، والزعماء الدينيون والسياسيون من السنة يستطيعون إنقاذ سورية من شيطانها الطائفي، كل هذا الكلام كان الضباط العلويون محوره، ومحور هؤلاء جميعا كان وزير الدفاع العلوي.

داعبت هذه الأوهام مخيلة الأميركيين والخليجيين، معتقدين أن المؤامرة على سورية هي مجرد نزهة، وأن كلاما فارغا قادر على التأثير على الطائفة وتطمينها، ما يجعل المؤامرة قابلة للتنفيذ بالإطاحة بالدولة الشرعية في سورية وبي شخصيا. لم يفهموا مدى الترابط بين الدولة والشعب، وتمثيلي لروح المقاومة والممانعة التي يلتف الشعب حولها في مواجهة المؤامرة المكشوفة تماما. عندما اقرأ مثل هذا الكلام، أدرك تماما أن الآخرين لا يعرفون سورية، وأنها ستبقى تُفاجئهم المرة بعد الأخرى. ولم يعرفوا أن إمكانية

اختراق الطائفة وزرع الشقاق فيها، أقرب إلى أحلام اليقظة. صحيح أن المؤامرة كانت شاملة ومتعددة الأطراف والأذرع، إلا أنها كانت مبنية على الأوهام، وهذا يشكل سببا مهما لفشلها. ابتسمت بعد أن قرأت سيناريو الصحيفة الأميركية، طويت الصفحة التي كنت أقرأ فيها، ألقيت الملف جانبا. وطلبت إعداد قرار بإقالة وزير الدفاع وتعيين غيره، والسماح له بالذهاب إلى بيته، مع إبقائه تحت الرقابة وعدم الخروج من منزله سوى في حالات الضرورة. في اليوم التالي أصدرت القرارين، الإقالة والتعيين الجديد، وطويت صفحة وزير الدفاع.

لم تنتهِ المؤامرات الداخلية بعد فشل محاولاتهم مع وزير الدفاع، حاولوا استخدام نائب الرئيس على اعتبار أنه ينحدر من مدينة درعا، المنطقة التي بدأت المؤامرة منها. كان نائب الرئيس مستاء من الطريقة الدموية والمهينة التي تعامل بها الأمن مع سكان منطقته. بعد أشهر من بداية الأحداث، اخترته ليكون على رأس الحوار السياسي الوطني الذي دعوت له للخروج من الأزمة التي تمر بها البلاد.

بعد فرار نائب الرئيس السابق عقب اغتيال شريكه في لبنان العام ٢٠٠٥، اخترته ليكون نائبا للرئيس. واحدة من

أهم الاعتبارات التي جعلتني أختاره ليدير الحوار الوطني أنه ابن درعا، المدينة التي بدأت المشاكل فيها. لقد كنت أعرف رأيه، بأن التعامل الأمني لم يكن مناسبا مع المدينة التي عُرفت بتأييدها للدولة، وقد عمل جهده من أجل الوصول إلى تهدئة في المدينة، نجح أحيانا وفشل أحيانا، لكن إصرار العناصر المندسة في المدينة على تخريب أي حل سياسي وتصعيد القتال إلى مستويات أعلى، أفشلت كل المحاولات لإنجاز التهدئة. وبتجربة مدينة درعا ذاتها تبين أن العناصر المندسة لا يمكن التعامل معها سوى بالقوة، لأنها لا تقبل الحوار ولا أي حل سياسي سوى تدمير المؤسسات والدولة وتحويل البلد إلى حالة من الفوضى. كان الرجل وفيا للدولة ولأبي ولي بعد ذلك على مدار خدمته الطويلة، منذ كان وزيرا للخارجية في عهد أبي. مع توسع المؤامرة وامتدادها إلى مدن أخرى، وازدياد قوة العصابات الإرهابية المسلحة، بدعمها بالكثير من المال والسلاح، يبدو أنه بات يطمح إلى دور سياسي يفوق وزنه الفعلي، وبات ينتقد ليس ممارسات الأجهزة الأمنية فحسب، بل يوجه الانتقادات إلى الرئاسة ولي شخصيا أيضا. لم يتورع عن توجيه الانتقادات إلى السلوك الأمني، والاتهام إلى شقيقي الذي يقود العمليات في درعا

بحضوري، وقال: «أن هذا السلوك وحشي ومجاني، وأهالي درعا لا يستحقون هذا التعامل من الفرقة الرابعة والمخابرات الجوية، التي قصفت تجمعات المدنيين بالمدفعية، هذا ليس ردا يتناسب مع المظاهرات، حتى ولو كانت مسلحة، لا يمكن الرد عليها بالمدفعية، إنها جريمة ترتكب بحق درعا، وبحق البلد.» ثار شقيقي وصرخ باتجاهي: «كيف تسمح له بالحديث بهذه الطريقة، أنا لن أجعله يخرج من هنا حيا.» رفع مسدسه، وقال: «دعني أقتله الآن.» قال النائب: «تستطيع أن تقتلني، ولكن قتلي لن يجعل الجريمة التي ترتكب بحق البلد مشروعة، وهي في نهاية المطاف ليست مسؤوليتك، إنها مسؤولية الرئيس.» قلت لشقيقي آمرا: «اخفض مسدسك.» خرج أخي غاضبا وهو يشتم ويسب نائب الرئيس ودرعا والبلد كله. التفت غاضبا إلى النائب وقلت له: «أنت تريد أن تعلمني ما الذي عليّ فعله؟! هل تعتقد أني لا أعرف شيئا عن صلاتك المشبوهة مع دول الخليج، أنت تريد أن تلعب دور البطل الآن. أنت معتقل.» عندما طلبت الحرس لاعتقاله، كان يقول: «هذا لن يغير شيئا، لن تستطيع اعتقال الجميع. لن تستطيع أن تقتل وتعتقل الجميع.» قلت للحرس: «سيبقى النائب معتقلا في مكتبه، لا اتصالات، لا زيارات، لا مغادرة، وانتظروا

أوامري.» جاءت جرأة النائب والتطاول من اعتقاده أنه حصل على حماية الروس الذين يراهنون عليه باعتباره البديل عني الذي يضمن استمرار مؤسسات الدولة ويحول دون انهيارها، أي اعتقد أنه يمكن أن يكون عنوان التغيير من فوق، ويبدو أن هذا الوضع دغدغ رغبته في الوصول إلى منصب الرئيس. اعتقد أن النظام في طريقه إلى السقوط وبالتالي سيصبح هو البديل المقبول. وقتها كان متداولا، أن مغادرتي للبلد باتت قريبة، وأنني سأفوض صلاحياتي لنائبي وأطلب حق اللجوء في موسكو. لقد علمت، أن بعض الدول تداولت هذا الحل على أساس أنه الحل الذي يُخرج البلد من الأزمة التي تمر بها. وقد تم تداول هذا الموضوع مع الروس، وهم الذين أبلغونا بهذا الاقتراح معتقدين أنا الذي قدمته. وقد نفى الروس أنهم استقبلوا نائب الرئيس سرا، - ونحن نعرف أنه لم يغادر البلاد ولا يستطيع مغادرتها دون إذن منا - وناقشوا معه خيار ذهابي إلى المنفى وتخويل صلاحياتي له. عمل النائب أن يكون هذا الخيار هو الخيار الروسي لحل الأزمة، ضامنا لهم مصالحهم في البلد أيضا. لدي معلومات أكيدة أن دولتين خليجيتين على الأقل اقترحتا على النائب عبر وسطاء مثل هذا الحل، بوصفه حلا انتقاليا، والمهمة الأساسية أن أغيب أنا عن المشهد، وقد

أبدى النائب استعداده للقيام بالمهمة، باعتباري شخصيا جوهر المشكلة في البلد. لم يكن هذا الموضوع ليأخذ هذه الأهمية، لو أن النائب، قد أخبرني بما جرى معه وباتصالاته وبما عُرض عليه، كتعبير عن الوفاء. أما أن يوافق على هكذا خيار دون أن يخبرني، هذا يعني أنه بات جزءا من مؤامرة تهدف إلى الإطاحة بي شخصيا. لم أقم بإقالته، أصلا، كل دوره السياسي شكليا وهامشيا، ليس له موقعا مركزيا، لقد تم تغيبه عن الساحة نهائيا، وفي الانتخابات الرئاسية التالية، لم اسمه نائبا، وغاب عن الساحة نهائيا كأنه لم يكن.

عندما يكون المتحدث جزءا من المؤامرة، فإن سيل الاتهامات لنا لا ينتهي، وعندما يكون حاقدا يصبح كل شيء سيئا في البلد حتى الفضيلة نفسها. حتى في الموقع الذي ضحت الطائفة العلوية فيه من أجل البلد، هناك من اعتبر هذا امتياز لها، قام به النظام لأنه كما يتهموننا، نظام طائفي. لقد رفدت الطائفة العلوية الجيش بخيرة أبنائها الذين استشهدوا دفاعا عن الوطن. الاتهامات تقول، أن الطائفة العلوية التي تبلغ نسبتها ١٢ في المئة من سكان البلد، لكنها تحتل أكثر من ٩٠ في المئة من مواقع قادة الجيش وضباطه

ورؤساء أجهزة الأمن. هذه الأرقام مبالغ فيها، لكن وجود عدد كبير من الضباط العلويين في الجيش يفوق نسبة الطائفة إلى عدد السكان، هذه حقيقة واقعة، ليس بسبب السياسات الطائفة التي اتبعها أبي في تعيينات ضباط الجيش العلويين في المراكز الحساسة، فالجيش مليء بالضباط السنة في كل موقع، من وزارة الدفاع إلى رئاسة الأركان وحتى أكثر رؤساء الفروع الأمنية الذين شغلوا المنصب لم يكونوا علويين بل كانوا ضباطا من السنة. صحيح أنه في المراتب الوسطى هناك عدد كبير من الضباط العلويين، لكن هذا ليس بسبب سياسات تمييزية لمصلحة الضباط العلويين، بل هو بسبب استنكاف الطوائف الأخرى على رأسها الطائفة السنة عن التطوع في الجيش، وهذا الواقع موجود في الجيش السوري، قبل سيطرة الحزب على السلطة وقبل أن يشغل أبي منصب الرئيس بوقت طويل. حاول أبي كثيرا دفع المزيد من الطائفة السنية للدخول في الجيش، لكنه لم يستطع ذلك، لم يكن أحد من السنة يرغب في الدخول للجيش، كانوا يتعففون، حتى أنهم كانوا يتهربون من الخدمة الإلزامية، ويريدون تأديتها في أحضان أمهاتهم. كان العلويون فقراء ويسعون إلى تغيير واقعهم بكل الوسائل

المتاحة أمامهم، لذلك استطاع أبي التأثير عليهم بالمزيد من التطوع في الجيش، وهذه يجب أن تحسب له، لا عليه. الآن، يشكل هؤلاء الضباط النواة الصلبة غير القابلة للكسر في الجيش، هم الذين حموا الوطن من الانقلابات ومن الانشقاقات في الجيش، وكل ضابط متمسك بالدولة والوطن يعتبر علويا، وليس هناك مثال أكثر من زوج أختي الذي طالما اعتبروه علويا، رغم أنه سني، وعندما عرفوا أنه سني، قالوا أنه علوي أكثر من العلويين. صحيح أن عددا من الضباط السنة أصحاب النفوس الضعيفة قاموا بالفرار من الجيش معتقدين أن هذا يجعلهم أبطالا، فذلك الضابط الأحمق الذي أعلن انشقاقه عن الجيش متمردا على الأوامر العسكرية، وفرّ إلى تركيا، استعدناه بعملية أمنية من هناك، وعرضناه ذليلا على شاشة التلفزيون. فلا هو ولا غيره من الضباط أصحاب النفوس الضعيفة استطاعوا أخذ وحداتهم القتالية معهم وقيادتها في علميات ضد جيشها أو تجنيدها ضد الدولة والوطن. لذلك لم يكن أمامهم سوى خيار فرارهم الفردي إلى تركيا، والسبب في ذلك هو وجود كثيف للضباط العلويين الأوفياء للوطن في كل الوحدات العاملة في الجيش. نعم لقد حموا الجيش من الانشقاق وحموا الوطن وما زالوا يحمونه من

المؤامرة. لقد استطاع أبي رفع الظلم عن العلويين جزئيا بمنحهم أعمال تتناسب مع كفاءاتهم، وهذا ما جعلهم يلتفون حوله وحولي بعد ذلك، لكن لا أبي ولا أنا كنا طائفيين يوما من الأيام، لقد كنا رؤساء لكل السوريين بلا تمييز، فالعلويون إلى اليوم وبعد ما يقرب من نصف قرن ما يسميه البعض «حكم العلويين» ما زالوا الأكثر فقرا في البلد.

٨

منصب الرئاسة لا يرحم، عليك أن تفعل كل شيء بنفسك، الكل يلجأ إليك في الصغيرة والكبيرة لحلها، لا أحد يريد أن يعمل، الكل ينتظر أن أحل له المشاكل. وأنا منذ وصلت إلى موقع الرئاسة لم أهدأ يوما. كنت ألوم أبي، بأنه لا يأخذ إجازة من العمل، وعندما كنا نذهب إلى البحر، يأخذ عمله معه، لا يتوقف عن العمل طوال الوقت، استغرب أن العاملين معه أيضا لا يستريحون في يوم العطلة ونادرا ما يأخذون إجازة. كنت أقول لنفسي قبل وفاة أبي، عندما أشغل هذا المنصب، سوف أجعل العطلة مقدسة، فعلى الجميع أن يرتاح بعد أسبوع عمل شاق. منذ الأسبوع الأول لي في المنصب، اكتشفت أن صورة كل شيء تختلف، وليس العطلة فقط. فأنت من هذا الموقع لا تستطيع الاستراحة أو التراخي، حجم العمل الذي ينتظرك أكثر من قدرة البشر على الاحتمال، لذلك لا يمكن الاستمتاع بالعطلة، لذلك عليك التعويض بتحويل العمل ذاته إلى متعة، أو الهرب منه

لبعض الوقت، هذا الممكن الوحيد، في المنصب الذي على الرجل فيه أن يحل كل مشاكل البلد، حيث يلجأ الجميع إليه، وهو لا يجد من يلجأ إليه.

عندما وصلت إلى المنصب، أصابني الذهول من حجم العمل المتراكم الذي تركه أبي مهملا في السنوات الأخيرة من حياته، لم يكد يقوم بأي شيء سوى ترتيب عملية خلافته. فالكثير من الأشياء البسيطة التي يستدعيها المنصب، لم يكن يقوم بها، ليس أولها توقيع المراسيم والاتفاقيات التي تنضم إليها البلد، وليس آخرها استقبال السفراء الأجانب لاعتمادهم، أو تعيين بدلاء عن سفرائنا الذين انتهت مهمتهم في الدول الأخرى، حتى وصل عدد سفرائنا المعتمدين في البلدان الأخرى إلى رقم متدن جدا، ستة سفراء معتمدين من الرئيس فقط، في كل البلدان التي لنا فيها سفارات، وغيرها الكثير من الأعمال المتراكمة المتراكم. أكثر من ألف قانون ومرسوم وقرار وقعتها في السنة الأولى لي في المنصب.

هذا النوع من العمل الإداري كان أسهل الأعمال، الأصعب هو اتخاذ القرارات في أحداث متلاحقة عاشتها المنطقة. لم نكد نفرح بتحرير الجنوب اللبناني من الاحتلال

الإسرائيلي وانتصار المقاومة بعد عمل طويل وشاق، حتى توفي أبي بعد أسابيع. لم أكد أعرف وأطل على تفاصيل المنصب الذي وصلت إليه، حتى وقعت التفجيرات في مبنى التجارة العالمي في نيويورك، وكان علي أن ارسم طريقا للتعامل مع هذا الوضع، أين يجب أن تقف سورية في ظل العلاقات السيئة مع الولايات المتحدة الأميركية. عندما دخل مدير مكتبي وقال: «يا سيدي، من الضروري أن ترى هذا.» وفتح جهاز التلفزيون، حيث كان الدخان يتصاعد من البرج الأول لمبنى التجارة العالمي في نيويورك، وعلى الجانب الأيمن أعلى شاشة التلفزيون كتبت كلمة «مباشر» سألت بذهول: «ما هذا؟» بدأ يشرح «أن الأخبار تقول، أن طائرة ركاب كبيرة اصطدمت بمبنى التجارة العالمي في نيويورك، والتقديرات تقول أنه يمكن أن يكون هذا عملا إرهابيا»... وأنا أنظر شاشة التلفزيون، أتت طائرة ركاب ثانية من بعيد، واصطدمت بالمبنى الثاني لمركز التجارة، انفجارها أحدث كتلة هائلة من اللهب أحاطت المبنى. ساد الصمت في المكتب، الهاتف يرن، أنظر إلى مدير المكتب، وهو ينظر لي، دون أن يقول أي منا أي كلمة. كان المشهد صادما، آتي من أفلام الرعب الأميركية وليس من الواقع النيويوركي.

فهمت تماما كيف أن الرئيس الأميركي نفسه، وقع في حالة ذهول ولم يدرك ما الذي يجري عندما نقلوا له الخبر وهو في زيارة لمدرسة أطفال. طلبت فورا حضور نائب الرئيس ووزير الخارجية ومدير مكتب الأمن القومي ورئيس شعبة المخابرات العسكرية وطلبت منهم درس الوضع وكيفية التعامل معه بأسرع وقت. لم أتردد في تحديد الموقف الأولي باتجاه إدانة كل أنواع الإرهاب، والذي اختبرناه قبل الولايات المتحدة، عندما كانت هي الجهة التي تدعمه، فلا نستطيع أن ندعمه حتى عندما يرتد عليها. وطلبت اجتماع اللجنة الأمنية العليا، وطلبت منهم إجراء الدراسات السريعة، والعودة إلى الملفات الأمنية لأعضاء القاعدة المعتقلين عندنا والمتواجدين في أي مكان ونملك معلومات عنهم وتجديد كل قواعد البيانات بشأنهم، وإعادة التحقيق مع الموقوفين بتهمة الانتماء لهذا التنظيم، لرسم صورة جديدة لواقع التنظيم. بعد عملية بهذا المستوى، تغيرت قواعد اللعبة، ليس في منطقة تواجدهم في أفغانستان، بل تغيرت قواعد اللعبة في العالم أجمع، كنت أقدّر ذلك منذ الساعات الأولى للحدث في نيويورك. فالولايات المتحدة تبحث عن عدو جديد منذ انهيار الدول الاشتراكية، ها هي تجد عدوها، يقدم لها نفسه على طبق من ذهب،

صحيح أنه هلامي، لكنه يشكل خطرا على الولايات المتحدة ويوقع ضحايا في قلب أميركا، مدينة نيويورك، لذلك سرعان ما أعلنت الولايات المتحدة الحرب على الإرهاب، وأنها ستلاحقه أينما وجد وفي أي دولة في العالم. مبكرا أمرت كل الأجهزة الأمنية بالتعاون مع الأمريكيين في هذا الموضوع، علينا في كل الأحوال تجنب تصنيفنا كعدو من قبل الولايات المتحدة في مثل هكذا وضع. وقد جرى هذا التعاون على أحسن وجه، حتى أن الرئيس الأميركي اتصل بي وشكرني على المساعدة التي قدمتها سورية إلى الولايات المتحدة بعد أحداث نيويورك. والعديد من المسؤولين الأميركيين اعترفوا بأهمية المعلومات التي قدمتها سورية، التي مكنت من إحباط هجمات إرهابية على أهداف أميركية، ما أنقذ حياة الكثير من الأميركيين. لكن أميركا الجريحة، كانت مثل الفيل في محل الخزف، تضرب يمينا وشمالا، وعلى العالم أن يدفع الثمن في ظل وجود المتشددين والمتصهينين من المحافظين الجدد في الإدارة الأميركية. لم تكن العلاقة مع الأميركيين على ذات السوية، كانوا يأخذون علينا، أننا ندعم الإرهاب، وفي الحوارات معهم، كنا نقول يجب التمييز بين الإرهاب

ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين. لم يقتنعوا بهذا التمييز بين الإرهاب ومقاومة الاحتلال، لذلك اعتبرونا دولة مارقة وداعمة للإرهاب. طبعا، لا أحد يستطيع الوقوف في وجه أميركا، وإذا كان لا بد من المواجهة، فيجب ألا تكون مباشرة، لأن الولايات المتحدة قادرة على طحن أي طرف معادي لها في أي مواجهة مباشرة، ولأنها جريحة، بالتأكيد عدوانيتها ستزداد. لذلك، لم تكتفِ بإطاحة طالبان واحتلال أفغانستان، فهو هدف أصغر من أن يستحق الجهد من العملاق الأميركي وأصغر من أن يشفي الغليل الأميركي للانتقام. حددت الإدارة الأميركية العديد من الدول التي تشكل خطرا على الولايات المتحدة، وأعطت لنفسها الحق بالعمل في هذه البلاد دون الإذن من أحد ودون أخبار أحد، حتى الدول نفسها التي يمكن أن تجري العمليات الأميركية على أرضها، وحتى لو كانت دولة صديقة وحليفة للولايات المتحدة، ولا حتى إلى موافقة الأمم المتحدة ذاتها. بعد تفجيرات نيويورك تحولت الولايات المتحدة إلى دولة خطيرة جدا، وإذا كان في الظرف العادي لا يمكن الوقوف في وجهها، سيكون من الجنون الوقوف في وجهها وهي جريحة. لذلك، أمرت بكل التسهيلات، حتى عندما سلمونا المواطن

الكندي من أصل سوري، كل الاعترافات التي انتزعناها منه سلمناها لهم، والكثير من المعلومات التي بحوزة أجهزتنا الأمنية عن «القاعدة» تم إبلاغهم بها في التعاون الذي جرى بعد أحداث نيويورك. لكن يبدو أن الإدارة الأميركية لم تكن مقتنعة أن الإطاحة بطالبان واحتلال أفغانستان يكفي لتلقين العالم درسا بأن الاعتداء على الولايات المتحدة ثمنه غاليا. وكانت صعوبة المهمة الأميركية تقوم على أن الذين قاموا بالعملية، إذا كانوا هم فعلا من قام بها، فلا يمكن توجيه ضربات كبيرة لهم، كونهم منتشرين في كل مكان، وليس لهم مراكز ثابتة لضربها، وأن اغتيال شخص هنا وشخص هناك، لا يمكن اعتباره ردا من قوى عظمى. كما أنها لم تستطع الوصول إلى زعيم القاعدة، الذي بقي متخفيا عشر سنوات في ظل ملاحقة أميركية ساخنة، ولم تستطع الإدارة التي حدثت التفجيرات في ولايتها الوصول إليه، رغم أن الرئيس حكم ولايتين، وبقيّ زعيم القاعدة متخفيا، حتى استطاعت الإدارة اللاحقة من الوصول إليه وقتله في باكستان. عشر سنوات كاملة احتاج رجل تلاحقه الولايات المتحدة بكل إمكانياتها لأن تتمكن الدولة ذات القدرات الهائلة من قتله.

لم تكتفِ الولايات المتحدة بأفغانستان، كان عليها أن تخترع معركة أخرى ردا على الإرهاب، فاختارت هذه المرة العراق، بحجج باهتة، لم يقف أحد معها في هذه المعركة، رفضت حتى السعودية وتركيا استخدام أراضيها لعبور القوات الأميركية لاحتلال العراق. رغم فهمنا للجرح الأميركي، ما كان ممكنا الوقوف مع أميركا في حربها الفائضة عن الحاجة في العراق. حاولنا مع آخرين ثني الولايات المتحدة عن هذه الحرب، دون أن يستطيع أحد أقناعها في العدول عن هذا المسار. تم فبركة أدلة عن أسلحة دمار شامل يخفيها العراقيون وعن علاقة مفترضة للقيادة العراقية مع تنظيم القاعدة، وقد ساهمت بريطانيا في هذه الفبركة، تحديدا رئيس الوزراء الأسبق. معارضتنا للحرب، جعلت أميركا تتهمنا، بأننا نخفي في أرضنا أسلحة دمار شامل تعود ملكيته للعراق، وأننا نخفي أموالا عراقية ونهرب نفطا عراقيا. كل ذلك من أجل المس بموقفنا الرافض للحرب الأميركية على العراق. وعندما اشتعلت الحرب، كان قراري واضحا، إننا سنستقبل اللاجئين العراقيين العاديين بوصفهم أخوة لنا، لكننا لن نستطيع تحمل استقبال قادة عراقيين في سورية، والقادة الذين دخلوا سورية من العراق أثناء الحرب،

طلبنا منهم المغادرة فورا، بما فيهم ابن الرئيس العراقي. صحيح أننا لم نكن قادرين أن نقف مع العراق علنا، لكن حاولنا بقدر ما نستطيع أن نساعدهم في الصمود في وجه الحرب وحتى الإعداد لها، فقدمنا لهم تسهيلات بأن يصل إليهم بعض المواد التي كانت ممنوعة عنهم بحكم العقوبات المفروضة على العراق من قبل الأمم المتحدة. طبعا كان المعركة بين الولايات المتحدة والعراق محسومة سلفا، لم يكن هناك وهم عند أحد أن العراق يمكن أن يصمد في هذه المعركة في وجه العاصفة الأميركية. كل ما عملناه واشتغلنا عليه، هو محاولة تعقيد المهمة الأميركية في العراق. لأننا كنا نعتقد أن النجاح الكامل والسهل في العراق يغري أميركا في استكمال حربها علينا. وهذا الكلام تردد كثيرا في ذلك الوقت في أوساط الإدارة الأميركية ذاتها. لذلك كان من بين الأشياء التي قمنا بها، تسهيل وصول المتطوعين لمحاربة الأمريكيين في العراق بصرف النظر عن انتماءاتهم الأيديولوجية، على أن لا يبقوا على الأراضي السورية وقتا طويلا، وأن يغادروا إلى العراق بسرعة. وكنا نعرف أن بينهم الكثير من الإرهابيين الذي ينتمون للقاعدة أو يدورون في فلكها، لكن طالما أنهم قادمون للذهاب إلى

العراق لم نكن نقف في طريقهم، بل كان في مقاومتهم للاحتلال الأميركي في العراق، وتعقيد مهمته هناك خدمة لنا، وهو ما شكل حاجز صد حتى لا يتمدد العدوان الأميركي إلينا. كما أن التعاون غير المباشر كان مهما لمعرفة طبيعة هذه الجماعات وتركيبتها، وجمع معلومات أكثر عنهم، وتجنيد أناس منهم، للاطلاع على أوضاعهم الداخلية. لم نكن وحدنا الذين عطلنا العملية الأميركية في العراق، فقد أرتكب الأميركيون الكثير من الأخطاء هناك، ما جلب عليهم غضب الشعب العراقي، ونحن ساهمنا بدورنا في إفشال الاحتلال الأميركي للعراق، دون أن نعلن ذلك، وعندما كانت أميركا تتهمنا بتسهيل دخول الإرهابيين إلى العراق، كنا ننفي التهمة عن أنفسنا، ونقول أن الإرهابيين عدونا التاريخي، كيف نتعاون معهم. نحن كنا قلقين من السياسة الأميركية في ما بعد النجاح في احتلال العراق، لقد عبرت وزيرة الخارجية الأميركية عن سياسة جديدة في المنطقة، تعيد النظر في دعم الأنظمة فيها، التي اعتبرت الوزيرة أنها كانت سياسات أميركية خاطئة، مما أخاف الجميع في المنطقة. لسنا وحدنا الذين كنا خائفين، بل حلفاء أميركا كانوا أكثر خوفا منا من تغيرات السياسة

الأميركية التي جاءت بعد أحداث ١١ أيلول وتحولات نظرتها للمنطقة. فعمل الجميع بشكل غير مباشر على إفشال السياسة الأميركية في العراق خوفا من انتقال الدور عليهم. فعلنا كل ما في وسعنا لإفشال الاحتلال الأميركي للعراق، دون أن نتسبب بصدام مباشر مع الولايات المتحدة، ودون أن نعطيها المبرر في الهروب إلى الأمام بعدوان جديد على سورية. لذلك كنا نوافق على كل المطالب الأميركية في الاتصالات المباشرة معهم، وهذا ما بلغته شخصيا لوزير خارجيتهم عدة مرات، أننا مع كل ما يطلبوه منا بشأن العراق وإغلاق الحدود معه حتى لا يستمر تدفق الإرهابيين، ولكننا في الواقع هناك سلوك آخر، ولنا حجة قوية فيه أن الحدود طويلة لا يمكن مراقبتها، وتمنينا عليهم التعاون معنا وتزويدنا بأجهزة رؤية ليلية من أجل الحد من تسلل الإرهابيين عبر الحدود، لكنهم رفضوا ذلك. فقد كان اللغة الأميركية التي حملها المسؤولون الأميركيون إلى دمشق، لغة تهديدية، وهي اللغة التي كان خاطبوا بها العالم كله في ذلك الوقت، بما فيهم حليفتهم أوروبا التي وصفها وزير الدفاع الأميركي بـ«القارة العجوز».

اعتبر البعض أن عليه أن يستثمر لحظة الضعف السوري القائمة بفضل التهديدات والضغوط الأميركية، وأنه بات عليهم الاستفادة من الوجود الأميركي المباشر في المنطقة لحمايتهم وإيذاء سورية، واعتبرها المليارديير ورئيس وزراء لبنان الأسبق اللحظة مواتية للعمل ضد وجود جيشنا في لبنان. أخذ يعمل سرا مع الفرنسيين والأميركيين من أجل الضغط علينا بكل الوسائل لوقف ما كان يعتبره تدخلا سوريا سافرا في لبنان، وصلتنا الكثير من المعلومات عن تآمره حتى عن طريق مقربين منه. فقد بات واضحا أنه يعمل ضدنا في لبنان دون إعلان، وعمل بلا كلل من أجل صدور قرار مجلس الأمن الخاص الذي يقضي بخروج ما تبقى من قوات أجنبية في لبنان، ومقصود فيه خروج جيشنا من هناك. أخذ صوته يعلو بعد ذلك معارضا سياستنا في لبنان. وعندما قرّرنا تمديد فترة ولاية الرئيس اللبناني، عمل ضد رغبتنا، ووظف كل قوته ضد هذه التمديد، الذي كنا نراه الخيار الأفضل للبنان في ظل الظروف الخطرة التي كانت تمر بها المنطقة. تحدث وقال علنا، أنه سيقطع يده قبل أن يوافق على التمديد للرئيس اللبناني، بذلك وصل التصعيد معنا إلى ذروته. وعندما استدعيته للقاء ثنائي، كان من الواضح أنه يشعر بالقوة،

واعتبر أن من وراءه قادرين على دعم خياراته، لذلك قال أنه لن يكون رئيسا للوزراء في حال التمديد للرئيس الحالي، ما يعني بشكل واضح أنه ضد الخيار السوري في لبنان. وعندما سألته غاضبا: «لماذا تعارض التمديد؟!» قال: «أنه لا يرى التمديد للرئيس هو الخيار المناسب للبنان. فهناك مرشحون أفضل منه، لا يقلون قربا من سيادتكم.» وعندما قلت له: «أنه خياري. فأنا أرى اليوم أنه الخيار الأفضل في لبنان.» قال: «أحترم خيارك سيادة الرئيس، ولكن هذا ليس في مصلحة لبنان. وأنا شخصيا لا أستطيع العمل مع هذا الرجل.» قلت بانفعال: «ومن الذي يعرف مصلحة لبنان أنت؟!» لم يجب أكملت: «عليك أن تعرف أن لا شيء يخفى علينا، وأننا نعرف كل تحركاتك، وإذا كنت تعتقد أن حلفاءك يكمن أن يحموك في لبنان، تكون مخطئا.» قال وقد بدا التوتر عليه: «هل هذا تهديد يا سيادة الرئيس؟» قلت: «افهمها كما شئت، سأقول لك شيئا واضحا، أن التمديد للرئيس قادم شئت أم أبيت، ولن أسمح لأحد بتعطيل هذا الخيار، وسأقطع اليد التي ستحاول منع هذا التمديد. وإذا قاومت هذا الخيار سأحطم لبنان على رأسك.» لقد وصل التوتر أوجه، ظهر الخوف على وجه الرجل وأخذ أنفه ينزف دما بفعل ارتفاع

ضغط دمه، أخذ عدة محارم من العلبة الموجودة أمامه ومسح دمه. طلب الإذن بالمغادرة، لأنه لا يشعر نفسه على ما يرام، ولم يعد هناك ما يستطيع التحدث به، فأذنت له وقلت: «سلامتك، إن شاء اللّٰه تكون في أحسن حال في جلسة التصويت على التمديد.» وصلت الرسالة، وفي جلسة التصويت، حضر الجلسة، وصوت مع التمديد، بيد مكسورة أو ادعى أنها مكسورة، من أجل وعده، لكنه قال في جلساته الخاصة بعد ذلك: «صوت مع التمديد للرئيس حتى لا ينفجر لبنان.»

لم يتوقف الرجل عن العمل ضدنا، وعندما أخبرني القادة الأمنيون أن نشاط الرجل لم يعد مزعجا فحسب، بل بات خطرا أيضا. قلت لهم: «آن الأوان لهذا الرجل أن يختفي.»، بعد أشهر تم اغتيال الرجل بعبوة ناسفة كبيرة، وفورا وقوع عملية الاغتيال، تم توجيه أصابع الاتهام لنا، في عملية، يمكن أن يكون أي طرف قد قام بها. في الاغتيال السياسي تستطيع توجيه الاتهام لأي أحد أو جهة، ويكون الاتهام سياسيا، لكن في التاريخ نادرا ما عُرف من يقف فعليا وراء عمليات الاغتيال السياسي. فهو دائما فعل بلا فاعل، وعندما يتم القبض على الفاعل المباشر، الفاعل الأداة، فإنه من الصعب

أن تعرف الطرف الذي أنجزت المهمة لمصلحته، لذلك تبقى الاتهامات في المسؤولية عن الاغتيال ذات طابع سياسي. كنت أتمنى أن يغيب الرجل من الوجود، لكن لم آمر مباشرة في اغتياله. وباتت عملية التحقيق في اغتيال الرجل بمثابة عمل سياسي وظف ضدنا، وليس عملا قضائيا لكشف الجاني الحقيقي، كما تم استثمار اغتيال الرجل من قبل الأطراف الدولية المعادية لوجودنا العسكري في لبنان، بحيث اعتبر الاغتيال مبررا لتهديدنا بكل العواقب ما لم يتم سحب قواتنا المسلحة من لبنان تنفيذا للقرار الدولي الذي عمل الرجل عليه قبل اغتياله. لقد وجد الأمريكيون في عملية اغتيال الرجل فرصة مناسبة للمطالبة الفورية في سحب قواتنا من لبنان وتم تحريك عملائهم في لبنان بمظاهرات استعراضية واسعة احتجاجا على وجودنا العسكري هناك للضغط علينا من أجل سحبها. وقد بلغت أنا شخصيا المبعوثين الأميركيين، أننا لسنا وراء اغتيال الرجل، وأن عملا أحمق كهذا بمثابة «انتحار سياسي» بالنسبة لنا، لا يمكن أن نقوم به، وقد قلت هذا علنا، وقلت، لبنان ما زال بحاجة إلى وجود قواتنا لحمايته، وللحفاظ عليه من الفوضى، وأمن لبنان من أمن سورية، لكنهم صموا آذانهم، وكان هدفهم الأساسي

الحدود السورية ـ العراقية والتسلل عبرها، وأخبرتهم أننا لا مانع لدينا من التعاون معكم في هذا الموضوع، لكن حدود طولها أكثر من ٥٠٠ كلم من الصعب مراقبتها، دون أجهزة تقنية حديثة وأجهزة رؤية ليلية غير موجودة عندنا، عدت مرة أخرى وطلبت منهم تزويدنا بها لمراقبة حدودنا مع العراق. كل هذا دون جدوى، كان الهدف الأميركي واضحا، وتوقعت ذلك قبل الاحتلال الأميركي للعراق. لقد قال الأميركيون، أن الهدف التالي بعد العراق سيكون سورية، وقلت هذا الكلام علنا أيضا. عندما أبلغنا المبعوثون الأمريكيون أن مسألة خروجنا من لبنان لم تعد تحتمل التأجيل والمراوغة، وأن علينا اتخاذ قرارنا بسرعة فالوقت ينفذ منا، شكل ذلك إذنا بالإعداد للعدوان على سورية، وقد ترافق ذلك مع تصريحات واضحة لوزيرة الخارجية الأميركية، أن كل الخيارات مفتوحة بما فيها العمل العسكري للتعامل مع سورية. أصبح لازما معرفة ما يمكن عمله، وقد دعوت لعدة اجتماعات تشاورية داخلية من أجل الرد على الموقف الأميركي. وقد سمعت الكثير من الآراء، وكان أكثرها خبثا، ما قاله نائب الرئيس الفار: «أننا أخطأنا في لبنان، كنا نستطيع تجنب هذا الموقف، من خلال عدم الإصرار على

التمديد للرئيس اللبناني وانتخاب رئيس جديد، وهذا ما جعلنا نخسر الكثير من الأصدقاء في لبنان. بصرف النظر عن الجهة التي اغتالت رئيس الوزراء اللبناني السابق، إلا أن العملية كلها تم توظيفها ضدنا ونحن اليوم يجب أن ندفع استحقاق هذا الحدث السياسي. وأعتقد أننا اليوم علينا إتباع الإستراتيجية التي طالما عمل عليها والدكم بشأن العلاقة مع الأميركيين، بالعمل دائما على تجنب أي مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة، ونحن لم نضع أنفسنا في مواجهتهم، هم قرروا أن يقفوا في مواجهتنا مباشرة، ولذلك علينا أن نتجنب هذه المواجهة، التي لا نستطيع أن نُقدّر إلى أين يمكن أن تصل.» دافع نائب الرئيس عن خيار أقرب إلى خيار صديقه الذي تم اغتياله، وكنت أشك بأن النائب شجع الرجل على تحدي خياراتي في لبنان، فما زال الرجل حاقدا على طريقة التعامل معه عند وفاة والدي، حيث تم التعامل معه كمعتقل مهان لحين انتهاء عمليات التي أدت أن أتولى منصب الرئاسة. شخصيا لم أكن أرغب ولم أعلم أن الرجل تمت معاملته بهذه الطريقة المهينة، وفيما بعد اعتذرت منه على الفجاجة التي تم التعامل معه بها، وأعدتها إلى حالة التوتر التي أصابت الجميع وقت وفاة أبي. لكنه استمر يحمل أحقاده التي بقيت

تحركه، ظهر رأيه كأنه دفاع عن البلد ومحاولة تجنيبها مواجهة ليس لها طاقة بها. آراء الآخرين كانت متباينة مدير المخابرات كانت له وجهة نظر أخرى، أننا نستطيع أن ندير المواجهة في لبنان دون أن نعرض البلد للخطر، وسبق أن حصل ذلك في الثمانينات، وبقيت الصدامات محصورة في لبنان، وأننا في نهاية المواجهة وفي أسوأ الحالات ستكون النتيجة الانسحاب من لبنان، وهي ذات النتائج، وحتى لو كانت الأهداف الأميركية أكبر من ذلك، فإننا على الأقل نعيقها في لبنان أولا ، قبل أن تتمدد إلى سورية. وزير الخارجية، كان له رأي مختلف، أن الهدف هذه المرة هي سورية والحديث عن الوجود العسكري هناك، هو مجرد ذريعة لتبرير المواجهة مع البلد. وقال أنه يعتقد أن أفضل خيار، نزع المبررات لأي عدوان علينا، وتجنب المواجهة، خاصة وأن التهديدات تستند إلى قرار اتخذ في مجلس الأمن، أي مغطى بشرعية دولية. وبالتالي تبدو أميركا في عدوانها علينا بوصفها منفذا للشرعية الدولية. وزير الداخلية الذي طلبت الاستماع إلى رأيه كونه قضى سنوات طويلة في إدارة الوضع الأمني في لبنان. كان الرجل يعتقد أن السنوات الطويلة من وجودنا في لبنان أمنَّت لنا شبكة من العلاقات في كل دوائر الدولة والمجتمع

اللبناني، يمكن اعتبارها نواة صلبة لا يمكن كسرها في العلاقات مع لبنان، أكيد هناك علاقات انتهازية، لكن هناك الكثير من اللبنانيين ارتبطت مصالحهم بسورية، وقال أنه لا يقصد بذلك حزب الله فهو مسألة محسومة في العلاقة الثابتة مع لبنان، لكنه كان يقصد الآخرين، ويقصد أن النفوذ السوري في لبنان يتعدى الوجود العسكري، وسنبقى أقوياء في لبنان، حتى لو انسحبت قواتنا من هناك. استمعت إلى الجميع وكان علي اتخاذ القرار. بالتأكيد، المواجهة خاسرة وذلك يعني العمل على تجنبها، وتجنب المواجهة المباشرة لا يعني التسليم بما يريد الطرف الآخر من الصراع ولا يعني الاستسلام، يمكن تجنب المواجهة وإبقاء الصراع على أوجه باستخدام أدوات أخرى. اتخذت قراري بسحب قواتنا من لبنان، ولترى أميركا ما يجري في لبنان دون القوات السورية الموجودة هناك. ما إن انسحبت القوات السورية، حتى جرت مجموعة من الاغتيالات لرجال سياسة وإعلام، أفقدت لبنان كل الأمان الذي وفرته له القوات السورية. بسحب القوات السورية من لبنان، نزعتُ أي مبررات لعدوان أميركي أعد لضربنا، وباتت أي ضربة أميركية لنا عارية من أي شرعية دولية وتعتبر عدوانا صارخا لا يمكن تغطيته سياسيا.

بعد ذلك، تبين أن المؤامرة علينا أكبر من قرار يُعد في مجلس الأمن، ومتورط بها العديد من الأشخاص. تبين هذا بعد هروب نائبي من البلد، وإصراره في السر والعلن أنني شخصيا من هدّد بشكل مباشر رئيس الوزراء اللبناني الأسبق وأعطى الأوامر باغتياله. وهناك وجه داخلي للمؤامرة تمثل بالإعداد لانقلاب عسكري يطيح بي شخصيا، على أن يؤمن نائب رئيس الجمهورية تغطية الانقلاب سياسيا بمساعدة رئيس الوزراء اللبناني الأسبق، وأن يتولى وزير الداخلية ترتيب الوضع في الجيش لأن له صلات واسعة مع ضباط الجيش، حيث كان واحدا من ضباطه، وله سمعه جيدة بين ضباط الجيش وفي الطائفة العلوية كونه ينتمي إليها. من الواضح أن الرجل لم يستطع أن ينجز أي تقدم في الجيش على هذا الصعيد، والنائب دبّ فيه الخوف بعد اغتيال صديقه في لبنان، ما أفشل المؤامرة بشكل مباشر، وهذا ما جعله يعد العدة للهروب في أقرب وقت، وعندما توفرت له الفرصة بعد أشهر قليلة من الانسحاب من لبنان، لأنه كان متأكدا أن المؤامرة ستتكشف عاجلا أم آجلا، وهو ما لا يمكن التسامح معه من أي شخص كان، لذلك فضل الهرب والنجاة بجلده. ترك صديقه وزير الداخلية وحيدا في البلد، ومع

انكشاف جزء من الاتصالات التي أجراها وزير الداخلية مع بعض الضباط في الجيش، لم يعد هناك مجال للتسامح. اتخذت قراري لن تخرج هذه القصة للعلن ولن نتحدث عن مؤامرة على الإطلاق، سندفن القصة في مكانها، وعلى الرجل أن يغادر الصورة دون ضجيج، فكان أن دُفع الرجل إلى الانتحار، وتم طي الملف دون الحديث عن المؤامرة التي حكيت بين الثلاثة، اثنان منهما رحلا عن الحياة، والثالث فرّ من البلد.

التآمر على البلد لم يتوقف، ليس منذ وصولي إلى الرئاسة، بل منذ استقلال البلد، وهي عرضة للمؤامرات المتكررة داخليا وخارجيا، وهذا لم يتوقف سوى عندما أمسك أبي بالسلطة وأنجز الاستقرار في البلد بالقوة، رغم أنه اعتمد سياسة الترهيب والترغيب، لكن تحت هيمنة القوة. أوقف أبي الفوضى في البلد وصنع دولة حقيقية، صحيح أنها تتمركز حوله بوصفه الرئيس، لكنها في النهاية دولة مؤسسات. وما أوقفه أبي من مؤامرات صغيرة ودنيئة للوصول إلى السلطة، أخذت تطل برأسها من جديد. كما أن أبي لم يكن ليسمح بذلك، كان عليّ أن أضرب هذه المحاولة على تواضعها بيد من حديد، ليفهم الجميع من هو سيد البلد.

استمر التآمر الذي بدأ من لبنان داخل سورية، متخفيا بشعارات ومطالب تبدو محقة، لكنها تخفي بنية إرهابية متشعبة تسعى إلى تدمير البلد وتهديم الدولة، وهذا ما تكشف مع الوقت، من خلال تصدير الإرهابيين من كل العالم إلى بلدنا، في إطار مؤامرة هدفها الأول تدمير البلد وزرع الفوضى فيه من خلال الإطاحة بالسلطة الشرعية، لتعود البلد إلى حالة فوضى أسوأ من السابق بكثير، أن تتحول البلد عنوانا للفشل، بعد النجاحات التي حققتها في عهدي وعهد أبي من قبلي.

٩

دائما، الرجل الأول في السلطة مشغول ومقيد جدا، حفاظا على صورته وهيبته أمام الآخرين، فتطغى الرسمية على كل علاقاته تقريبا. لذلك، هو بحاجة إلى علاقة إنسانية خارج العلاقات الرسمية التي تحيط به، علاقة تشعره أنه متحرر من الضوابط والقيود الرسمية، علاقة تخصه وحده دون الآخرين وبعيدا عن مناصبه، علاقة إنسانية مجردة، لا يريد الطرف منها الآخر سوى أن يكون معه لشخصه، لا يحتاج حل مشاكل عالقة، وليس له طلبات بحاجة إلى تلبية، إنه متعلق بك شخصيا وليس بالمنصب. في المنصب الأعلى في البلد، يشعر المرء أن كل شيء ضاغط عليه، المسؤوليات، الطلبات، القرارات، العائلة، المسؤولون... الخ. ولا يستطيع الهروب منه، فلا أحد يستطيع أن يحل مكانه. يزداد ضغط المنصب مع الشعور أن كل شيء حولك مزيف، متطلب،

متملق، مدعي... الخ. ما يزيد من إحساس الوحدة القاتل ويزيد الحاجة إلى شيء حقيقي في حياة تكسر روتين اليومي. أسوأ شيء في هذا العالم أن تشعر نفسك وحيدا وغير قادر على التواصل مع الآخرين، بوصفك كائنا بشريا من لحم ودم ومشاعر، وليس منصبا يلبي الحاجات والطلبات، وليس هناك أحد من الذين حولك يستطيع إخراجك من هذه الوحدة التي تشعر بها بين الناس أكثر مما تشعر بها عندما تكون لوحدك في غرفة مغلقة. في هذا المنصب، تستطيع أن تفعل أي شيء، أن تأتي بكل شيء، أشياء ساحرة يمكن أن يأتي بها المنصب، يمنح إحساسا هائلا بالقوة، لكن الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يأتي المنصب به، هو كسر الوحدة مع بشر حقيقيين بلا أقنعة. لأنه لا يمكن كسرها إلا خارج المنصب، الذي كنت أشعر في كثير من الأحيان أنه قيد عليّ لا يمكن الفكاك منه، وهو يبني بيني وبين الآخرين جدرانا عالية. لم أستطع كسرها، حاولت كثيرا، عندما أكسر أنا الجدار، أجد أن الآخرين غير قادرين على كسره، ما يزيدني إحباطا في علاقاتي الشخصية مع الآخرين. لذلك كنت أحتاج بقوة إلى هذه المرأة بالتحديد، أشعر في كثير من الأحيان أني أحتاجها أكثر من أي شيء آخر في العالم،

ليس لأنه لا يوجد نساء أخريات حولي، بالطبع هناك الكثيرات، أنا لست قديسا، لكن الميزة الرئيسية لهذه المرأة، إنها لم تكن تريد مني أي شيء. أنا متأكد من هذا، ولا يهمها إن كنت رئيسا أم لا، أُهمها أنا شخصيا، ومستعدة أن تفعل كل شيء من أجلي دون مقابل، طبعا، هناك كثيرات وكثيرون يفعلون أي شيء من أجلي، لكن ليس دون مقابل. أشعر أنها الشخص الوحيد الحقيقي في عالمي والباقي كله مزيف.

تعرفت عليها في الجمعية المعلوماتية، لم أكن أتوقع أن تستمر العلاقة طويلا، وجدت نفسي منجرفا وراء العلاقة كنوع من الفضول، ولم أفكر في أن تكون ملجأي في الأوقات الصعبة التي مررت بها.

منذ البداية، أخذت العلاقة طابعا سريا، واستمرت كذلك حتى الآن. عندما كان أبي يؤهلني لخلافته، كنت أتهرب من الحراسة لأجل مقابلتها، وكان التهرب أو ترتيب هذا التهرب من الحراسة في ذلك الوقت أسهل منه وأنا رئيس. هي تعمل مهندسة في الجمعية المعلوماتية، لفتت انتباهي منذ عدت من لندن، وكانت مهتمة أن تبقى بقربي طوال الوقت. لم تخجل أن تقترب مني وتطلب موعدا لمقابلتي «لأسباب

شخصية» كما قالت حينها. ومثل كل المرات، مقابلة أخرى من أجل طلبات أخرى تقدم لي أينما حللت من أجل حلها، فالكل يعتبرني مارد مصباح علاء الدين القادر على حل أي مشكلة وتحويل أي رغبة أو حلم إلى واقع بإشارة من يدي. ليس من السيء أن يعطي المرء وقتا لشخص يعمل معه، ويكون هذا تعبيرا عن تواضع الشخص المرشح ليصبح رئيس البلد بعد حين. ومثل آخرين، أعطيتها موعدا، في الزيارة القادمة للجمعية، سوف يكون هناك وقت أستطيع سماعها. عندما قابلتها في الزيارة التالية، كان اللقاء غريبا جدا. جلست قبالتي في المكتب الخاص بي في الجمعية المعلوماتية وأخذت تتحدث عني وعنها بطريقة غريبة قالت: «أنا أشعر أني قريبة منك جدا، وأنا لا أريد شيئا في هذه الدنيا سوى أن أبقى بالقرب منك، فأنا أشعر أني خلقت من أجلك فقط، ولا شيء أفعله في هذه الحياة، سوى أن أبقى إلى جانبك. إذا قلت إني أحبك، أكون قد عبرت بطريقة سيئة عن مشاعري اتجاهك، أنا أكثر من ذلك، أتمنى يا سيدي أن تبقيني إلى جانبك، لتكن الصيغة ما تكون، لا يهمني هذا. ما يهمني البقاء إلى جانبك فقط. وأتمنى أن تمنحني هذا الشرف الكبير. وليس هذا لأنك ابن الرئيس، بل لأني أرغب في البقاء

إلى جانبك فقط.» فكرت في البداية أنها امرأة أصابها الجنون، حتى تتكلم بهذه الطريقة. لكن بعد قليل، ولأول مرة شعرت أن كلامها يولد عندي إحساسا غريبا اتجاهها، ليس حبا ولا إعجابا ولا رغبة، إنه شيء ما خفي، شيء أقرب إلى رغبة الأطفال في الجلوس في أحضان أمهاتهم، لم أعرف لهذا الشعور تفسيرا. بحكم مكانتي، هناك دائما سؤال روتيني عليّ أن أسأله لكل من يقابلني، فقلت لها: «ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك، هل لديك مطلب معين أو مشكلة بحاجة إلى حل؟» أجابت فورا وبلا تردد: «أبدا، ليس لي أي طلب، سوى ما قلته يا سيدي، طلبي الوحيد أن أراك مرات أخرى. وإذا كان هناك شيء تفعله لي، أن تسمح لي بتقبيلك.» أربكني الطلب المفاجئ، وعندما وقفت مظهرا عدم رفضي للتقبيل، تعلقت برقبتي وقبلتني قبلة عميقة من الفم، شعرت نفسي جامدا ومرتبكا غير قادر على فعل أي شيء وكأني أصبت بالشلل، وهي تتصرف تحت تأثير سحر ما.

عندما تراجعت معتذرة قالت: «أنا آسفة، إن تسببت بإزعاجك.» هززت كتفي نافيا أن تكون قد تسببت بأي ازعاج. اقتربت أنا من المكتب، أخذت ورقة وقلم، وقلت لها:

«أكتبي اسمك الثلاثي ورقم هاتفك هنا.» أخذت الورقة وكتبتْ عليها المعلومات. قالت: «هل تعدني أن نلتقي مرة أخرى؟» قلت ممازحا دون أن أقصد ردا واضحا: «هل نسيت أني مثلك موظف في الجمعية. نحن زملاء ومن الطبيعي أن نلتقي.» اعتبرت هذا بمثابة وعد، خرجت من اللقاء فرحة، دون أن تطلب خدمة محددة مني وكان تصرفا غريبا بالنسبة لي. منذ عودتي من لندن، كل من قابلتهم ، لديهم دائما مطالب محددة أو مشاكل بحاجة إلى حل. للمرة الاولى أقابل شخصا ليس لديه مطالب شخصية.

كان الموقف غريبا. لذلك لم أتردد أن أطلب من المخابرات إجراء دراسة أمنية عن تلك المرأة التي اقتحمت حياتي بهذه الطريقة الغريبة وأن تأتيني بكل تفصيل يتعلق بها، دون إزعاج أحد بأي استدعاءات لفروع المخابرات، ودون أن يشعر أي أحد أن هناك معلومات تجمع عن المرأة. والغريب أكثر، أني أصبحت مشغولا بها في كثير من الأوقات، رغم انشغالاتي الكثيرة، أخذت تحتل حيزا من تفكيري، أثرت عليّ وحركت شيئا غامضا داخلي. اعتبرت نفسي وقعت في الحب في لندن، وحاولت أن أفسر ما يحصل معي بأكثر من طريقة، أنها نزوة عابرة، رغبة الرجل المفضل، حس المغامرة...

لكن أيا من هذه الأسباب لم يفسر الحالة التي أمر بها، مشاعر غامضة تحركت داخلي رغما عني، وأحيانا أشعر أنها تجتاحني.

في لندن تحركت مشاعري ووقعت بالحب بقرار مني، فهناك أن من قرّر الدخول في علاقة حب. أما هنا في دمشق تحركت مشاعري رغما عني، فهي من اقتحم حياتي، ونجحتْ في تحريك مشاعري.

انتظرت معلومات المخابرات، فلا يمكن تمرير مثل هذا الحدث دون تدقيق أمني، فالحوادث الغريبة لا يمكن أن تكون بريئة، وإذا كانت بريئة يجب التأكد من براءتها. ففي موقعي يجب الشك في كل شيء، وليس من السهل منح الثقة للآخرين دون أن يستحقوها.

مرَّت أيام قبل أن يأتيني التقرير بكل التفاصيل المتعلقة بها، وبقيت طوال الوقت أجد نفسي متلبسا في التفكير بها.

لم يكن هناك معلومات مهمة في التقرير الذي يقول: أنها في السابعة والعشرين من عمرها ومن عائلة مسيحية، تسكن في ساحة العباسيين بالقرب من كنيسة سيدة دمشق. وأن والدها ورث البيت عن أبيه، وهو يعمل مدرسا لمادة الرياضيات للمرحلة الثانوية. لا انتماء سياسيا له. أمها تعمل

معلمة للتاريخ في مدرسة في المنطقة ذاتها أيضا، وليس لها انتماء سياسي، وهي قريبة من بعيد للناطق باسم الرئاسة في ذلك الوقت، فهما ينحدران من ذات المدينة. لكن لا صلة بين الناطق وبين العائلة. عندها أخ وأخت، أخوها درس الاقتصاد في جامعة دمشق وذهب إلى أميركا، حيث يقيم في مدينة شيكاغو ويعمل مدرسا في جامعتها بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه هناك، وأختها تعمل في مؤسسة التأمينات الاجتماعية. انتمت إلى حزب البعث لكنها ليست ناشطة حزبيا، درست في مدارس المنطقة وحازت على الشهادة الثانوية التي أهلتها لتدرس هندسة الكهرباء في جامعة دمشق، وقد عملت بعد تخرجها لسنوات في وزارة الكهرباء، وهي تعمل منذ عام في الجمعية المعلوماتية، أي منذ الفترة التي طلبت فيها توسيع الجمعية، لأني قررت أن أعباء أكبر ستلقى على الجمعية في المرحلة القادمة.

وقد رشحها ابن عمها القريب من المدير الفني للجمعية، فانتقلت إلى العمل فيها. ليس لها تاريخ سياسي، هي أيضا حزبية غير ناشطة، حياتها عادية، عاشت تجربة حب فاشلة مع شخص من ديانة مختلفة، وغير ذلك، كلام روتيني عن أين درست الابتدائية والثانوية وغيرها من التفاصيل التي لا

قيمة لها. سافرت مرتين إلى القاهرة ضمن وظيفتها في مؤسسة الكهرباء.

أصدقاؤها وصديقاتها ليس عليهم أية إشارات استفهام، كذلك، أقاربها أخوالها وأعمامها وأولادهم، لا شيء يستدعي القلق. التقرير يقول أنها نظيفة أمنيا، ويبدو أن هذه النظافة جعلتني ارتاب أكثر. فكلفت فرعا آخر للأمن لدراسة وضعها. ولكن وجدت نفسي مشغولا بها أكثر من السابق. لم يأتِ الفرع الآخر بجديد، هي المعلومات ذاتها، لا شيء مريب في حياة هذه المرأة ولا في حياة أهلها. عائلة تهتم بحالها وليس لها اهتمامات أخرى، مثال للعائلة الشامية المسيحية التي تمشي الحيط الحيط كما يُقال. عدت للتفكير بها، ما الذي تريده فعلا هذه الشابة مني؟! ولماذا تَعرض نفسها بهذه الطريقة الغريبة. أصبح لدي فضول شديد لمعرفة ما الذي تريده بالفعل. في الزيارة التالية للجمعية، طلبتها، عندما دخلت مكتبي، كان الفرح والسعادة ظاهرين عليها، عيناها تلمعان بقوة، غير قادرة على ضبط نفسها، يهتز جسدها ولا تستطيع أن تستقر على حالة، ارتجافات جسدها واضحة، لم تعرف الهدوء ولا للحظة، فهي تكاد لا تصدق أنها تقف أمامي مرة أخرى. طلبتُ منها أن

تجلس وأنا أقول: «أنت مهندسة نشطة والمدير يقول إنك من أفضل الموظفين في الجمعية، وفي اللقاء السابق سألتك، إذا كان لك حاجة أو مشكلة بحاجة للحل، ولكن قلت أنك لست بحاجة إلى شيء. اليوم أعيد عليك السؤال، إذا كنت بحاجة لشيء أو عندك أي مشكلة بحاجة إلى حل وخجلت من أن تخبريني بها المرة الماضية، تستطيعين التحدث الآن وأنا أعدك أن أحلها لك.» تغيرت تعابير وجهها، والسعادة التي دخلت بها أخذت بالانحسار، وحلَّ الحزن مكانها، وكأنها لا تصدق ما أقول، واعتبرت كلامي تكذيبا لها ولمشاعرها ويُكذب ما قالته في اللقاء السابق. شعرت أنها نفضت أفكارا مزدحمة في رأسها، وقالت: «لماذا لا تصدقني؟!» سألت: «أصدق ماذا؟» قالت: «أني فعلا لا أريد شيئا منك، غير الكلام الذي قلته في المرة السابقة. أنا لا أعرف كيف أشرح الأمر، لكني سأحاول إذا سمحت لي؟» قلت: «تفضلي. ليس هنا أي مانع. اشرحي بالطريقة التي تعجبك وأنا سأستمع.» قالت: «فعلا، لا أعرف كيف أشرح مشاعري تجاهك. سألت نفسي ألف مرة، ما الذي تفعلينه؟ وماذا يعني هذا؟ أي جنون تقومين به؟ وعدت إلى السؤال المرة بعد المرة، وكل مرة أجد نفسي أغرق في الأمر أكثر. لم يكن هناك

سوى جواب واحد: هو أني أحبك، كيف ولماذا؟ لا أدري، ولا أملك جوابا، شيء أقوى مني دفعني بقوة بهذا الاتجاه رغما عني. هي مشاعر من طرف واحد، نمت وكبرت دون أن تكون هناك أي فرصة للقائك، وهمٌ لا أعرف من أين أتاني، كان يمكن أن يبقى وهما ويموت. لم أحاول يوما أن أجعله حقيقة. كنت قانعة بهذا الوهم، ولم أفكر يوما أنه يمكن أن يتحول إلى حقيقة واقعة. لا أريد شيئا سوى البقاء قريبة منك، ومستعدة لدفع أي ثمن. كنت قانعة بعلاقة من طرف واحد، لطالما حلمت بها، لم يكن لدي مشكلة. وعندما عملت في الجمعية، كنت سعيدة جدا، هذا المكان وفر لي إمكانية لقائك، واعتبرت أن يد القدر تدخلت لتجعلني أعمل هنا، ويصبح لقاؤنا ممكنا. لم أسعَ من أجل العمل هنا، بل أتاني بمحض الصدفة، شعرت أن القدر يقودني إلى مصيري وأنا لا يد لي به. وبعد التفكير المتقطع بك، أصبح تفكيرا ملحا بطريقة غريبة، وبت مشغولة بك طوال الوقت. سألت نفسي آلاف المرات: ما الذي سيجعله ينظر إليّ؟! وما الذي يربطني به؟! وما الذي يجعله يرتبط بيّ؟! وأي أوهام أبني؟! وغيرها الكثير من الأسئلة التي لا أملك إجابة عليها. شيء غامض داخلي قال لي: إن ما تشعرين به ليس وهما، القدر

يأخذك له بطريقة أو بأخرى، كنت متأكدة من هذا الشعور كأنه حقيقة واقعة وليس أمنية أرغب في تحققها. كنت على يقين من ذلك رغم أن كل شيء واقعي يكذب النبوءة. لكني كنت متأكدة من أن القدر سيقف إلى جانبي، وعندما جاءت الفرصة قرّرت أن أساعد القدر حتى تتحقق أمنيتي، فطلبت لقاءك عندما سنحت الفرصة. ليس لدي أي مطلب أو حاجة عندك، كل ما أريده أن أكون إلى جانبك، بصرف النظر عن الصيغة، فهي غير مهمة بالنسبة لي، المهم أن أشعر نفسي قريبة منك طوال الوقت حتى عندما أكون بعيدة عنك. قد تقول أني مجنونة، قد تقول أي شيء، فأنا فعلا مجنونة بك، لأن ما أقوم به لا تفسير له، الجنون هو أكثر تفسير منطقي. لم أستطيع ترك الفرصة تمر دون أن أحاول فتح ثغرة في جدار المستحيل، ودون أن أحاول أن أحصل على ما أريد. الآن، أنا أحاول وبكل قوة أن أكون ما أريد، وأن أكون إلى جانب الرجل الذي أشعر أني لا أستطيع العيش بدونه، ليس مهما من أنت ولا ابن من أنت، لكني أشعر أني مرتبطة بك بحبل متين لا أعرف الخلاص منه، حتى لو لم أكن على صلة بك، فإن الموضوع لن يتغير بالنسبة لي. ما قلته حقيقي، لم أكذب ولا بكلمة. أحتاج أن أكون جزءا من حياتك، وأتمنى

أن تكون جزءا من حياتي، وبذلك أكون أسعد إنسانة في هذا الكون.» كنت أستمع بكل انتباه، محاولا أن أفهم الحالة، لم أكن حياديا تماما، كلامها حرك مشاعري، لكن أن تكون ابن الرئيس ومرشحا لخلافته، فهذا ما يبعث على الشك في كل شيء، حتى المشاعر، ومن الطبيعي من يشغل هذا الموقع أن يتحول إلى شكاك. شعرت بالفرح وهي تتحدث عني كإنسان دون ألقاب، وهي من المرات النادرة التي سمعت فيها كلاما يتحدث عني بصفتي بشرا من لحم ودم، وليس منصبا لعطايا وحل المشاكل. تأثرت جدا بما قالت، صحيح كما قالت إن هذا الجنون بعينه، قلت ما المشكلة، فأنا أحتاج لبعض الجنون، شعرت أنها منحتني حنانا كنت بحاجة إليه أكثر من أي شيء آخر. فأنا بحاجة إلى شخص أشعر معه أني من لحم ودم، إنسان من مشاعر، إنسان من قوة وضعف، إنسان يغضب ويصاب بالملل ويشعر باللاجدوى، إنسان بحاجة إلى آخر يتحدث معه بلا ضوابط ولا حواجز وبدون أي خوف، وأن لا يكون إي كلام يقوله له عواقب وخيمة. هذا لم أشعر به طوال حياتي سوى هذه المرأة. حتى في علاقتي في لندن مع المرأة التي ستصبح بعد سنوات زوجتي لم تنتابني هذه المشاعر، أنا من أقنع نفسه أن تلك

المرأة في لندن لا تريد مني شيئا، لأني كنت أزين العلاقة، وأعرف أنها ووالدها قد أقاما العلاقة معي ليس لإعجابهما بشخصي، وأبوها كتب رسالة إلى المشفى اللندني الذي درست به ليعزز العلاقة مع الرئاسة في دمشق، مع أبي تحديدا، فلم أكن وقتها مرشحا لخلافته، غالطت نفسي، وقلت أنها علاقة حب بلا مصالح. لكن خلال كل العلاقة لم أشعر بالمشاعر التي انتابتني في اللحظة التي كانت تلك الشابة تشرح مشاعرها بالطريقة الجنونية. أصبحت أتردّد على الجمعية أكثر من أول، وكلما سنحت لي الفرصة أقابلها، وكانت سعادتها بي تسعدني. شيء ما أخذ يشدني بقوة إليها، شيء غامض مثل ذلك الشيء الذي تحدثت هي عنه، قد يكون شيئا في طريقة حديثها أو ضحكتها أو قدرتها على الإحساس الحقيقي بي. في تلك الأيام كنت متعبا من المهام الملاقاة على عاتقي، ومن الطلبات التي لا تنتهي ويتوجب عليّ أن أحل جزءا منها، للدلالة على أهميتي ومكانتي في البلد، لم يكن هناك شيء بريء، كل شيء مخطط له، لا شيء يخضع للصدفة، حتى الصدفة نفسها يتم التخطيط لها مسبقا لتقع. شعرت حينها أني متعب من كل شيء، وتمنيت على أبي أن يعفيني من المهمة التي يعدني لها،

فقد كانت مهمة ثقيلة. لم يفهمني ويشعر بمتاعبي، لذلك، ما كان منه سوى أن وبخني وقال لي حرفيا: «لم يعد الأمر مرتبطا بك، إنه يعني الجميع العائلة والبلد كلها. عليك أن تكبر وتترك تصرفات الأطفال.» كنت غاضبا جدا، ومتعبا جدا، أريد الخلاص من كل شيء، تعبت من الزيف والتملق، ومن أني ابن الرئيس والمرشح لخلافته. كنت في الجمعية عندما شعرت نفسي لم أعد أطيق أي شيء. طلبت من الجميع الخروج، استدعيتها، سألتها: «ما الذي يشغلها؟» قالت: «لا شيء.» قلت: «انتظريني بعد ساعة تماما أمام القصر العدلي في منطقة المزة.» طلبت من ابن خالي أن يأتي بسيارة إلى سوق مركزي فيه الكثير من محلات بيع الألبسة وبعض المطاعم والمكاتب يقع في منطقة كفر سوسة وسط دمشق. جلسنا قليلا في مكتب يملكه في السوق، وسرعان ما طلبت منه أن نذهب إلى الكراج. أراد رجال الحراسات مرافقتنا، طلبت منهم الانتظار مكانهم، فنحن سنعود بعد قليل. نزلنا إلى الكراج، فكان أن أحضر سيارته، قلت له: «أنا أريد سيارة غير سيارتك.» أضفت: «عندكم سيارات في الشركة، أليس كذلك؟» قال: «نعم.» قلت: «خذني إلى هناك.» قال: «خذ هذه السيارة.» قلت له: «خذني إلى هناك دون نقاش.» أخذني إلى

هناك. اخترت السيارة الأسوأ بين السيارات، وقلت: له «احضر مفاتيحها» ذهب وأحضر المفاتيح بنفسه، طلب معرفة إلى أين أريد الذهاب، قلت له: «عليك أن لا تعرف. وعليك أن لا تخبر أحدا. ولا ترسل أحدا ورائي» ألّح في السؤال، وعندما شعر أني غضبت، صمت. أعطاني المفاتيح. تركت سيارتي والمرافقة، ركبت السيارة وحدي، وانطلقت. فعلت كل هذا لأني أعرف أن أبي يريد أن يعرف كل شيء عني وعن تحركاتي. وليس من الغريب أن يكون كلف المخابرات في تركيب أجهزة تنصت في كل مكان يمكن أن أذهب إليه، في سيارتي وفي سيارة ابن خالي أيضا. لذلك كان عليّ، أن آخذ سيارة خارج كل الدائرة، لتجنب أن يكون فيها أجهزة تنصت.

عندما وصلت أمام القصر العدلي في المزة، وجدتها تنتظر وهي في غاية التوتر والقلق. فتحت باب السيارة وقلت: «اصعدي». صعدت مدهوشة، فلم تتوقع أن آتي بمثل هذه السيارة، لكنها لم تقل أي كلمة. لم أعرف إلى أين أذهب، شعرت أبي موجود في كل مكان في البلد، كل البلد أمامي وأنا لا أعرف أين أذهب في لقاء خاص مع امرأة بعيدا عن عيون أبي؟ وقتها شعرت بوطأة وسطوة أبي القاسية، لأول مرة

شعرت بثقلها، فهي المرة الأولى التي أهرب فيها من الحراسات وأقوم بكل ما يمكن القيام به حتى لا أكون تحت رقابة ما، من شخص ما، أو جهاز ما. من السيء أن تشعر نفسك مراقبا طوال الوقت، لا فسحة تعيش فيها حياتك الخاصة، شعرت أن لا حياة خاصة لي، حياتي مكشوفة لأبي ولأجهزته الأمنية. أخذت أقود السيارة في المدينة على غير هدى، وفي النهاية ذهبت إلى سفح جبل قاسيون المطل على دمشق، حيث أوقفت السيارة هناك مع الكثير من سيارات العشاق التي تقف على جانب الطريق هناك.

منذ صعدتْ إلى السيارة، عرفتْ أني غاضب وحانق من شيء ما، حاولتْ تهدئتي بالقول: «لا تدع شيئا يؤثر عليك، أشعر أنك غاضب ولا أحب أن أراك على هذه الصورة.» كلماتها فتحت باب الكلام، شعرت أني أريد أن أقول كل الكلام الذي لم أستطع قوله طوال حياتي، أن أتكلم إلى ما لا نهاية. لم أعرف فعلا إذا كنت قد خرجت ما دائرة رقابة أبي أم لا، لكني اعتبرت أنني نجحت في ذلك وتصرفت على هذا الأساس، وأني يجب أن أقول ما يثقل عليّ، طالما أني خارج الرقابة. قلت: «لست غاضبا فقط، بل أنا سأنفجر... سأنفجر. ما لي ولكل هذا. لا شيء يستحق كل ذلك، أشعر

بعد كل هذا العمر أنني ما أزال طفلا، يعاملني كطفل، وكطفل أحمق أيضا، يوبخني بقسوة، اللعنة على هكذا حياة. ماذا يعني أن تكون ابنا للرئيس؟! هذا يعني أن تكون حياتك منتهكة طوال الوقت، وأول من ينتهك هذه الحياة هو أبي. والآخرون الذين يحيطون بي من كل الألوان والأشكال يجب أن أتحملهم ويجب أن أبدو لطيفا مع الجميع، الرئيس هو أبو الكل، ويجب أن أتعامل على هذا الأساس، أبدو لعبة سخيفة بيده لا خليفة محتملا لرجل قوي، هو لا يثق بأي شيء أفعله، كل شيء يستحق التوبيخ. لا اعرف ما معنى حياة من هذا النوع.» حاولتْ مرة أخرى تهدئتي، قالت: «اصبر، كل شيء وله حل.» قلت: «اللعنة، مع أبي لا شيء له حل، المشاكل جزء من حياتنا، نحن نعيش في المشاكل. على العكس هو يستمتع أكثر في ظل وجود المشاكل، هو لا يسعى لحل شيء، هو يُعقد كل شيء وبقرار منه، وكلما عَقَدَ الأمور أكثر كلما أصبحت الحاجة له أكبر. الحلول ليست من اختصاصه، المشاكل من اختصاصه. لقد تعبت من تعلم التآمر والفك والتركيب، وتعلم موهبة اختيار الناس الأكثر ولاء لكنهم الأردأ كفاءة. ليس المهم الكفاءة والجدوى بالنسبة له، الشيء المهم الوحيد هو الولاء. المهم

السلطة وكل شيء يجب أن يدور حولها، أو بالأصح حوله شخصيا، فهو البلد ولأنه كذلك، يجب على كل شيء أن يمر عبره أو يدور حوله، وعلى كل شخص أن يعرف أنه تحت رحمته حتى ولو كان خارج البلد. إنها حياة الجنون. لم أختر أن أكون ابن للرئيس، ولم أرغب يوما أن أكون جزءا من السلطة، كل ما أردته في حياتي أن أعيش حياة عادية مثل كل البشر، وعيت على الدنيا وأنا ابنا للرئيس، فقد كان رئيسا منذ كنت في الخامسة من عمري، لم أعرف الحياة الطبيعية يوما، ولم أعش كما يعيش الأطفال والبشر. عشت ابنا للرئيس مراقبا طوال الوقت، لاعتبارات أمنية حينا ولاعتبارات أبوية مرة أخرى، حتى أبوته لنا، لم تخل من استخدامه الأمن لمعرفة ما نفعل. اللعنة على هكذا حياة. ما الذي أعادني من لندن؟! هناك فقط شعرت أني بشر، لم يعاملني الناس على أساس أني ابن رئيس، لم يعرفني أحد في الشارع، حتى لو سألني أحدهم من أين أنا، وقلت من سورية، قد لا يعرف أنه هناك بلد على خريطة العالم بهذا الاسم. هنا، تظهر سورية بوصفها مركز الكون. لا أعرف ما الذي أعادني من لندن، لقد تركت البلد وكنت سعيدا هناك، ما الذي أعادني؟! الحماقة ودناءة نفسي هما اللذان أعادتني.

اعتقدتُ أن الوصول إلى منصب الرئيس مجرد نزهة، كنت مخطئا، إنه طريق من الشوك والإذلال.» لم تعرف ما تقول، لكنها قالت بصعوبة: «عليك الصبر، بالتأكيد أبوك يسعى لمصلحتك، وأنت مُنزعج أكثر مما يستحق الموضوع. ولا شيء يستحق أن تنزعج منه.» أجبت منفعلا: «كل شيء يزعجني. لا شيء يعجبني. لا أصلح لأن أكون خليفة لأبي، ولا أريد أن أكون، هذه ليست مهنتي، وليس لدي رغبة أن أكون رئيسا. أخبرت أبي بأني لا أرغب أن أكون رئيسا. ثارت ثائرته، وقال بشكل واضح، أنه ليس لي خيار في أن أكون أو لا أكون، المسألة ليست شخصية ولا أستطيع الانسحاب، فمصير العائلة والطائفة والبلد بات متعلقا بي بالنسبة له، ولن يسمح لي بأن أُخرّب كل ما عمل عليه كل هذه السنوات. ببساطة حياتي ليست ملكي، هل تفهمين عليّ؟ لقد قضى عمره وهو ينتهك حياتي ويحكمها، واليوم يريد أن يحكم حياتي حتى بعد موته. يرسم مصيري ويقرّره ويعمل عليه بصرف النظر عن رغباتي وخياراتي وحتى لا يسألني رأيي، أنا مجرد حجر شطرنج بين يديه يحركه كيفما شاء، وليس لحجر الشطرنج هذا أن يختار في أي اتجاه يجب أن تذهب حياته. لقد حكمها مالكها وما عليّ سوى التنفيذ، وليس لي حق

الاحتجاج. إني أشعر بالقرف من حياتي، هذه ليست حياتي، هذه حياة فصلت لي ولا يد لي بها، ولم أختر شيئا فيها، حتى ملابسي لم تتوفر لي الفرصة لاختيارها. لقد رماني القدر في مكان لم أكنُّ أحبه يوما، لم يمنحني الحياة الطبيعية التي يعيشها كل إنسان. عشت طوال حياتي أما في الخوف أو بالشك والريبة بالآخرين. لا شيء طبيعي على الإطلاق في حياة الجحيم التي أعيشها، لماذا عليّ أن أدفع ثمن حياة لم أخترها ولم يكن لي يد فيها؟! ما هذا الذي أعيشه؟! هل عشت حياتي حقا؟! هل ما عشته يمكن أن يسمى حياة حقا؟! أنا أشك بكل شيء ولا أعرف أي شيء، حتى لا أعرف من أنا ومن أكون. بت متأكدا أني شخص لا أملك من حياتي أي شيء، إنا مجرد برغيا في ماكينة القدر رمها بيد والدي لأكون برغي في الماكينة والمملكة التي بناها لنفسه ويريدني اليوم أن أكمل ما بدأ. أن أدير مشاكل البلد من أجل أن أبقى على رأسها، أن أجيد اختيار التافهين الموالين لحكم البلد، واشم رائحة أي خطر على السلطة والقضاء عليه قبل أن يتفاقم، إنه العيش في القلق، انه العيش في الجحيم. وأنا لا أستطيع عيش هكذا حياة، قلق أجرجره ورائي طوال اليوم لأذهب به إلى السرير، حيث يمنع عني

النوم. هذه الحياة ليست حياتي، أنها الجحيم، إذا كان هو يستمتع في العيش في الجحيم، فأنا لا أرغب أن أعيش هكذا حياة. كيف أقنعه أن هذه الحياة ليست حياتي؟ وهو الرجل العنيد الذي لا يردعه شيء. سيسخر مني، ويوبخني من جديد، وسيقول لي، لن أقبل أي حجة، عليك أن تتحمل مسؤوليتك، عليك أن تكبر، ستفعل ما هو مقدر لك.» عندما سألتني: «ماذا تفكر أن تفعل؟» لم أكن قبل سؤالها قد فكرت في أي إجابة، عندما سألتني أجبت بدون تردد «أفكر في الهروب من البلد. سأغادر البلد وأترك له كل شيء، وليفصل من شخص غيري رئيسا للبلد.» فكرة الهروب خطرت لي حينها، أما قبل ذلك لم أكن أعرف ما الذي سأفعله مع أبي. شعرت بالراحة وأنا أشرح لها ما أشعر به، وفي الحقيقة شعرت أني أشرح الوضع لنفسي أكثر مما أشرحه لها. فعندما نشرح الأشياء ونفكر بها بصوت عال، نجد أنفسنا ننظر إلى المشاكل التي نعيشها بطريقة مختلفة عن تلك التي كنا نملكها عن المشكلة قبل أن نشرحها لشخص آخر. كانت المرة الأولى التي أتحدث فيها مع شخص آخر بقضايا في غاية الخصوصية، خاصة علاقتي مع أبي وشعوري بالاستياء من طريقة تعامله معي. شعرت بالكثير من

الراحة بعد كل ما قلت، وفجأة، شعرت أني أصبحت في غاية القرب من هذه المرأة التي تجلس جانبي، عندما احتضنتني شعرت بالحنان والحب يجتاحاني، انفجرت داخلي رغبة عارمة بالبكاء، فبكيت، وبكت هي. مرت ساعات ونحن معا نتحدث في كل شيء، ولم أنتبه إلى الوقت، أربع ساعات في التمام والكمال، أربع ساعات اختصرت المسافة في علاقتنا إلى حدود الصفر، أصبح هناك شخص إلى جانبي أستطع أن أقول كل أوجاعي أمامه دون حساب. كنت سعيدا بهذا الاكتشاف، وشعرت أنها دخلتْ مركز حياتي، ولن أستطيع أن أستغني عنها بعد ذلك.

عندما أنزلتها في وسط دمشق لتعود إلى بيتها، شعرت أني أصبحت شخصا آخر بفضلها. بعد هروب ساعات كان عليّ العودة إلى واقعي، بانتظار توبيخ جديد على فعل سيعتبره أبي فعلا أحمق. عندما قابلت أبي، كان غاضبا جدا من هروبي من الحراسات، وغاضبا أكثر لأني نجحت في التملص هذه المرة. وأصبحت متأكد أنه سيطلب بأخذ إجراءات إضافية في متابعتي لعدم تكرار ذلك، وأنا قرّرت أن أتخذ إجراءات إضافية في التهرب. وقتها قرّرت أن يكون لي أماكن مختلفة في البلد استطيع الهروب إليها عندما أكون

متعبا ولا أرغب في مشاهدة أحد. كلفت ثلاثة أشخاص مختلفين، ليس لهم صلة ببعضهم البعض، أن يبحث كل واحد منهم عن ثلاث شقق سكنية في أماكن مختلفة من مدينة دمشق، وكل واحد منهم، يبحث عن كراج لثلاث سيارات من موديلات مختلفة، وأن تكون جاهزة على مدار الساعة، على أن لا يخبر كل واحد منهم أي أحد آخر بأن لهذه الشقق أو السيارات أي علاقة بي، لا من قريب ولا من بعيد. بعد شهر كانت هذه الشقق والسيارات في الخدمة.

شكلت هذه الشقق متنفسي في الهروب من مهماتي لبعض الوقت، قبل أن أصبح رئيسا وبعد أن شغلت المنصب. كنت غالبا ما أحتاج هذه الشقق لانفرد بنفسي، ولأجل مقابلتها، أتهرب من المرافقة بسهولة، أبدل سيارتي مرتين، لأجد نفسي معها في إحدى هذه الشقق. كان التهرب من الحراسات يمنحني إحساسا بالمتعة، ولقائي معها يمنحني الإحساس بالراحة بطريقة غريبة. كل مرة كنت معها أشعر بشعور مختلف لم أشعره مع أي من النساء اللواتي عرفتهن من قبل، ومن بعد. فأنا معها أكون كما أنا على حقيقتي ولا أحتاج أقنعة، أقول ما أريد قوله دون حساب، وأشعر أني أتكلم مع نفسي، فهي تشعرني براحة غريبة. لم تنقطع

العلاقة معها منذ ذلك اليوم، رغم أن أحاديث كثيرة دارت عن علاقتي بكثير من النساء، اللواتي افترضت هذه الأحاديث أني كنت على علاقة بهن، أحيانا كانت هذه الأحاديث صحيحة وأغلبها كاذب، إلا أنها لم تكن جزءا من هذه الأحاديث، وهذا ما زاد من خصوصية العلاقة، فمعها أشعر نفسي خارج كل شيء، ولأنني كنت قد رتبت هذه الشقق بعيدا عن رقابة أبي. كانت أول مرة أخوض فيها علاقة جنسية وأشعر نفسي حرا وخارج الرقابة داخل البلد، كنت اختبرت هذا الإحساس الجميل في لندن. سابقا وفي كل مرة كنت أقيم علاقة جنسية مع امرأة، اشعر دائما بأن شيئا ما ينغص عليّ هذه العلاقة، سواء كانت في شقة سكنية أو غرفة في فندق أو في فيلا خارج المدينة. في كل مكان كنت أشعر أبي يراقبني وأنه أرسل رجاله من أجل معرفة ما أفعل، ولا أستبعد أنهم يصورني، ما كان يفقد الممارسة الجنسية كل متعة بالنسبة لي، وأحيانا يحولها إلى عقوبة. لم تتوقع أننا سنلتقي ثانية، صحيح أننا تحدثنا عدة مرات على الهاتف، لكني لم أدعها إلى لقاء. بعد أن أنجزت المهمة، قلت لها: «لنلتقي.» فكان أن جاءت بنفسها إلى الشقة في آخر اوتستراد المزة المطلة على بساتين الصبار التي تفصل

منطقة المزة عن منطقة داريا. عندما دقت الباب في الطابق السادس حيث انتظرتها، لم تصدق أني أمامها، رمت نفسها على صدري وشرعت بالبكاء. حاولت تهدئتها قائلا: «لا عليك، نحن معا من جديد.» قالت: «أنا غير مصدقة أني معك من جديد، شعرت أني لن أراك ثانية. إنها دموع الفرح، فرح اللقاء من جديد.» وعادت لاحتضاني بشدة، أشعرني الاحتضان القوي بحرارة جسدها، التي انتقلت إليّ، وشعرت أن حرارة جسدي ارتفعت أيضا. عندما رفعت رأسها عن صدري لتنظر إلى وجهي، قفزت الرغبة العارمة من عينيها. التقطت شفتها السفلى الملتهبة وسرعان ما أخذ كل جسدها ينتفض بين ذراعي، وجدت نفسي مستثارا كما لم استثر من قبل، فلا خوف من كاميرات مراقبة ولا خوف من رجال أبي الذين يبحثون عني في مكان آخر. اشتعل جسدي بفعل انتقال حرارة جسدها إليّ. طوقت خصرها بيدي وقدتها مباشرة إلى غرفة النوم. عندما أدرتها لتصبح قبالتي، كانت عيناها تقولان أنها تكاد تغيب عن الوعي، كانت مثيرة بطريقة جنونية، حمرة خديها، صوت أنفاسها، عينيها، رعشات جسدها، كلها تدعوني إلى اجتياحها بشكل كامل. لم أنتظر، عدت إلى التقاط شفتيها، أنفاسها الكاوية تزيد في

إشعال رغبتي. لم تعد قادرة على الوقوف، ساعدتها على الاستلقاء على السرير، فككت أزرار قميصها القطني الأبيض، ورميت تنورتها بعيدا، ثدياها سبقاني وثارا على حماله الصدر وخرجا معلنين أنهما لا يرغبان في أي سجن، ويطلبان مني أن أعود طفلا رضيعا. حلقنا معا، شعرنا جسدينا خفيفين يطيران في فضاء مفتوح، التحمنا واتحدنا، واختلطت آهاتي بأنينها، أصوات قلوبنا وصلت إلى السماء، وفي الذروة سقطنا على سرير المتعة سوية في تناغم ساحر.

لم أصدق أن هذا يحصل لي، دون خوف أو رهبة، كنت أنا نفسي لأول مرة في حياتي عاريا وبعيدا عن رقابة أبي أو الخوف منها. شعرت أنها لحظة استقلال وتمرد على أبي، لحظة حرية، أحتاجها أكثر من أي شيء آخر. كنت ممتنا للمرأة التي استطاعت أن تمنحني هذه الفرصة وتخلق لي لحظات أكون فيها نفسي ولا شيء آخر. شعرت حينها أن رابطي معها أصبح أبديا لا يمكن فكاكه. لم يكن في هذه المرأة شيء خارق، ولم يكن هناك شيء مميز، يبدو أن هذه المرأة خلقت لتشعرني أنني أستطيع أن أكون على حقيقي ولو لبعض الوقت، إذا لم يكن كل الوقت، على الأقل في الأوقات التي أقضيها معها. أشعرتني بالتحرر من

كل شيء، المسؤوليات، العائلة، الحرب، المؤامرة، والتحرر من نفسي. كثيرا من شعرت أني أعود طفلا بين يديها، وكثيرا ما بكيت على صدرها، لأن لا مكان آخر أبكي فيه، لقد كانت ملجأي النهائي في كل مرة أشعر فيها بالضيق أو القلق أو الخوف. لم تطلب مني شيئا، ولم تطلب أن تكون زوجتي، كان مطلبها أن تبقى بالقرب مني وليس بالضرورة أن يكون ذلك علنيا، هي مكتفية بعلاقة سرية معي، ولا تحتاج إلى أكثر من ذلك. وعندما طلبت منها أن تشغل مناصب أفضل من وظيفتها، رفضت الفكرة، وقالت: «لا أريد لشيء أن يشغلني عنك، لقد وهبت نفسي لك.» كانت صادقة، لأنها لم تطلب أي شيء لنفسها، حتى الأموال التي وضعتها في حسابها، لم تقترب منها، وعندما أخبرتها أن هناك مبلغا من المال تم تحويله إلى حسابها، أزعجها ذلك كثيرا وقالت: «أنا أحبك، ولا أريد من هذه الدنيا شيئا غيرك، لا مال ولا أملاك. أنا مكتفية بك، وهكذا تعاملني كساقطة.» اعتذرت منها، وقلت لها: «يستحيل أن أعاملك هكذا، فأنت الشخص الوحيد في هذا العالم الذي جعلني أعرف حقيقتي، وأنا معك أكون الرجل الحقيقي وليس المنصب، أفرح وأبكي كالأطفال. فلا تُحمّلي الموضوع

أكثر مما يحتمل. أنت قطعة مني وسأقوم بما يجب القيام به، وأتمنى عليك أن لا تفسري الأشياء بشكل خاطئ.» لم تطلب مني أي التزام، والشيء الوحيد الذين طلبته، هو أن لا أتزوج، لكنها وجدت أن الطلب ثقيل، فقالت: «أتمنى أن لا تتزوج.» وسرعان ما استدركت: «أنت تعرف ما يجب عليك فعله، لا تطلب مني أن أكون سعيدة بزواجك.» كان سؤال يدور في رأسها، ترددّت في طرحه، لكنها لم تستطع الاحتفاظ به، فقالت: «هل ستنتهي علاقتنا بزواجك؟» أجبت وبشكل قاطع: «بالتأكيد، لا. لاشيء سيؤثر على علاقتي بك، لا زواج ولا غيره.» كانت تراقب كل شيء فيَّ، تتفقدني كلما تقابلنا، كانت تتأكد أن الوحمة على خاصرتي ما زالت مكانها. وعندما أخذ الشيب يغزو شعري في الأربعين من عمري، كانت أول من أنتبه إلى تلك الشعرات البيضاء في صدغي، وقالت لي: «عليك صبغ شعرك منذ الآن، فأنا أريدك أن تبقى شابا إلى الأبد. إذا صبغته الآن، فلن ينتبه أحد في المستقبل إلى أنك صبغت شعرك.» بعد أشهر، أخذ الشيب يغزو شعري بسرعة، تذكرت كلامها، وسألت زوجتي: «ما رأيك أن أصبغ شعري، لقد بدأ الشيب يغزوه، فإذا صبغته الآن، أفضل من أصبغه عندما يظهر الشيب بكثافة.» قالت

فرحة: «ممتاز، إنها فكرة عبقرية.» ضحكت على ردة فعلها. ومنذ ذلك الوقت أصبغ شعري، فقد شيَّبني المنصب الذي لا يرحم سريعا.

كانت ملجأي الوحيد المريح في السنوات الأخيرة، استمعت لكل همومي بكل صبر، وأنقذتني دائما من حالات اليأس والتشاؤم، قدرتها هائلة على شحني بالحياة من جديد. هي جداري الأخير، لذلك، لم أكن قادرا على التخلي عنها، رغم أني فكرت كثيرا في تركها تبني حياتها عبر أسرة أو أي شيء آخر، تحدثت معها عدة مرات في الموضوع، كان هذا الكلام يُغضبها. شعرت بالذنب تجاهها، بعد ذلك اليوم الذي عرفت فيه أنها حامل مني، كانت فرحة للغاية، رغم إدراكها أن الاحتفاظ بالجنين شيء مستحيل. مؤكد، حلمت بالاحتفاظ به، أو أنها تصورت أني يمكن أن أقول لها، احتفظي به. أن يكون شيء مني يتحرك داخلها جعلها تشعر بفرح عارم، وأرادت أن تحتفظ بهذا الشعور أطول فترة ممكنة. بعد عملية التجريف التي قامت بها لإسقاط الجنين، أصابها حزن شديد، دخلت مرحلة من الكآبة، كأنها فقدت ابنها شابا، وبقدر ما كان فرحة بالحمل بقدر من أصبحت حزينة بفقده.

في السنوات الأخيرة، لم تعد اللقاءات التي أتهرب فيها من المرافقة ممكنة، رغم أني بقيت أقوم بها حتى بعد أن أصبحت رئيسا، كنت أتهرب من الحراسات لأقابلها، أو لأقوم بشيء شخصي آخر. وبسبب الأوضاع الأمنية الخطرة لم يعد ممارسة ذلك ممكنا. صرت عندما أحتاجها، أبعث بسيارة رسمية وشخص محدد موثوق ليأتي بها إلى القصر الرئاسي. ويتم إدخالها من أبواب خلفية وصولا لعندي، لقد صرت أحتاجها في الحرب أكثر من السابق، ليس من أجل الجنس، كنت أحتاجها لأنها الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أشرح نفسي أمامه، وبالتالي أشرح نفسي لنفسي، فالتفكير في الأوضاع الخطيرة يحتاج إلى صوت عال. كنت بعد كل لقاء معها، اشعر أني أعرف أكثر عن نفسي، وأرى الأمور بشكل أوضح، وأشعر أني قادر على اتخاذ القرارات بشكل أفضل وأكثر دقة بعد لقائنا. كانت وما زالت مرآتي الحقيقية الوحيدة في هذا البلد، رغم النساء الكثيرات اللواتي عرفتهن. أمي كانت المرأة الأخرى التي أشعر معها بأني على حقيقتي، ولكنها توفيت في ذروة الحرب على البلد. رغم كل المصائب التي كنت أمر فيها في ذروة الأزمة، عندها فقط شعرت باليتم كأني لا أزال طفلا، وعرفت أن

اليتم لا يتعلق بالسن. لم أعرف ذات الشعور عند وفاة أبي، لكن مع أمي كان الوضع مختلفا ، شعرت أني يتيم ومخنوق وبائس. وقتها شعرت أني أحتاج إليها بشدة. عندما استدعيتها بعد وفاة أمي، أول ما قابلتها رميت رأسي على كتفها وشرعت في بكاء غريب، كأن بحرا من الدموع فاض من عيني، هل أبكي وفاة أمي، أم أبكي نفسي، أم الأوضاع التي أمر فيها ، أم أبكي كل هذا؟! لم أكن قادرا على تحديد السبب، لكن رغبتي بالبكاء كانت جارفة، احتضنتني فشرعت بالبكاء كطفل صغير. والغريب أني لم أشعر بذلك الإحساس عندما احتضنتني زوجتي وقت وفاة أمي.

من الطبيعي أن تكون لي علاقات نسائية كثيرة، فمنصب الرئاسة مغري جدا للنساء، للكثير من الأسباب، كذلك النساء مغريات للرجل، فهناك نساء من الصعب مقاومتهم. أعرف أنهن يريدن التقرب من الرئاسة كل واحدة لها أسبابها وأهدافها ، ولكن هذا ليس مهما. كما للنساء مصالح مع الرئاسة ، كذلك من مصلحتي أن يكون للرئاسة وجها أنثويا جميلا ، يعطي طابعا حضاريا وشبابيا يوحي بمستقبل أفضل، بدل الصورة المتجهمة للسياسة التي سادت

في عهد أبي. لذلك، باستثناء المستشارة السياسية، عملت النساء في الرئاسة ضمن إطار العلاقات العامة والعلاقات مع وسائل الإعلام، وهي الأماكن التي تحتاج إلى الوجوه الجميلة. ومع المؤامرة على سورية، بات تصوير وإظهار التناقض بيننا وبين الإرهابيين أصحاب الأهداف الظلامية ضروريا. كان يجب تعريف الجميع على الصورة الحقيقية للتطرف الذي نواجهه ونخوض حربنا ضده، والذي يظهر بصورة الملتحي والمتجهم، يهدد ويتوعد على الفضائيات ويطالب بالعودة للعيش في الماضي، رغم مواصفاته المعروفة، إلا أنه يلقى دعما من الغرب الذي يدعي دعم الحرية. في الحرب التي تواجهها سورية، تطوع الكثيرون من أجل الدفاع عن معركتنا، لأنها معركة محقة. وكان من الضروري مكافأة الذين قدموا خدمات للوطن دون أن ينتظروا الشكر. جمعت المذيعة السورية في القناة القطرية الشهيرة معلومات كثيرة عن المؤامرة التي تحاك في استوديوهات تلك القناة ضدنا، وهي معلومات في غاية الأهمية لكشف المؤامرة، وبقيت تزودنا بالمعلومات حتى كاد ينكشف أمرها هناك، فطلبتُ منها مغادرة القناة والعودة إلى سورية، فنحن لا نريد أن نعرض حياتها للخطر. كافأت المذيعة التي قدمت

هذه الخدمات بتعينها مستشارة إعلامية للقصر الجمهوري. وهذا المركز وفر لها علاقة مباشرة معي. استقبلتها أول مرة لشكرها على الدور البطولي الذي قامت به وبلّغتها بأني اخترتها لمنصب مستشارة إعلامية، كانت سعيدة بهذه الوظيفة. استقبلها بين الحين والآخر لأستمع إلى رأيها في الموضوع الإعلامي ولرسم خريطة تحرك إعلامي لإبراز الصورة الحقيقية للصراع. في المرة الثانية التي استقبلتها، كانت تلبس فستانا خمريا يكشف جزءا من نهديها، وجهها تشوبه حمرة وردية كأنها شربت بعض الخمر. أخذت تشرح لي إستراتيجية إعلامية رسمتها من أجل المستقبل. أثناء شرحها كانت تحمل بعض الأوراق في يدها. قالت: «هل يمكن أن تلقي نظرة على هذه الأوراق سيادة الرئيس؟» قلت: «طبعا» دارت حول المكتب، وضعت الأوراق أمامي على المكتب، وقفت على يمني تشرح وهي تشير إلى المربعات في جداول بيانية على الصفحة، عندما لفحتني رائحة عطرها لم أعد اسمع شيئا مما تقول، استدرت ناحيتها، وجدت جزءا كبيرا من صدرها قد انكشف بسبب انحنائها على الأوراق فوق مكتبي، خداها الورديان اللامعان في متناول يدي، عيناها الخضراوان تلمعان بشدة، ترمش بسرعة عندما تنظر

إليّ، يشوب صوتها رجفة لذيذة. أدرت الكرسي الذي أجلس عليه حتى صرت قبالتها تماما، وجدت نفسي أمسك يدها التي تشير إلى الورقة، وأصحح وقفتها لتكون قبالتي تماما. كنت جالسا على كرسي المكتب وهي تقف أمامي وتعلوني بعض الشيء. عندما أصبحت مقابلي تماما وأنا أنظر إليها إلى الأعلى، أمسكت يديها الاثنتين وقلت: «اللّه، كم أنت ساحرة.» احتضنتها من منطقة الورك، ووضعت راسي على بطنها تماما، ثدياها يلمسان أعلى رأسي. برفق أبعدتها قليلا عني وأجلستها على ركبتي، وأصبح وجهها قبالة وجهي تماما، شفتاها ترتجفان وأنفاسها تتسارع وقلبها يخفق بقوة، وهي مستسلمة تماما. التهمت شفتيها، عصرت صدرها على صدري، تصاعدت آهاتها، كالنائمة قدتها إلى غرفة النوم الملحقة بالمكتب.

بعد ذلك اليوم انكسرت العلاقة الرسمية، بقيت تقوم بذات المهمة الإعلامية، لكن في الكثير من الاجتماعات المنفردة بيننا، كنت أجتاح جسدها دون إنذار مسبق، وفي كثير من الأحيان لم تكن تستطيع الانتظار، أصبحت ترسل أشواقها ومشاعرها عبر الإيميلات التي تبعثها إليّ من غرفتها التي لا تبعد عني أكثر من ثلاثين مترا. زودتها ببريدي

الاليكتروني الخاص، حتى تكتب ما تشاء، وتكون بعيدة عن العلاقات الرسمية، خاصة أنني في ظل الظروف اللاحقة، كانت تمر أسابيع دون أن أستطيع مقابلتها، رغم أنها تعمل معي في ذات المكان. كانت تُعبر عن حبها وأشواقها عبر هذه الرسائل، وعندما تعرف أني استقبلت نساء جميلات ترسل رسائل الغيرة التي تحمل العتب الرقيق، وعندما أقابلها تتظاهر بالغضب دلعا، لكن سرعان ما تهدأ وتستسلم للواقع. عرف زوجها بالرسائل المتبادلة بيننا بمحض الصدفة كما قالت، تسبب ذلك بطلاقها، وبعدها شعرت أنها حرة ما زاد غيرتها وتعلقها بي.

مستشارة علاقات عامة أخرى وجدت نفسي أجتاحها أيضا، وهي ابنة الدبلوماسي السوري في نيويورك، كنت أيضا اخترتها للعمل مع وسائل الإعلام الأميركية، وقد استطاعت أن تؤمن لي ولزوجتي لقاءات مع وسائل الإعلام الأميركي. فقد استطاعت في العام الأول للأزمة أن تؤمن لزوجتي مقابلة مع مجلة «فوغ» الأميركية، لإظهار حضارية الرئاسة في سورية وانتمائها إلى العالم الحديث، عبر زوجة الرئيس الأنيقة والحساسة التي تربت في لندن وتجيد الانكليزية بطلاقة وتظهر بمظهر المرأة الأوروبية العصرية

تماما. كما وفرت لي فرصة مخاطبة الجمهور الأميركي عبر قناة ABC الشهيرة، رغم الأسئلة المحرجة التي تعرضت لها من قبل مذيعة القناة الوقحة، التي سألتني هل أشعر بالذنب؟ على ماذا أشعر بالذنب، هل هناك أغبى من هكذا سؤال؟! وعادت لتحرجني بسؤالها عن مغني حماة الذي كتب أغنية تشهير فيّ شخصيا، ووجد مذبوحا وملقى في نهر العاصي. اللقاء مع القناة الأميركية وفر فرصة لقائي المباشر بها، لأنها جاءت إلى دمشق مع الوفد الإعلامي الأميركي. استقبلتها لشكرها على مجهودها الكبير في مساعدة الوطن على شرح قضيته للرأي العام الغربي. «أنا مستعدة لعمل كل شيء من أجل الوطن ومن أجلك.» قالت وقتها. جاءت إلى اللقاء بكامل أناقتها، فستان أبيض قصير بخيط على الأكتاف يكشف الكثير من فخذيها المصقولين والمشدودين عندما تجلس على الكرسي. شابة وجميلة وكل شيء فيها يقول، إنها أتت وهي تحمل رغبة شديدة في أن اجتاحها. ولأني ضعيف أمام النساء الجميلات، لبيت رغبتها وأنا سعيد، وقضينا وقتا ممتعا في غرفة النوم الملحقة بالمكتب. بعدما عادت إلى نيويورك باتت ترسل ايميلات تخاطبني بها

بـ«حبيبي.» «اشتقت لك، وأتمنى أن أطير إلى حضنك في دمشق.»

تصاعد الصراع لم يجعلني أكثر انشغالا فحسب، بل وأشعرني أني بت أكثر وحدة أيضا، وفي هذه الوحدة التي أعاني منها، كان العالم الافتراضي على شبكة الإنترنيت ضروريا من أجل كسرها. كان أجمل ما في هذا العالم الافتراضي غزل النساء الذي استمتعت به جدا. الكثيرات كتبن لي كلام الغزل، والكثيرات كتبن عن رغبتهن بالنوم معي في السرير واعتبرن ذلك قمة المتعة والإثارة. واكتشفت أن هذا بمثابة الحلم للكثيرات منهن، بعضهن وجدن الطريق إلى غرفة النوم الملحقة بمكتبي، ولكني لا أستطيع أن ألبي طلبات كل النساء الجميلات. عندما أشعر بالملل من التقارير الأمنية الجافة، المليئة بأخبار مراقبة بعض المسؤولين، والتي تتحدث عن نجاح اعتقال إرهابيين وتصفيتهم، وعن أماكن تم تطهيرها من الإرهاب بكلفة عالية، وعن تدمير بيئات الإرهابيين في الأماكن الأكثر احتضانا لهم، كنت أقضي بعض الوقت الممتع في مراجعة رسائل النساء الجميلات. وعندما أرغب في التحليق بعيدا، أحلق مع امرأة جديدة في غرفة النوم الملحقة بمكتبي، أو أطلب أحداهن لأفرغ طاقتي

التي أشعر أني مشحون بها. في كثير من الأحيان أراحني الجنس وهدأ أعصابي من هموم الحرب. كما سلتني وأثارتني كثيرا النكت الفاحشة التي أرسلتها النساء لي، وأرد عليها بنكات مماثلة أو أكثر فحشا. العلاقة مع النساء متعة حقيقية، لكل من العلاقة عن قرب والعلاقة عن بعد متعتها الخاصة.

في المرة الأولى التي هربت فيها من الحراسات، وبخني أبي بشدة. في المرات التالية، توقعت أن يزداد غضبه من اختفائي وأن يقوم بتوبيخي أكثر، لكنه لم يفعل ذلك في المرات التالية. استغربت ذلك، وولد عندي فضولا شديدا لمعرفة، لماذا لم يعد أبي يغضب من اختفائي، هل أقرّ أن خصوصيتي من حقي، لذلك لم يعد يُؤنبني على الهروب؟ شحنت شجاعتي وسألته: «لماذا لم تعد تؤنبني على هروبي من الحراسات؟» هز رأسه، وضحك ضحكة موحية، لم أفهم معناها سوى بعد ما أصبحت رئيسا. عندها اكتشفت أن أبي كان يعرف بشأن الشقق التسع والسيارات التسع، وأن مصدر معلوماته هم ذاتهم الأشخاص الذين كلفتهم منفصلين دون أن يعرفوا بعضهم بانجاز المهمة، معلوماتهم التي لا يعرفونها عن بعضهم البعض، وجدت طريقها متحدة إلى

مكتب الرئيس. ضحكت على نفسي الواهمة بأنها استطاعت الإفلات من الرقابة الأمنية لأبي العجوز، في الوقت الذي كان يعرف كل شيء، تذكرت ضحكته وعرفت حينها أنها ضحكة شامتة.

١٠

غضبت وصرخت بوجه كل من كان أمامي: «كيف يمكن لمثل هذا الخرق الأمني أن يحصل؟! الجميع دفعة واحدة، لا يمكن أن أصدق ذلك، إنه خرق أمني خطير. لتكن عندي التفاصيل لحظة بلحظة.» انصرف الجميع وأخذت التفاصيل تتلاحق، وزير الدفاع الحالي والسابق قضيا مباشرة في التفجير، وزوج أختي نائب وزير الدفاع قضى في المشفى بعد ساعات أيضا، ومدير مكتب الأمن القومي، قضى في اليوم التالي. وزير الداخلية الناجي الوحيد يعاني من إصابة خطرة. شعرت بالخوف، في الحروب هناك لحظات يشعر فيها المحارب بالخوف، لأن الحرب خيار قاس، ويجعل الجميع في دائرة الاستهداف المباشر وفيه الكثير من الدماء حتى لأقرب الناس له. ولكن لحظات الخوف إذا لم تذهب سريعا، وتعود إلى الإيمان الحقيقي بنضالك ضد الأعداء، يتحول هذا الخوف إلى عقبة في طريق خوضك المعارك وبالتالي عقبة أمام انتصارك. لذلك، كان عليّ أن أتعامل مباشرة مع الحدث وتجاوزه بأسرع وقت. لقد أدوا واجبهم

تجاه الوطن وماتوا أبطالا والمسيرة يجب أن تستمر، ويجب متابعة المعركة وفاء لدمائهم. فأنا أخوض معركة محقة لا تتعلق بي شخصيا أنها تتعلق بحماية البلد ومستقبلها. كانت الضربة قوية وقاسية، وجاءت بعد وقت قصير من انشقاق صديقي التافه، الضابط في الحرس الجمهوري وابن وزير الدفاع الأسبق. لم أكن أتوقع منه أن يكون على الطرف الآخر من الجبهة وقت المعركة، لطالما عبر عن وفاء كاذب أمامي. في عالم الحرب القذرة كل شيء ممكن، وكل من يعتقد أن مركبك يغرق أو مصاب بعطب يقفز منه لينجو بنفسه، وقد قفز منه ذلك التافه بكل الانتهازية المعهودة عنه وعن أبيه. في الحرب صرت على قناعة أنه من الضروري في الأوقات الصعبة والحرجة التخلص من الأصدقاء الجبناء، لأنهم يشكلون خطرا على المسيرة التي في طريقها إلى النصر بجبنهم وبعدم صلاحيتهم أصلا للمعركة، فليذهبوا إلى مصيرهم البائس، إلى مكانهم الطبيعي في مزبلة التاريخ. مباشرة بعد التفجير في مبنى الأمن القومي ومن أجل الاستمرارية، طلبت إعداد مرسوم بتعيين رئيس الأركان وزيرا للدفاع، واستقبلته مساء وزودته بتعليماتي بضرب العصابات الإرهابية وبيئاتهم الحاضنة بيد من حديد وبكل

قوة، وأن الجريمة التي وقعت في مبنى الأمن القومي ودم القادة الذين استشهدوا هناك لن تذهب هدرا. وافقني الرأي وتعهد أن يبذل كل جهد ممكن لتحقيق النصر على أعداء الوطن. طلبت من جهاز أمن الرئاسة أن يرتبوا مشاركتي بالجنازة، لكن الجهاز رفض بقوة مثل هذا الخيار، لأنه يشكل خطرا داهما على حياتي، وقالوا لن يسمحوا بتعريض حياتي للخطر في هذه الظروف الخطرة التي تمر بها البلد، لا يمكن الموافقة على هكذا مشاركة، خاصة وأن الطرف الثاني، سعيد بما حققه من انجاز بالوصول إلى مجموعة من القادة والمسؤولين، ومن الأكيد أنه يتوقع أن أحضر الجنازات، ولا بد أنهم رتبوا شيئا ما لمثل هكذا احتمال، وبعد أن وصلوا لهؤلاء القادة، أصبحوا بحاجة إلى هدف أكبر، وأنا الهدف الأكبر الوحيد في البلد. لذلك قرّر جهاز الأمن والحرس الجمهوري، أنه ليس خيارا ملائما، ولا يمكن الموافقة عليه فهو يُعرض حياة الرئيس للخطر، واليوم الأوضاع بحاجة ماسة لي أكثر من أي وقت مضى. كان عليّ أن أخضع لهذا التقدير، على الرغم من رغبتي الشديدة في تقديم الواجب لمن ضحوا من أجل الوطن. استبدلت هذا بزيارات شخصية ضيقة لعائلات الشهداء في منازلهم، وأخبرت

عائلاتهم أنهم يملكون خطا مفتوحا معي، يستطيعون الاتصال بي في أي وقت، فمكانة عائلات الشهداء عندي بمكانة الشهداء أنفسهم الذين قدموا أغلى ما عندهم للوطن وتركوا عائلاتهم أمانة برقبتي.

بعد أيام قليلة، كنت في انتظار مفاجأة أخرى، من مكان غير متوقع، من أختي تحديدا. تلك التي وقفت معها في خلافهما مع والدي، وقربت زوجها مني عندما أصبحت رئيسا، واعتمدت عليه كثيرا، ولم أشك يوما في ولاءه وحبه لي وعلى البقاء ممتنا لوقوفي معهما في أزمة زواجه وخلافهما مع أبي، ولقناعته أني أفضل رجل يقود البلد في هذه الظروف الصعبة. زواج أختي هو الأزمة العائلية الكبيرة التي واجهها أبي، وكنت مدهوشا من طريقة تعامله مع هذا الحدث، فالرجل الذي تخشاه بلد بأكملها، خرَّ على ركبتيه أمام هذه المسألة العائلية الصغيرة، فالرجل القوي فكر بأعصاب باردة في مسألة تبدو شائكة وتمسه شخصيا. لم يتعامل بردة فعل ولم يفكر في الانتقام، فكر في صورته في حال تم انكشاف الحدث على نطاق واسع، وهو الرئيس المرهوب، أن ابنته تهرب منه مع رجل أحبته واختارته، وهو من يدير بلد بكفاءة عالية أخضعها بمزيج من المكر والقوة، لا يعرف

كيف يدير أزمة عائلية بسيطة. لقد حرص أبي دائما على صورته بوصفة رجل سورية القوي والصارم ورفعته الدعاية التي تعمل عنده إلى ما فوق مستوى البشر، لقد تم تحويله إلى إله، ومن وصل إلى هذه المكانة لن يسمح لحب ابنته العابثة بكسر هذه الصورة التي عمل على تكريسها طوال عقود وانتزعها بالقتال المر على ألف جبهة وجبهة، وسهر الليالي الطوال للوصول إلى كونه رجلا مرهوبا، اليوم تأتي طفلة تافهة من بيته لتكسر هذه الهيبة، بالتأكيد لن يسمح بذلك.

بالنسبة لي، لم أكن مهتما، لتحب أختي من تشاء هذا خيارها، لكني لست والدها، ولست الرئيس في حينها. استفزت العلاقة أخي الأصغر، فتوعد بأن يقتلها هي وزوجها. أخبره أبي بكل وضوح أن لا علاقة له بالأمر، وعليه أن لا يتدخل في الموضوع نهائيا، فكف عن التوعد، ولكن بقي يحمل الكراهية لهما طوال الوقت، خاصة لزوجها. أما أبي فقد تعامل مع الموضوع بكل هدوء، رغم استفزازه الكبير. كان يملك قدرة هائلة على إخفاء مشاعره الحقيقية، وهي من الأشياء القليلة التي لطالما حسدته عليها. أحاول جاهدا أن أكون مثله في هذا الأمر، أنجح أحيانا، لكن لا أستطيع

ذلك كل الوقت، هو استطاع أن يكون كذلك طوال الوقت، لا أعرف من أين جاء بهذه الموهبة!

لم يخطر لأبي عندما اختار الضابط الذي أجريت عليه الكل الدراسات الأمنية اللازمة للتأكد من ولائه، وأنه يصلح للعمل كحارس ومرافق لابنة الرئيس، أن الخطر سيأتي من هذا الرجل الذي اختاره متزوجا وله عائلة من طفلين. ومن أين يأتي الخطر؟ من الحب المتمرد للفتاة الهادئة على كل تقاليد العائلة التي حاول تكريسها في المنزل. جاء الحب ليخالف كل قواعد السلوك غير المكتوبة في منزلنا. استفزت أمي جدا من سلوك ابنتها، كيف تختار وتحب رجلا غير علوي وتذهب معه في مغامرتها إلى أبعد ما يمكن. أبي منعها أيضا من التدخل في الموضوع، وقرّر أن يتعامل مع الأمر بوصفه أزمة كبرى من أزمات الحكم وليس مسألة عائلية محض، لذلك، كان بحاجة لتعامل معها بحكمة كبيرة، فهو لا ينقصه أزمات عائلية وسط الأزمات التي يعيشها على كل المستويات.

عندما عرف أبي بشأن العلاقة بينهما، لم يقل شيئا، لكن تقديري، أنه اعتبر الحالة طبيعية، وأن هذه العلاقة سوف تنتهي بمجرد فصل الطرفين عن بعضهما، وهو ما فعله

بنقل الضابط من عمله كمرافق لأختي إلى مكان عمل آخر. هذه المرة كان تقديره خاطئا. لقد فعل ذلك على أمل أن تنتهي العلاقة مع الوقت، كان رجلا صبورا جدا. حاولت أختي أن تمرر لأبي أنها تريد الزواج من الرجل، لا يهم أنه متزوج، لقد طلق زوجته، دون أن تتلقى إجابة بهذا الشأن، تجاهل أبي الموضوع مراهنا على الوقت، مثلما راهن في الكثير من القضايا الأخرى ونجح. أختي كانت تهرب بطريقة ذكية من مرافقتها الأمنية لتقابل الرجل الذي أحبها فعلا، وكان مستعدا أن يفعل أي شيء من أجلها، كان أبي يعرف أنها تهرب من الحراسة وتقابله وتعامل كأنه لا يعرف شيئا. كلما طال الوقت على نقل الرجل من مكان عمله بحراستها، دون أن يرد عليها أبي بالرفض أو القبول، كانت أختي تشعر بالإهانة وتتعلق بالرجل أكثر. وكان الأكثر استفزازا بالنسبة لها، أنه يتجاهل طلبها بالزواج من الرجل، لا يقبله ولا يرفضه. أدركت أن أبي يسعى لان يتعفن حبها ويموت مع الوقت. قرّرت أن لا تنتظر قراره، وأن تذهب مع حبها إلى النهاية بقرار انتحاري، لأنها لم تكن تعرف ماذا ستكون ردة فعل أبي على قرارها بالزواج من الرجل رغما عن

إرادته، كانت قابلة بالنتيجة، حتى لو أدى هذا التصرف إلى قتلها على يد أبيها.

عندما اختفت أختي من المنزل، أدرك أبي أنها هربت مع رجلها، قبل أن يعرف أنه اختفى أيضا، لقد وصلت المعلومات سريعا إلى أبي بأنهما اختفيا في مدينة دمشق ولم يكن هذا هو المهم. كان المهم بالنسبة له أنه عرف أنها اتصلت بالسفارة الفرنسية، لتبحث معهم إمكانية إخراجهما من البلد بطريقة آمنة، ومنحهما اللجوء السياسي في فرنسا هي وزوجها. وهذا ما اعتبره أبي خطرا كبيرا ولا يمكن السماح به، ويجب معالجته سريعا. طلب من رئيس الاستخبارات العسكرية معرفة مكان إقامتهما بأسرع وقت ممكن، وبأقل عدد ممكن من الأشخاص المطلعين على هذا الموضوع، وسرعان ما عرف أنهما يختفيان في منزل في منطقة المزة في دمشق. وعندما عرف العنوان، وضع عليه مراقبة أمنية صارمة طوال الوقت على أن يتم إعلامه بكل تحرك مهما كان بسيطا من قبل كل القاطنين في المكان. بعد أن عرف مكانهما، استدعاني، دخلت إلى مكتبه في البيت، لم ألاحظ أي انفعال على وجهه، كان هادئا جدا. طلب مني الجلوس، نظر إليّ وقال بهدوء: «نريد حل المسألة بأسرع وقت ممكن.»

كنت أعرف انه يغلي في داخله، لكن لم يبدِ أي تأثر. قلت «أنا مستعد لفعل أي شيء لإنهاء المشكلة.» وجهي فضح دهشتي، انتبه، واعتبرها تساؤلا عن تعامله بهذا البرود مع مشكلة حرارتها عالية جدا تخص واحدا من أبنائه. ذكرني بتعامله مع وفاة أخي الكبير، في ذلك اليوم لم يبدِ أي تأثر، على العكس، كان أقلنا تأثرا، لوّح للشعب المحتشد وهو مبتسم، وكأن الميت لا يمت له بأي صلة قربى. كان حياديا تماما تجاه وفاة ابنه، حتى أنه أعد الجنازة وكأنها جنازته التي لن يحضرها. كان الجميع يبكون وزراء ومسؤولين وأقارب، هو كان المبتسم الوحيد في ذلك اليوم الحزين. تقول أمي «أنه أغلق الباب على نفسه وبكى» وعندما سألتها إذا كانت قد رأته يبكي، أو رأت أثر الدموع في عينه، أجابت بالنفي. لا أعتقد أنه بكى، لم يكن في آلته الداخلية مكان للبكاء، كل شيء مشكلة بحاجة إلى حل، وعندما نحتاج إلى مشكلات لتعزز وضعنا، إذا لم تحصل لوحدها، نصنعها بأيدينا. في السياسة ليس عليك انتظار الأحداث ليكون تعاملك معها رد فعل، هناك الكثير من الأشياء التي نتعامل معها بهذه الطريقة، وهي طريقة البشر العاديين في التعامل مع مشاكلهم وقضاياهم. عندما تكون صانع سياسة، فعليك في

كثير من الأحيان أن تصنع الحدث الذي يناسبك، أن تخترعه من العدم حتى لو لم يكن له أي أساس في الواقع، هذا الدرس تعلمته من مراقبتي لممارسته السلطة على مدى طويل. حتى يبدد الدهشة التي وجدها على وجهي بادر فورا للقول: «عليك أن تعلم وتتعلم درسا أساسيا، عندما تكون الشخص الرئيسي في بلد، عليك إن تترك كرامتك الشخصية خارج المنصب، والأفضل أن تقتل الكرامة طالما تعرضك لمعارك خاسرة. في السياسة ليس هناك كرامة، أحفظ الدرس جيدا، وفي نفس الوقت، يجب أن لا تكسر صورتك إمام الآخرين بصفتك المدافع عن كرامة أمة ووطن وشعب.» كانت هذه من المرات النادرة التي وجه لي فيها كلاما تعليميا في السياسة، لقد فهمت الدرس، وكان مفصليا في حياتي بعد ذلك. أضاف «المهم الآن، أن نحل هذه المشكلة حتى لا تتحول إلى مشكلة أكبر. فمن الممكن أن يدمر حب طائش السياسة.» مد يده اتجاهي بورقة، أخذت الورقة وهو يقول «هنا عنوان البيت الذي يوجدان فيه ورقم الهاتف أيضا، عليك مقابلتهما، وان تحمل تعهدا مني بسلامتهما، بأن لا أقربهما، على أن يعودا لنعلن زواجهما على أضيق نطاق، وتعود الأشياء إلى طبيعتها.» قلت: «هل من شيء محدد يمكن

أن أفعله؟» أجاب: «افعل الأمر بطريقتك.» فاجأني التخويل، فهو غالبا ما يرسم تفاصيل الخطوات التي يجب على الآخرين إتباعها. خرجت من عنده ولا أعرف ما الذي عليّ فعله بالضبط، ظهر التكليف كاختبار حقيقي، في واقع حقيقي، ومشكلة حقيقية وحساسة. كنت خائفا أن تفلت القصة من يدي، شعرت هذه المرة إذا كان من الصحيح أنه لا يريد أن يعرف الكثير من الغرباء عن هذا الموضوع، ولكن من الصحيح أيضا، أنه يريد معرفة كيف سأتعامل مع هكذا مشكلة، وهل استطيع أن أفعلها، كنت متأكدا أن عنده أكثر من بديل، كان يتوقع فشلي دون أن يتمناه أيضا، دائما وفي كل الأزمات كبيرها وصغيرها كان عنده بدائل متعددة، لم يكن أمامي خيار آخر سوى النجاح. فكرت في الاعتذار عن المهمة، لكني لم أجرؤ. وكان علي هذه المرة أيضا أن أحل الموضوع دون استشارة أحد.

عندما خرجت من عنده، تحركت بسرعة. ذهبت إلى مكتبي، وطلبت رقم هاتف البيت الذي يختبئان به، في المرة الأولى والثانية لم يرد أحد، في المرة الثالثة رفعت أختي سماعة الهاتف، لم أكن خططت لما سأقول، كنت أعرف أنها خائفة ومذعورة، وأعرف إنها تحتاج إلى منقذ من الوضع، لم

تقل حتى ألو. بدأت أنا الكلام قلت: «لا تخافي أختي، أنا أخوك...» وقبل أن أكمل كلماتي أغلقت الهاتف، عدت إلى الاتصال من جديد، لم ترد إلا في المرة السادسة، ويبدو أنهما تداولا في الأمر، وقدرا أنه طالما عرفت أنا رقم هاتف مكان اختبائهما، فلا شك بأن أبي قد عرف أيضا واتخذ إجراءاته الأمنية بمتابعتهما وملاحقتهما، زوجها رجل يعرف كيف تعمل الأجهزة الأمنية في البلد، فقد خبر متاهات المخابرات التي عمل فيها، ومرّ بتجربتها عندما تم ترشيحه ليكون مرافقا شخصيا لأختي. قرّرا أن يستمعا إلى ما سأقول، عندما رفعت السماعة أخيرا قلت: «مرحبا أختي، لا تخافي أنا معك، وسأساعدك بكل ما أستطيع...» لم يصدر منها أي صوت، لكني كنت أعرف أنها ما زالت تستمع، قلت لها: «سآتي لزيارتكم حالا، إن لم يكن عندك مانع، وسأرتب لك الخروج الذي تريدين، وستكونين راضية. أرجوك لا تتحركي من مكانك، سأحميك مهما كلف الثمن، نصف ساعة وسأكون عندك.» قالت لي في ما بعد، أنها كانت أطول نصف ساعة في تاريخ حياتها، صحيح أنها قرّرت أن تدفع حياتها ثمن قرارها، لكن أن تقرّر شيئا نظريا، وأن تواجه استحقاق دفع الثمن فعلا، مسألتان مختلفتان، فنحن

نقرّر أننا مستعدون لدفع أغلى الأثمان، لكننا في الواقع لا نريد دفع أي ثمن.

وصلت إلى المكان في أسرع وقت، عندما فتحت أختي الباب كانت علامات الرعب ظاهرة على وجهها، فهي تعرف، إذا الرئيس قرّر المس بها، لن يردعه أي شيء، وتعرف أي رجل عنيد هو. كان الرجل خائفا ومرتبكا أيضا، لكن أقل منها، كنت التقيته مرات عابرة عندما عمل مرافقا لأختي، لكنها المرة الأولى التي أقابله بوصفه على علاقة حب بها. ألقيت عليه السلام، وصافحته بقوة، وأبديت كل علامات الاحترام. لم أكن متوترا أو خائفا، على العكس كنت معتدل المزاج، حتى بدوت أنني مرح لتخفيف الثقل عنهما. قلت لها «الخوف ظاهر عليك، طالما أنت أختي عليك أن لا تخافي من أي شيء، أنا معك في كل الظروف.» لم تكن كلماتي قادرة على تهدئتها، ولكن يبدو أن هدوئي هو الذي بدأ يطمئنها. قلت: «لا أريد أن أتكلم كثيرا في الموضوع، الموضوع حصل وانتهى، وأنا تكلمت مع أبي في الموضوع وأخذت منه تعهدا وضمانا لكما أن تستمرا في حياتكما الزوجية معا. لكن ما أغضب أبي، ليس زواجكما، إنما اتصالكما بالسفارة الفرنسية لتجد لكما

حلا للخروج من البلد. كان عليكم أن تخبراني وكنت أنا تصرفت، لم تكونا بحاجة إلى هذا السلوك الخاطئ.» نقلّت نظري بينهما، كانا مدهوشين من الكلام الذي يسمعانه. سألت أختي باستغراب: «هل ما تقوله صحيح... أنك حصلت لنا موافقة أبي على زواجنا؟!» قلت لها بصرامة: «وهل تعرفين أني أمزح في مثل هكذا قضايا.» قالت: «وما هي الضمانات؟» قلت: «أنا الضمانة.» تدخل الرجل وقتها، وقال: «نحن ندين لك بذلك، ونثق بك ومستعدان أن ننفذ كل ما تقول.» نظرت أختي إلى زوجها وهزت رأسها موافقة. قلت «المسألة محلولة... عليكما الانتقال فورا إلى مكان آخر وأن تخضعا للحراسة الأمنية، ولا تعتبرا ذلك نوعا من التقييد لحركتكما، اطلاقا، أنه مجرد حماية لكما، فأنا لا أريد أي خطأ في هذا الموضوع، يتسبب بمشكلة كبيرة... اتفقنا؟» نظرا إلى بعضهما وأجابا معا: «اتفقنا» لم يكونا مقتنعين فعلا أنني قد حصلت لهم على ضمانات من الرئيس، وبقيّا طوال الأشهر اللاحقة متوجسين من حادث ما يدبر لهما أو لأحدهما. في البداية كنت أزورهما كل يوم، لو لخمس دقائق، وبعد ذلك تباعدت الزيارات، ولم يطمئنا إلى أن لا شيء سيحدث لهما، إلا عندما مات أبي.

عندما زرتها بعد وفاة زوجها. قلت لها: «لا أجد كلاما أقوله لك، كل الكلمات تسقط أمام حزنك. أنا أعرف أي رجل كان بالنسبة لك، وأنت لا تعرفين أي رجل كان بالنسبة لي. لقد كان رجلا ولا كل الرجال.» لم تستطع الرد، لكنها غرقت في دموعها، كانت الصدمة قوية عليها. قلت لها: «لقد قام بواجبه على أكمل وجه، لم يكن رجلا جبانا، لقد كان بطلا واجه الموت عدة مرات دون أن يرف له جفن.» ردت بمزيد من البكاء. تلك الشابة التي تحدت أبي صاحب السطوة، تنهار، صحيح أن خسارتها كبيرة، لكن اعتقدت أنها أقوى من ذلك، فهي تعرف أن أي واحد منا عرضة لمثل هكذا مصير، وإمكانية أن يصيب أي منا مكروه بفعل فاعل، إمكانية موجودة من أيام أبي ومن صراعات كثيرة خاضها وراكمت الكثير من الأعداء، الذي لا شك فيه، أنهم فكروا في إيذائه عن طريق أبنائه، طالما لا يستطيعون الوصول إليه. لكن ذلك لم ينجح، بسبب الإجراءات الأمنية المشدد، وبسبب من حظنا السعيد، وعندما قتل أخي كانت يد القدر من خطفه ولم تكن يد أي شخص آخر. مع انفجار الحرب علينا، والتي فاقت مخاطرها كل المخاطر التي عشناها في زمن أبي، كان من الطبيعي أن

تزداد مخاطر أن يصيبنا أذاها بشكل أو بآخر، لقد أشعلوا النار في البلد، ولا يمكن أن نطفئ النار دون أن نصاب بحروق، وفقدان أحبتنا أصعب هذه الحروق.

لم يكن فقدها لزوجها سبب حزنها فحسب، كان حزنها كبير لسبب آخر أيضا، عرفته في ما بعد. عندما طلبت مقابلتي لشأن خاص بها، وافقت على الفور، لم أكن لأرد لها طلبا وهي المرأة المصابة بأعز ما تملك. في اللقاء، طلبت مغادرة البلد مع أبنائها إلى بلد خليجي، فهي لم تعد قادرة على البقاء في البلد بعد مقتل زوجها، كما قالت. قدرت آلامها وحزنها ورغبتها بالابتعاد عن المكان الذي شهد مقتل زوجها الذي أحبته. حاولت اقناعها بالبقاء لأني أريدها أن تبقى قريبة مني، كما قلت لها. لكن أمام إصرارها وافقت على مغادرتها. شعرت أنها رغبة امرأة منكوبة في الابتعاد عن المكان الذي نكبها، وعيش حزنها بطريقتها الخاصة، وهذه ليس أي امرأة، أنها أختي. عندما تحدثنا حديثنا الأخير، شعرت في نظراتها شيئا غريبا، من بين حزنها ودموعها كانت هناك نظرة غير ودية تحاول إخفاءها دون أن تنجح في ذلك. لم أسألها عن سبب تلك النظرة العدائية، اعتقدت أنها نظرة لوم، بصفتي المتسبب بموت الرجل من

خلال تكليفي له بمهمات خطرة، لذلك، تجاهلت نظرتها العدوانية واعتبرت نفسي مخطئا في ما أرى. كان اللقاء قصيرا، فهي لم ترغب كثيرا في الكلام، ولم يكن هناك الكثير يقال، بمجرد حصولها على موافقتي على مغادرة البلد، اعتذرت طالبة المغادرة إلى بيتها، لأنها تعرف كم أنا مشغول في ظل الأوضاع التي تعيشها البلد. أذنت لها بالذهاب.

بعد أن غادرت البلد، عرفت من أوساط العائلة، من أين أتت تلك النظرات غير الودية. عرفت أنها تعتقد أني شخصيا كنت وراء التفجير الذي أودى بحياة زوجها ورفاقه في مبنى الأمن القومي، أي لا تلومني لأني كلفته بمهمات خطرة، بل تلومني لأنها تعتقد أني شخصيا من قام بقتله. كل ذلك بسبب إشاعات راجت بعد مقتلهم، تقول إن رجال خلية الأزمة كانوا يعدون انقلابا ضدي، وأني قمت باستباقهم والقضاء عليهم قبل أن ينقضوا عليّ. وأن لا أحد يمكنه الوصول إلى كل هذه الشخصيات دفعة واحدة، سوى أشخاص يعملون معي مباشرة. فهناك استحالة الوصول إلى مبني الأمن القومي إلا من داخله، بسبب الإجراءات الأمنية الشديدة المتخذة فيه، وبالحرص على اختيار المخلصين من أجل حماية المقر الذي كانت تجتمع فيه اللجنة الأمنية العليا أو ما عرفت باسم

«خلية الأزمة» دوريا. إني قمت بهذا العمل، على اعتبار أن اللجنة الأمنية تميل إلى الحل السياسي، وأنها تعارض خياراتي باجتثاث الإرهاب نهائيا، مهما كانت الكلفة، وعندما لم أوافقهم الرأي قرّروا التحرك ضدي لكني سبقتهم بالقضاء عليهم. إنها إشاعات وأكاذيب. صحيح أن زوجها كان مع خيار تقديم تنازلات من أجل الوصول إلى حل، فالاستجابة للكثير من المطالب التي نادى المتظاهرون بها، يمكن تنفيذها، ولا تمس بجوهر السلطة، وهذا لم أكن أختلف عليه مع أحد. وأعرف أن شعار «الشعب يريد إسقاط النظام» جاء بعد أشهر من الاحتجاجات، إذا استثنينا الشعارات التي كتبها الأطفال في درعا قبل الأحداث، وهي شعارات طفولية. لقد تكلم معي بصراحة، ولم أعتبر هذا الكلام انشقاقا عن النظام، أو نوعا من التآمر عليّ. حتى عندما اعتبر أن الشعارات التي ملأت البلد، والتي تقول «... أو نحرق البلد» شعارات مستفزة لكل مكان تكتب به، شعارات تهديدية بمصير سيء إذا لم تخضعوا للدولة التي أمثلها أنا ستنالون مصيرا كجهنم. في البداية ملت لوجه نظره في التعاطي مع الأزمة وكنت أفكر بمشروع تغيير أكبر من تصوراته بكثير، لكن الصورة من عندي اختلفت عن الصورة من

موقعه. لم تكن القصة قصة مطالب محقة، بل كانت مؤامرة على البلد في غاية الوضوح، وأعمى كل من لا يريد أن يراها. ولو كانت القضية قضية مطالب محقة ومستقبل أفضل، كنت أول من يأخذ الإجراءات الشجاعة للذهاب إلى مستقبل أفضل للبلد، لكن من أجل هذا المستقبل الأفضل، يجب حماية الدولة ومؤسساتها من التخريب أولا، لذلك لم أرَ ضررا في الشعار الذي رفع مبكرا والذي يقول: «... أو نحرق البلد» فهو شعار يلخص المرحلة، فأنا عنوان الدولة، وأنا الرئيس الشرعي، والتمرد عليّ هو تمرد على الشرعية، كيف إذا كان هذا التمرد مجبولا بمؤامرة متعددة الأطراف والكل يصرح بها علنا؟! هذا الشعار هو التلخيص بأن الشرعية مساوية للبلد والبلد بلا شرعية لا يعني شيئا، هو مجرد مكان للمؤامرة، علينا أن نخوض هذا الصراع إلى نهايته، وليس أمامنا خيار سوى الحصول على نتيجة واحدة، هي الانتصار، وأي نتيجة أخرى، تعني مذبحة جماعية كبرى تطيح بنا جميعا، أنا أولهم. ورغم معرفتي بوجهة نظره لم أستبعده من المهمات ولم أعتبر ذلك يستدعي استبعاده، وعندما اخترت المواجهة مع المؤامرة، لم يتردد في الانضمام إليّ كجندي شجاع وأكفأ من ينفذ الأوامر. لكن، ليس

هذا ما كانت أختي تعتقده، فهي تعتقد أني استخدمت الرجل في مهمات قذرة من أجل توريطه والمحافظة على ولائه، خاصة أنه لا ينتمي إلى الطائفة العلوية، وعندما اعتبرته يشكل خطرا علي، تخلصت منه ومن غيره في المجموعة التي قضت في الانفجار. لا أعرف كيف فكرتْ، بأن المرء القريب مني يحتاج دائما إلى تقديم المزيد من معطيات الولاء، والتوريط في مهمات قذرة، واحدة من هذه الأدوات التي تجعلني أُقرّب الآخرين مني. وأن هذا ما قمت به لأنه، ببساطة، ينتمي إلى الطائفة السنية التي لا نثق بها حسب رأيها. لم أكن أستطيع تغيير هذا الاعتقاد خلال لقاء سريع، فهي امرأة قوية وعنيدة وتتمسك بما هي مقتنعة به. بعد مغادرتها، لم يعد هناك إمكانية لمحاورتها، فأنا أصلا لا املك الوقت لمجادلاتها. قلت سأتركها حتى تنتهي معركتي مع الإرهاب وأعود لأصلح الوضع معها، رغم غضبي من طريقة تفكيرها. فكرت أن أرسل لها تقرير التحقيقات الذي تحدث عن كيف تم تنفيذ العملية، لكني غيرت رأيي في آخر لحظة. فمنذ غادرتْ البلد، التزمت الصمت، لم تُصرح بأي شيء يمس أو يسيء إلى البلد، ولم يُسمع لها صوت أو يعرف عنها ظهور علني، وهذا سأحفظه لها.

كشفت التحقيقات والمعلومات التي وصلتنا من رجالنا داخل تشكيلات الإرهابيين، أن العملية جرت بتخطيط دقيق ومحكم. لم يكن التفجير انتحاري كما تناقلت الأخبار، ولم يكن من خارج المبنى، إنما كان من داخله، حتى أن المبنى بقي سليما تماما من الخارج. استخدمت في العملية عبوة صغيرة لكنها فعالة جدا نظرا للمكان الذي تم وضعها فيه. استطاع إرهابيو مدينة دوما تنظيم مجند يعمل مراسل في حراسات اللواء مسؤول مكتب الأمن القوي، ولأن الإجراءات الأمنية لا تسمح بإدخال أي عبوة متفجرة جاهزة، فالتفتيش كان شديدا ودقيقا عند الدخول للمبنى، حتى بالنسبة إلى العاملين هناك. وبسبب من هذه الإجراءات المشددة، تم تصميم عبوة ناسفة بسيطة يمكن تجميعها من شخص غير خبير بالمتفجرات، وهو ذاته الجندي الذي أدخل العبوة. تم تقسيم المادة شديدة الانفجار إلى أجزاء صغيرة وإدخالها عبر علبة سجائر على دفعات على مدى أسابيع. ولم يلتفت الحرس إلى أن الرجل يحمل علبة السجائر لا يدخن أصلا. لم يتجاوز وزن العبوة كيلو غراما، ربطت عبر صاعق صغير مع جهاز هاتف محمول، ووضعت أسفل طاولة اجتماعات لجنة الأزمة. عندما بدأ الاجتماع، أعطى المجند إشارة متفق عليها إلى

مُجندِيه، الذين اتصلوا بالهاتف الموصول بالعبوة ما أدى إلى تفجيرها في وجه من حاضروا الاجتماع. والناجي الوحيد من التفجير، وزير الداخلية، كان قد غادر الطاولة ليجلب حقيبته التي تركها على طاولة موضوعة قرب المدخل. ومن التحقيقات تبين أن شريحة الهاتف التي استخدمت في التفجير تعود لأحد مقاتلينا قتل في الاشتباكات مع الإرهابيين التي دارت في محيط فرع أمن القوى الجوية في منطقة حرستا. والمجند الذي قام بالعملية، قد فرّ إلى تركيا، وقدم تقريرا مفصلا عن كيفية تنفيذ العملية إلى أسياده.

جاء تفجير مكتب الأمن القومي، ضمن عملية مخططة لهجوم كبير على مدينة دمشق سماها الإرهابيون «بركان دمشق» حيث ترافق التفجير مع عدة هجمات للعصابات الإرهابية في الغوطة الشرقية وفي جنوب دمشق اعتقادا منهم، أن عملية بهذا الحجم مع عدة هجمات في عدة مناطق مختلفة يمكن للدولة أن تتهاوى. كان مخططهم الأصلي يقوم على التخلص مني، لكنهم لم يستطيعوا الوصول إليّ، فكان تفجير مكتب الأمن القومي الخطة المتوفرة لهم. أعدو مخططات كثيرة للتخلص مني، حاولوا بث الإشاعات لزعزعة الدولة، التي لم يعتقدوا هم وأسيادهم أنها ستبقى

متماسكة أمام ضخامة الهجمة، واعتقدوا أنهم بوصولهم إلى هؤلاء القادة سيكونون قادرين على زعزعة النظام. كانوا مخطئين، نعم كانت الضربة موجعة لي. لكنها لم تكن مميتة، والضربة التي لا تُميتك في الحرب تقويك. إنها حرب على كل شيء في سورية وليس فيها خطوط حمراء، المؤامرة، حطمت كل الخطوط الحمراء، واليوم لا حصانة للإرهابيين أينما كانوا، خاصة بعد محاولتهم استهدافي. صباح عيد الفطر وفي الطريق إلى الجامع الأموي من أجل صلاة العيد. سار موكب الرئاسة انطلاقا من بيتي في المهاجرين باتجاه سوق الحميدية حيث يقع الجامع، فقد قرّرت الصلاة هناك. كنت أستخدم موكبين في تنقلاتي كإجراء أمني موروث من أيام أبي، موكبا وهميا، وأخر أكون فيه. أحيانا أركب في الموكب الأول وأحيانا في الثاني. وعندما وصل الموكب الثاني الذي استقله إلى ساحة الأمويين، دوت أربعة انفجارات قوية في محيط الموكب، اهتزت السيارة التي أركبها بقوة لقرب الانفجارات منها، كانت الانفجارات بفعل صواريخ سقطت في محيط المكان. استهدفت الصواريخ موكبي وليس أي شيء آخر. وخوفا من أن يكون هناك المزيد من الصواريخ. انعطف الموكب ودخل

إلى مبنى هيئة رئاسة الأركان القريب والمطل على الساحة. كنت غاضبا أكثر مني خائفا من استهداف الموكب، عندما صعدت إلى غرفة العمليات في مبني الأركان، كان التوتر الشديد سائدا بين الضباط هناك. من المفاجئ أن يستهدف الإرهابيون موكبي ويعرفوا توقيته ويعرفوا الموكب الصحيح من الوهمي. طلبت معرفة مصدر الصواريخ فورا، وبعد قليل جاء الجواب، أن الصواريخ التي سقطت في ساحة الأمويين مصدرها مدينة دوما في الغوطة الشرقية. وسرعان ما أعلن الإرهابيون أنهم استهدفوا موكب الرئيس وأنهم أصابوا الموكب إصابات مباشرة، وهذا انتقاما لمجازر النظام التي ارتكبها الجيش السوري في الغوطة الشرقية. عرفت وقتها، أني كنت مستهدفا وأن سقوط الصورايخ عند مرور الموكب أمام مبنى الأركان ليس صدفة، على اعتبار أن الأركان هي المستهدفة، والصدفة وحدها جعلته يترافق مع مرور موكبي. أصبحت أكثر غضبا. طلبت مدير المخابرات الجوية وأصدرت الأوامر بالرد على إطلاق الصورايخ فورا، وتعليم هؤلاء الإرهابيين ومدينة دوما درسا قاسيا لتجرؤهم على الرئيس، وأن لا يبخل عليها بالبراميل المتفجرة.

أمرت بنقل صلاة العيد إلى جامع أنس بن مالك القريب من القصر الرئاسي بالمهاجرين ونقل المسؤولون سريعا إلى المكان الجديد، على أن يتكفل جهاز الأمن بحشد المصلين من رجاله. وبعد أن اكتملت الإعدادات في الجامع الجديد، أمرت الموكب الذهاب إلى هناك. وجرت الصلاة بشكل طبيعي وكأن شيئا لم يكن، وعندما بدأ الموكب في التحرك إلى جامع أنس بن مالك من جديد، كانت المروحيات ترسل البراميل المتفجرة تهنئة العيد إلى الإرهابيين في دوما على فعلتهم معي.

تابعت التحقيقات بعد ذلك لأعرف كيف جرت العملية وكيفية حصولهم على المعلومات عن موكب الرئاسة الصحيح، لم تصل التحقيقات إلى حقائق محددة. لكن التقديرات تقول، أحد ما أعطى إشارة لإرهابيين في دوما أن الموكب يتحرك، وحاولوا حساب وتقدير الوقت الذي يمكن أن تكون سيارات الموكب في الساحة والوقت الذي تحتاجه الصورايخ للوصول من دوما إلى ساحة الأمويين. كانوا يعرفون أن صواريخهم لا تتمتع بالدقة حتى تصيب هدفها المتحرك، لكنهم راهنوا على خدمة الحظ في الوصول إليّ. كان التقدير مقنعا. لكن لم اعرف كيف حصلوا على

المعلومات حول الموكب الصحيح، أم أن الصدفة كانت وراء تحديدهم الموكب الصحيح، وأنهم قرروا استهداف الموكب، بصرف النظر إن كان الصحيح أم الوهمي، واعتمدوا أيضا على الحظ الذي وقف إلى جانبهم في هذا التقدير، إن لم يكن لديهم معلومات فعلا عن الموكب الصحيح.

بعد هذه العملية وصل التصعيد إلى ذروته، حيث تم ضخ الكثير من الأسلحة والأموال في الغوطة الشرقية، جاء السلاح من دول الخليج وقد تم إدخاله عن طريق الأردن. الكم الكبير من الأسلحة والمال الذي وصل، جعل الإرهابيين يشعرون بالقدرة على التأثير على العاصمة وولد عندهم الوهم بأنهم يستطيعون اجتياحها بقواتهم المهلهلة، وفي ظل تهديدات أميركية وضعت خطا احمر على استخدام الأسلحة الكيمياوية، كما أعلن عنها الرئيس الأميركي. لذلك قام الإرهابيون بهجوم مباغت على كل المواقع المحيطة بدمشق. بدأت مواقع الجيش تتهاوى وأخذت حالة الانهيار والذعر تنتشر في مواقع الجيش الأمامية، وكان لا بد من وقف هذا التقدم بأي ثمن. عندما أخبروني أن وضع قواتنا صعب ولا بد من فعل شيء استثنائي لوقف الهجوم وإعطاء

الفرصة بترميم صفوفنا. أنتظر الجميع قراري، بشأن استخدام الأسلحة الكيماوية التي اقترح رئيس فرع المخابرات الجوية استخدامها، فقسم منها موجود تحت أمرته في مطار المزة العسكري بوصفها قاعدة إطلاق لها، أمرته بإعداد صواريخ أرض - أرض الملائمة وتزويدها برؤوس كيمياوية للرد على الهجوم، بحيث تكون جاهزة للإطلاق في أي لحظة وإعلان أقصى حالات الاستنفار في مواقع إطلاق الصورايخ، واطلاعي في كل لحظة على الأوضاع الميدانية على الجبهات. ذهبت بنفسي إلى غرفة القيادة في مبنى هيئة الأركان قرب ساحة الأمويين، بعض ضباط الأركان بدوا متوترين، قلت: «لا داعي للتوتر، إنها مجرد معركة في حرب طويلة، لا داعي للقلق، ليس هناك أي فرصة للإرهاب في النصر ولو ربح معركة هنا وأخرى هناك.» كانت التفاصيل تقول أن مواقعنا تنهار في حرستا ودير العصافير والمليحة وغيرها من المواقع في الغوطة الشرقية، وبعض الإرهابيين دخل جنوب الميدان من المناطق الجنوبية وقواتنا تنسحب. كانت القاعدة الجوية في المليحة تتعرض لضغط عسكري شديد من الإرهابيين، ليس من أجل موقعها فحسب، بل لاعتقادهم أنهم سيغنمون منها الكثير من الأسلحة، كان من المعروف أن فيها مستودعات

أسلحة إستراتيجية للجيش. شق الإرهابيون طريقهم باتجاه ساحة العباسيين من حرستا ومن جوبر، وشقوا طريقهم من الجنوب باتجاه الميدان. بدأ السكان المقيمون في جرمانا والمنطقة الممتدة من باب شرقي حتى البانورما عند ساحة العباسيين يهربون باتجاه قلب دمشق، وأصوات القصف المتبادل تسمع في كل مكان في دمشق وريفها. لقد تم احتواء هجوم الإرهابيين ووقفه في جنوب الميدان، وأخذ الإرهابيون بالتراجع إلى مواقعهم القديمة. لكن في الغوطة الشرقية كان الوضع مختلفا ، فالهجوم اعنف بكثير من الهجوم المتواضع في الجنوب. عندها قدرت أن الوقت قد حان، نظرت إلى رئيس فرع القوى الجوية الذي كان حاضرا إلى جواري في مبنى الأركان، وقلت: «الآن، فلتقصف كل مواقع التجمعات الإرهابية بلا رحمة.». قصفت مواقعهم في الغوطة الشرقية بوابل من الصورايخ الكيمياوية، شكل القصف مفاجأة وصدمة للإرهابيين، وخلال ساعات توقف هجومهم، وأخذت كثافة نيرانهم تتراجع، وبدأت قوات الجيش تستعيد المواقع التي خسرتها هناك، وبدا الإرهابيون مشغولين بقتلاهم وجرحاهم.

في اليوم التالي خرجت اتهامات الإرهابيين في الغوطة، تقول، باستخدام الجيش للأسلحة الكيميائية ضد المدنيين، وكان هذا افتراء، لأن الصواريخ أصابت أهدافها بدقة، وأوقعت الكثير القتلى والجرحى في صفوف الإرهابيين، ولم تستهدف المدنيين إطلاقا، ما جعلهم يرتدون على أعقابهم. وما لم يستطيعوا استثماره عسكريا حاولوا استثماره إعلاميا وسياسيا، وحاولوا استثمار الوضع لصالحهم باتهامهم للقوات الحكومية بارتكاب مذبحة ضد المدنيين بالأسلحة الكيمياوية. قد يكون سقط بعض المدنيين في القصف، ولكنهم لم يكونوا المستهدفين بالهجوم، ومن الطبيعي أن يسقط ضحايا بريئة في صراع بهذه الدموية وهذا الشمول. لكن جثث الأطفال التي صوروها والأرقام التي ذكرت من مقتل حوالي ١٥٠٠ شخص معظمهم من الأطفال وإصابة أكثر من٦٠٠٠ بجروح مجرد دعاية رخيصة لحشر الحكومة، بعد فشل هجومهم على دمشق وردهم إلى مواقعهم السابقة، وزرع الرعب والإحباط في صفوفهم وصفوف أسيادهم. توالت الإدانات من الدول الداعمة للإرهاب على رأسها السعودية ودول الخليج وفرنسا وبريطانيا... الخ. وطلب الأمين العام للأمم المتحدة منا السماح لخبير الأسلحة

الكيميائية السويدي الموجود في دمشق معاينة المواقع التي يُقال أنها تعرضت للهجوم بالأسلحة الكيميائية. رحبت الحكومة بذلك، نافية أن يكون جيشنا قد استعمل أي أسلحة كيميائية، ورحب في تحقق رئيس المفتشين الدوليين من ذلك، لكنها قالت: أن المواقع التي يُدعى الإرهابيون أنها تعرضت للقصف لا تقع تحت سيطرة القوات المسلحة السورية، لذلك لا تستطيع الحكومة ضمان أمن المفتش وفريقه. وقد أدانت أميركا استخدام السلاح الكيماوي ودعت إلى محاسبة الفاعلين، لكن بيان البيت الأبيض لم يأتِ على ذكر «الخط الأحمر» الذي هدّد به الرئيس الأمريكي، بشأن استخدام الأسلحة الكيماوية. حتى أن قائد الجيوش الأميركية، كان له تصريحات واضحة بشأن أية حرب أميركية على سورية، تقول: «إن أي تدخل عسكري أميركي في سورية لن يكون في مصلحة الولايات المتحدة لأن مقاتلي المعارضة السورية لا يدعمون المصالح الأميركية. إن المعسكر الذي نختار دعمه يجب أن يكون مستعدا لتعزيز مصالحه ومصالحنا عندما تميل الدفة لمصلحته. الوضع حاليا ليس كذلك. بإمكاننا أن ندمر الطيران السوري، المسؤول عن الكثير من عمليات قصف

المدنيين، لكن لن يكون الأمر حاسما على صعيد عسكري بل سيدخلنا حتما في النزاع. إنه في حال تمكنت القوة الأميركية من تغيير التوازن العسكري فهي لن تكون قادرة على حل المشاكل الاثنية والدينية والقبلية التاريخية التي تغذي النزاع. الاضطرابات في سورية ذات جذور عميقة. انه نزاع طويل الأمد بين فصائل متعددة والصراع العنيف لتولي الحكم سيستمر بعد نهاية الحكم القائم. إن أي تدخل عسكري أميركي سيكون له أيضا تداعيات ستضعف من أمن حلفائنا وشركائنا.» الكلام واضح، ليس لأميركا مصلحة في التدخل، ولكن الرئيس الأميركي كان قد تورط في تصريحات حول «الخط الأحمر»، وهو غير جاد بها، وعندما وجد نفسه متورطا في الأمر، ذهب إلى الكونغرس من أجل الحصول على موافقته من أجل توجيه ضربة لنا، كان يعرف سلفا أن الكونغرس لن يوافق على منحه إياها، وهو أصلا لم يكن يحتاج إليها لشن هجومه. لكنه أراد أن يكسب الوقت ليجد مخرجا من ورطته.

جاءت مبادرة الحل هذه المرة من المعارضة الداخلية، والتي وجدت قناة فلسطينية للاتصال بالروس عن طريق السفارة الروسية في بيروت، حيث اقترحت المعارضة من أجل تجنب

الضربة الأميركية المتوقعة، أن يتم وضع السلاح الكيماوي السوري في عهدة الروس، على أن تشرف عليه قوات روسية. وعندما سألونا الروس عن هذا الاقتراح، كان جوابنا، أننا نثق بهم، وأنهم حلفاؤنا وهم مؤتمنون على هذا السلاح، وبالتأكيد نحن، لا نرغب بالتصعيد، ولا نرغب في مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة. وأعطيت الأوامر للعمل على هذا الاتجاه، لم يعد من الممكن الاستمرار في نفي امتلاكنا لأسلحة كيماوية، وهي السياسة التي اتبعناها في السابق، نفي امتلاكنا أسلحة غير تقليدية. ولكن بات من الضروري العمل بكل الوسائل من أجل عدم الاصطدام مع الولايات المتحدة. وفي نفس الوقت، هو اختبار إلى أي مدى يمكن أن تذهب أميركا في المواجهة المباشرة معنا.

عندما اتصل الروس بالأميركيين من أجل حل هذا الموضوع، استمع الأمريكيون لما قاله الروس دون تعليق، طلب وزير الخارجية الأميركي التشاور مع الإدارة. بعد اخذ ورد جاء جواب الأميركيين، إنّ بقاء السلاح الكيماوي في سورية حتى تحت الإشراف الروسي لا يحل المشكلة، فهو يُبقي السلاح في متناول النظام، وبالتالي، ما زالت الولايات المتحدة ملتزمة بخطها الأحمر، وما زال علينا أن ندفع ثمن

هذا الخط الأحمر. كان من الواضح أنهم ليسوا جادين في الذهاب بعيدا إلى توجيه ضربة عسكرية لنا. فكان أن رفعوا سقفهم التفاوضي، وقد منحهم الروس منصة النزول من السقف العالي الذي صعدوا إليه. تم الاتصال بهم مرة أخرى، من أجل إيجاد حل للموضوع، قال الأميركيون إنه يمكن تجنب العمل العسكري الأميركي عن طريق واحد، وهو تخلي سورية النهائي عن السلاح الكيماوي عبر تدميره من قبل الأمم المتحدة، وعدم العودة إلى إنتاج المزيد منه. وعلى هامش مؤتمر قمة العشرين، تقدم الروسي بهذا المقترح الذي أنزل الأميركيون عن الشجرة، وطوى الموضوع. ذهبوا إلى مجلس الأمن، حيث صدر قرار بهذا الشأن، تم تكليف الأمم المتحدة في انجاز المهمة. كان الحل في غاية الأهمية بالنسبة لي، فهو دل بوضوح على حدود الموقف الأميركي تجاهنا. وبات من الأكيد بالنسبة لنا، أنه ليس هناك أي خطر أميركي فعلي يهددنا، وليس هناك خطط أميركية للإطاحة بي، فليس هناك أي مصلحة أميركية في التدخل الكامل في ما يجري في بلدنا، وليست على استعداد لدفع ثمن صراع لا تجد فيه مصلحة لها. صحيح أنها أحد الفاعلين في تأزيم الوضع الداخلي عندنا، لكنهم لن يذهبوا بعيدا،

ليختاروا الفوضى بديلا عني. وهذا ما تبين بشكل واضح في ما بعد، بشن حربهم المحدودة على داعش، ورفض شن الحرب علينا رغم كل الدعوات للتدخل العسكري الأميركي من بعض دول المنطقة ومن المعارضة العميلة التابعة لها. فمن الواضح بالنسبة لهم، أنه إذا كان الخيار بيننا وبين الإرهاب، فهم يفضلوننا، لأن بديلنا الفعلي هم الإرهابيون الذين جاؤوا من كل حدب وصوب، وبذلك نحن أهون الشرين بالنسبة لهم. بعد أزمة السلاح الكيماوي بت مطمئنا أن الأميركيين لن يكونوا طرفا في العمل على إسقاطنا، وهذا ما أعطى دفعة قوية لحربنا على الإرهاب بعد إتمام الصفقة.

١١

لم يعد هناك خيار، العالم كله يستخدم ضدنا كل وسائل الحرب العلنية والسرية ويُجيش كل شيء ضدنا، لم يعد هناك سلاح لم يستخدم من أجل إسقاطنا وكسر صمودنا وإسقاط مقاومتنا للمخططات المعادية في المنطقة. ولأن الحرب قذرة يصبح كل شيء فيها متاحا ومباحا، فيها تسقط كل المحرمات، فلا محرمات بعد سفك دمنا. لم يتركوا لنا خيارا، يخوضون ضدنا حرب استنزاف منذ سنوات، بلدنا المحصنة ضد المؤامرات، وحدتها الوطنية قوية، لذلك صمدنا كل هذا الوقت، وسننتصر في حربنا على الإرهاب وعلى المؤامرة الدولية المحاكة ضدنا. لأنها الحرب، وجدت كل الأسلحة طريقها إلى الميدان. مبكرا، بعد سنة من اندلاع الأزمة عندما باغتنا الإرهابيون في ريف حلب وأخذوا بتقدمهم السريع يهددون المدينة، كان لا بد من تحرك سريع، خاصة وأن قواتنا من الصعب أن تصل إلى هناك بالسرعة المناسبة، كان عليّ التفكير سريعا في

الطريقة المناسبة للرد على هذا التقدم باتجاه حلب. فورا، اتخذت قراري باستخدام صواريخ سكود الروسية بعيدة المدى، وأبلغت الأوامر إلى القوة الصاروخية، التي أطلقت الصورايخ من الكتيبة ٥٧٨ المتمركزة في منطقة القلمون، وقد نجحت الصورايخ في تأخير تقدمهم هناك، كما نجحت في زعزعة مواقع الإرهابيين في الرقة، وهي أولى المدن التي خرجت عن سيطرتنا، ما جعل الإرهابيين يختلفون في ما بينهم، لتأتي داعش وتطرد الآخرين من هناك سريعا، وتعلن المدينة بعد ذلك عاصمة لدولة الخلافة، التي امتدت من الموصل إلى الرقة ودير الزور، مع أجزاء واسعة من البادية السورية، وصولا إلى أطراف حلب وحماة. لقد كان الدعم الأميركي لداعش واضحا، من خلال إعطاء الأوامر لوحدات الجيش العراقي بالانسحاب من محافظة الموصل وترك أسلحة وآليات تعود لثلاث فرق عسكرية هدية لداعش.

لم تكن لدينا الأعداد الكافية من الصورايخ البعيدة المدى لاستخدامها الواسع ضد الإرهابيين، كما أن كلفتها المالية كبيرة، ما جعلنا نقتصر في استخدامها على حالات ميدانية خاصة، عندما تشكل منطقة ما خطرا وتكون أحوال الطقس سيئة، في هذه الحالة بتنا نستخدم الصورايخ

البعيدة المدى فقط. وفي الأوضاع الأخرى، استخدمنا البراميل المتفجرة، وهي اختراع روسي، درسه العسكريون السوريون في الكليات الحربية الروسية. وهو بسيط ورخيص وفعال. يتكون من أغلفة معدنية أو اسمنتية، يحتوي على كمية كبيرة من مادة «TNT» شديدة الانفجار مع قطع معدنية ومسامير وقطع خردة، تتحول كلها إلى شظايا وقت الانفجار، مزودة بصاعق ميكانيكي في المقدمة ينفجر عند سقوطه الرأسي. بعد أن تبين لنا فعاليتها الكبيرة عندما استخدمناه أول مرة ضد تجمعات الإرهابيين في سلقين في ريف إدلب. استخدمنا هذه البراميل بشكل واسع من أجل تطهير البيئات الحاضنة للإرهاب. كان لهذه البراميل فعالية قوية في إخراج الإرهابيين من المناطق التي يتحصنون فيها، صحيح أنها لا تتمتع بدقة الإصابة، لكن تدمير بيئة الإرهابيين لا يحتاج الدقة في الإصابة، بقدر ما يحتاج دائرة نار كبيرة، تستطيع القضاء على البيئة الحاضنة لهم، وهي ما توفره هذه البراميل بدائرة النار التي تصنعها بدائرة قطرها حوالي ٢٥٠ مترا. وما سهل علينا استخدام هذا النوع من الإستراتيجية في تفريغ المناطق من الإرهابيين، هو عدم امتلاكهم لأسلحة دفاع جوي فعالة ضد مروحياتنا، ما

أعطانا تفوقا جويا استخدمناه في محاربتهم وتدمير بيئاتهم الحاضنة. بعد فشل الهجوم الواسع للإرهابيين على دمشق، وكان هذا الهجوم ذروة التصعيد، أخذت مجموعاتهم بالتراجع في محيط دمشق، ما جعلهم يوسعون الحرب علينا على جبهات أخرى، مثل حلب وحماة وحمص وغيرها. مع توسع الحرب علينا، وانتشار الإرهاب على نطاق واسع وتوسع القتال ضده، حتى التفوق الجوي لم يعد يكفي، فاستعنا بأهالي المناطق وشكلنا منهم مليشيات محلية، لتسد النقص الحاصل بحكم انتشار الجيش في كل المدن السورية، وهو ما ترك فراغات أمنية سدتها هذه الميلشيات المحلية، التي تم في ما بعد تجميعها تحت اسم «قوات الحماية الشعبية» وقد انضم إليها كثيرون لم نكن راضين عنهم، لكنهم أثبتوا وطنية عالية في التصدي للإرهاب، رغم التجاوزات التي ارتكبوها في العديد من المناطق. ولكن أيضا في الحروب تستطيع أن توظف السيء من أجل أهداف نبيلة.

لأنها معركة تحالف دولي كبير ضدنا، فنحن لا نستطيع أن نكون وحدنا في المعركة، لقد حشدنا كل قوتنا، واستخدمناها كلها، صحيح صمدنا لكننا لم ندحر الإرهابيين. أدركت أننا بحاجة إلى مساعدة إضافية. لا بد

لحلفائنا أن يقفوا معنا في حرب الجميع ضدنا. وقفت إيران معنا طوال السنوات الماضية، اعتبرت الحرب حربها، ولم تبخل علينا لا بالمال ولا بالسلاح ولا بالرجال ولا بالخبرات العسكرية، كان هذا مهما لدعم صمودنا في مواجهة المؤامرة وإفشالها، الدعم الإيراني ساهم مساهمة فعالة في صمودنا في وجه المؤامرة، لكنه ليس كافيا للنصر. لذلك كان لا بد من عمل شيء ونقل المعركة خطوة إلى الأمام لمصلحتنا، حتى يتم كسر حالة المراوحة في المكان التي سادت خلال الفترة المنصرمة من الصراع. أصبح التحرك وإيجاد حل جذري للوضع ملّحا وضروريا، هذا الوضع الآخذ بالاستطالة دون معنى وهو يكرس واقعا لا نريده، ويشعرنا أننا نخسر المعركة. تناقشت مطولا مع أصدقائنا الإيرانيين في إمكانية إشراك الروس في الحرب الدائرة في بلدنا، لم يكن عندهم أي مانع، بل على العكس، هم يريدون تعزيز سلطة الدولة على كل الأراضي السورية، بما فيها تلك التي يسيطر الإرهابيون عليها والتي يجب طردهم منها. وقد استقبلت قائد الحرس الثوري الايراني مبعوثا من المرشد وتداولنا بالأمر، وكان المرشد موافقا على هذه الخطوة، ووجه تعليمات إلى المسؤولين الإيرانيين بدعم مسعانا عند

الروس من أجل تعزيز وضعنا العسكري. في الداخل ناقشت الموضوع داخل العائلة ورحب الجميع بهذه الخطوة الذكية. كما استمعت إلى رأي وزير الدفاع، وهو اعتبر الخطوة في غاية الأهمية لدعم جهود الجيش في التصدي للمؤامرة ولتغيير موازين القوى على أرض المعركة. استمعت إلى رأي الأجهزة الأمنية والمستشارين العسكريين والسياسيين، الجميع رحب في الخطوة، كانت فكرة عبقرية في تغيير موازين القوى على الأرض بالاستعانة بالروس. لقد علمتني الحرب التفكير الاستراتيجي البعيد عن النمطية والذي يأتي بأفكار مبدعة غير تقليدية، رغم قذارة الهجمة الشرسة علينا. بعد أن حسمت قراري بالاستعانة بالروس، كان عليّ أن أتحرك باتجاه أصدقائنا، صحيح أنهم حمونا خلال سنوات الحرب من قرارات دولية في مجلس الأمن تستهدف إضعافنا وإخضاعنا لقرارات مدمرة لقدراتنا الوطنية، باستخدام الفيتو لمصلحتنا عدة مرات، وكانت هذه الحماية السياسية والدولية مهمة لدعم صمودنا على الأرض وحماية ظهرنا في المؤسسات الدولية. كما سبق وساهموا في تفكيك المخطط الأميركي في العدوان علينا من خلال اقتراح فكرة التخلص من السلاح الكيماوي الذي جنبنا مواجهة مباشرة مع أميركا لم نكن

نحتاجها في ظروف صراعنا. كل هذا كان جيدا، ونحن نحفظه لأصدقائنا الروس في دعمنا ضد العدوان. الأحداث المتلاحقة تقول، أصبح من الضروري تغيير ميزان القوى على الأرض وهذا لا يحصل بالدعم السياسي وحده، لا بد من إيجاد غطاء عسكري من قوة عظمى كروسيا يعدل من ميزان القوى ويحمينا من أي اختلال مفاجئ في ميزان القوى لغير صالحنا، ويحمينا أيضا من تدخل دول مجاورة مثل تركيا. كان الروس مستاءين من الأميركيين بسبب سياستهم في أوكرانيا والسياسة الأمنية في شرق أوروبا التي اعتبرها الروس تهديدا لهم. وجدت الفرصة مواتية أن أطلب تعزيز التعاون بيننا وبينهم ونقله في الجانب العسكري إلى مستوى أعلى. طلبت من الروس عبر القنوات الدبلوماسية لقاء شخصيا مع الرئيس الروسي لمناقشة قضايا مصيرية وفي غاية الأهمية، لا يصلح نقاشها عبر مبعوثين، وأخبرتهم أن لا مانع لدي من أن تكون زيارتي لموسكو سرية. وافق الرئيس الروسي على استقبالي وأبدى استعداده لمناقشة مفتوحة حول للقضايا التي تهم البلدين، وتم ترتيب الزيارة سرا.

على مدار يومين قضيتهم في موسكو مصطحبا معي وفدا صغيرا من المستشارين والأمنيين وبعض الضباط من هيئة

الأركان، كانت المناقشات صعبة مع اللجنة التي شكلها الرئيس الروسي للمفاوضات معنا، وعلى رأسهم وزير الدفاع ومدير الكي جي بي، واللذان كانا يتخوفان من تورط روسي كبير في سورية - فما زال الجيش الروسي يعاني من عقدة أفغانستان - دون أن يكون له جدوى بالنسبة للسياسة والمصالح الروسية. لذلك، كانت المفاوضات مع الرئيس الروسي أسهل من المفاوضات مع مساعديه، فعندما تفاوض صاحب القرار، تعرف أن كل كلمة يقولها لها معنى وقادر على وضعها موضع التنفيذ. قبل الذهاب إلى موسكو، قرّرت أن أقدم أي تسهيلات يطلبونها مقابل أن يكونوا موجودين عسكريا معنا على الأرض هنا. لأن الوجود الروسي الرسمي، يجعل الكثيرين في المنطقة يحسبون ألف حساب لهذا الوجود، بما فيهم أميركا التي باتت جارة لنا، بحكم قواعدها العسكرية في جنوب تركيا التي تنطلق منها الطائرات التي تدعي أميركا أنها تقصف مواقع داعش، بينما هي في الحقيقة تقصف المدنيين في سورية والعراق. وهم بالتأكيد لا يرغبون بالاصطدام مع الروس الغاضبين منهم بعد أن قرّروا سياسة انسحابية من الشرق الأوسط ومن العالم. لو أرادوا التأثير فعليا على داعش لطلبوا من الأتراك

وقف تدفق السلاح إليهم، ولكان الأتراك أوقفوه فعلا. الجميع يمارس الكذب في السياسة. كنت أقدّر أن للروس مصلحة مباشرة في التدخل العسكري، ليس في مواجهة الأميركيين فحسب، بل لهم مصلحة مباشرة في ضرب الإرهابيين أيضا، فالآلاف منهم أتوا من روسيا وفي حال عودتهم إلى هناك يشكلون خطرا داهما. عندما طلب الروس تقويما لأوضاعنا العسكرية، قدمنا لهم الصورة كما هي في الواقع، حالة تموضع قواتنا، والأماكن التي يسيطر الإرهابيون عليها، وأماكن الأخذ والرد معهم. وعندما سألوني عن المشكلة التي تعاني منها قواتنا. قلت أن المشكلة بوضوح بالنسبة لنا، هي ضعف قدراتنا النارية الجوية في التأثير على مسار المعارك. قلت هذا الكلام لمساعدي الرئيس الروسي، وقلته مرة أخرى في اللقاء التالي مع الرئيس الروسي. تركز النقاش حول كيفية تعزيز القدرات النارية الجوية السورية، من خلال سلاح الجو الروسي مباشرة، الذي يحتاج إلى قاعدة جوية على أن تكون قريبة من الميناء الذي تشغله القوات البحرية الروسية في طرطوس. رحبت فورا بالاقتراح وقدمت اقتراحا معززا، وهو أن يكون مطار اللاذقية موقع القوات الجوية الروسية في سورية، قال الرئيس

الروسي: «الوجود العسكري الروسي سيكون لفترة محدودة وسيقتصر على الدعم الجوي ولا يشمل المشاركة في قوات أرضية.» وافقت على ذلك فورا، ووافقت على كل الاشتراطات الأخرى حول استقلالية القاعدة الجوية، وحول حصانه العسكريين الروس الموجودين في سورية من المحاكمة على الأراضي السورية. لم تكن لهذه الشروط أهمية، كنا بحاجة ماسة إلى قوة النار الجوية الروسية لوقف تقدم الإرهابيين في الكثير من الأماكن، ودحرهم فيما بعد، وكان عليّ أن أعمل بأقصى جهد من أجل دخول هذه القوة ساحة المعركة في أسرع وقت. بعد يومين مضنيين من المفاوضات وقعنا اتفاق التعاون مع روسيا، على أن تتمركز القوات الجوية الروسية في مطار حميميم في اللاذقية، وجرى العمل سريعا لتوسيع القاعدة الجوية من أجل أن يشغلها الروس، لا شك بأن قرار الاستعانة بالروس، كان أهم القرارات في التأثير على مصير ومسار الحرب الجارية في بلدنا.

قبل فترة وجيزة حصل الرئيس الروسي على تفويض مجلس الدوما الروسي بمحاربة الإرهاب، منذ حصوله على التفويض بدأت الطائرات الروسية قصف مواقع الإرهابيين في

حلب وادلب وريف دمشق وغيرها من المواقع. لم تعد الحرب كما كانت قبل دخول القوات الجوية الروسية، والتي نشرت شبكة دفاعات جوية لحماية قاعدتها، بعد إسقاط تركيا لطائرة روسية، ادعت أنها خرقت مجالها الجوي، ما سبب أزمة سياسية بين البلدين.

سيسجل التاريخ أنني بهذا الاتفاق مع روسيا حميت سورية من أبشع مؤامرة تعرضت لها على مدار تاريخها الطويل. فبعد الاتفاق عملنا من أجل سورية أكثر استقلالية، والسوريون الذي تعمدوا بالنار والتضحيات أصبحوا أكثر انسجاما وتجانسا مما كانوا عليه قبل الحرب. بات السوريون المتآمرون خارج سورية هائمين على وجوههم، أو محصورين في الأماكن التي يسيطر الإرهابيون عليها والتي تتقلص مساحتها يوما بعد يوم. لا خوف على مستقبل سورية، صحيح أنها عاشت على مدى السنوات الماضية حرب الجميع عليها، لكنها استطاعت الصمود في وجه جميع المتآمرين. بدأنا نستعيد سورية التي نريد، ولا شك بأن الحرب ذاهبة إلى نهايتها بانتصارنا على أعدائنا.

خمس سنوات من الحرب المستمرة علينا، لا هدنة، ولا فترة راحة، أعداء من كل العالم اقتحموا بلدنا. لم يتوقع

أحد صمودنا في وجه الحرب الشرسة علينا. منذ اندلاع الصراع، قال جميع أعداء الوطن، إن أيامي في سورية باتت معدودة، وإن سورية ستكون قريبا بلا رئيسها الذي قمع شعبه، لكن مرت الأيام والأشهر والسنوات، وأنا ما أزال في موقعي، محطما كل التنبؤات السخيفة بسقوطي. حاولوا التأثير علينا بفصل الرئيس عن الشعب والاستفراد بمنصب الرئاسة على اعتباره المشكلة، كل ذلك للخلاص من سياستنا المعادية لكل مشاريع التآمر في المنطقة. لم يدركوا أن المعادلة في سورية مختلفة عن معادلة الدول الأخرى في الحكم والسلطة. ولم يتخيلوا مستوى الاندماج والوحدة بين الشعب ورئيسه المعبر عن أهدافه وعن طموحاته، ولم تكن هتافات «بالروح بالدم نفديك يا ...» فارغة من المعنى وشكلية، لقد جاء الوقت الذي تبين فيه، أن الشعار يعبر حقيقة عن تلاحم استثنائي بين القائد والشعب، ولا أبالغ إن قلت: «أنا البلد والبلد أنا ، وحدة واحدة» ليس هذا ما أقوله أنا بوصفي الرئيس السوري، بل ما تقوله تجربة الحرب المريرة التي نخوضها منذ سنوات ضد أوسع ائتلاف معاد عرفته البشرية يوما. لذلك، كان صمودنا أسطوريا بالنسبة للآخرين مذهلا وغير متوقع. أن يصمد هذا البلد الصغير في

معركة الجميع ضده، وأن يتحول بفعل هذا الصراع إلى مركز كوني لا يمكن تجاوزه، فهذا لم يكن في الحسبان. للحرب تداعياتها التي لم يكن أحد قادرا على التنبؤ بها سلفا، والغريب أن أهمية سورية تزداد كلما زاد ضعفها حسب تقديرهم، ونحن نرى أن سورية تصبح أقوى في سياق الصراع وليس أضعف. صحيح أن هناك خسائر كبيرة في الأرواح والاقتصاد، ولكن لا بد للانتصارات من ثمن يُدفع، وللنصر السوري ثمن غالٍ وكلفته عالية، لأن الحرب علينا شاملة وكبيرة. استورد أعداؤنا الإرهابيين من كل مكان في العالم إلى بلادنا، حاربناهم في الثمانينات وانتصرنا عليهم واستأصلناهم من سورية. عادوا وجمعوهم لنا في سورية والعراق على اعتبار أن تجميعهم عندنا، يضعفنا ويجعلنا نُهزم في المعركة. لقصر نظرهم لم يدركوا أن هذا سينعكس وسيؤثر عليهم كما يؤثر علينا وأكثر، كانوا يعتبرون أن تحويل بلادنا إلى مناطق جاذبة للإرهابيين من بلادهم فرصة للتخلص منهم ومن احتمال قيامهم بعمليات إرهابية هناك. ليذهبوا إلى سورية والعراق ويمارسوا الإرهاب هناك كما يشتهون، وليخرجوا من البلدان الأوروبية، كما قال منطقهم، لذلك سهلوا خروجهم من بلدانهم إلى بلادنا. لم

يدركوا أن الإرهاب عابر للحدود وأنهم سيكونون هدفا له كما أننا هدف له، وأن الإرهاب لا يصلح للتمركز في مكان محدد يختارونه فهو عابر للحدود. لم يتأخر إدراكهم لهذه الحقيقة، ليس لأنهم اكتشفوا خطأ سياستهم تجاه بلداننا، بل لأنهم ذاقوا ما نذوقه من ألم عندما ضربت الأعمال الإرهابية التفجيرية التي قام بها أنصار داعش في فرنسا وبلجيكا وألمانيا وحتى الولايات المتحدة، والتي أوقعت مئات الضحايا في قلب المدن الغربية. أصابتهم الآثار الارتدادية لسياستهم في تصدير الإرهابيين إلينا ومحاصرة سورية ومحاولة تحطيم نظامها السياسي والإطاحة برئيسها. ولم تقتصر ارتدادات الحرب على أرضنا على عودة النشاط الإرهابي إلى الدول الغربية فحسب، بل باتت تتحمل أعباء هذه الحرب عبر ارتدادها عليهم في تدفق مئات آلاف اللاجئين إلى أوروبا أيضا. لم يتوقع أحد مثل هذا الارتداد بسبب ما يجري في بلادنا، وبسبب عدوانهم علينا. سرعان ما تحول هذا التدفق إلى أزمة أوروبية داخلية، حيث تعاملت هذه الدول مع اللاجئين بقسوة من أجل وقف التدفق الكبير، وهم يبنون سورا في دول وسط أوروبا من أجل وقف تدفق اللاجئين. كما يتضح للجميع أننا لسنا وحدنا الذين ندفع ثمن العدوان على

سورية، بات العالم كله يدفع هذا الثمن، وهذا ما أعاد موضع سورية في مكانة أهم من المكانة التي كانت عليها قبل بدء المؤامرة، عندما صمموا المؤامرة علينا، لم يدرك مبتكروها أي أبعاد سوف تأخذ مع صمودنا في وجه أعتى رياح تتعرض لها سورية، هذه الرياح التي لم يكن أحد يتوقع أن نصمد في مواجهتها سوى عدة أشهر. كل هذه التقديرات كانت خاطئة، لسبب بسيط، أنها لم تقرأ الوضع الداخلي في سورية قراءة صحيحة. الكل قال في بداية الأزمة «أن عليّ أن أرحل» و«أن أيامي باتت معدودة.» مضى سنوات على هذا الكلام، وهناك من قاله وغادر منصبه وأنا ما أزال في منصبي. هناك من قال أن عليّ الرحيل، بات يعتبرني جزءا من الحل، كما جاء في رسائل حملها سياسيون فرنسيون لي من حكومتهم. والولايات المتحدة لم تعد تتحدث عن رحيلي، لقد أدركت تماما أن رحيلي يعني الفوضى في سورية والمنطقة والعالم، وهذا لا تريده، صحيح أنهم لا يحبونني، ولكنهم يرون ما بعد رحيلي أسوأ بكثير من حكمي، والتي أمثل فيها وحدة البلد وأحميها من الفوضى.

أكثر من صحفي سألني هل أنا نادم؟ وهناك من اتهمني بأني قاتل، وهناك من سألني إذا كنت راضيا عما جرى من

أحداث؟ سألوني عن حوادث قتل وعن المعتقلين؟ واتهموني بأني دكتاتور ويديّ ملوثة بدماء السوريين، حتى أن أحدهم سألني إذا ما كنت بكيت لما يحدث في سورية؟ وغيرها الكثير من الأسئلة التي وجهت إليّ لإحراجي، لكني ما كنت لأحرج، فأنا أملك الأجوبة على كل الأسئلة، حتى الاستفزازية منها، التي حاولت تصويري كرئيس انفعالي. لم انفعل في أي مقابلة صحفية، بالتأكيد، انفعلت كشخص وحزنت وحتى بكيت، فأنا في النهاية بشر من لحم ودم. من موقع المسؤولية تختلف النظرة، لأن المسؤولية الملقاة على عاتقي في حماية بلدي ثقيلة، لذلك فأنا أنظر إلى الأفعال التي يمكن القيام بها ولا أنظر إلى المشاعر التي أحس بها. الانفعالات لا تحمي السوريين، ما يحميهم هو الأفعال، لذلك أنا رجل عمل لا رجل عواطف يبكي على كل صغيرة وكبيرة. رجل الدولة في زمن الحرب الصعب لا وقت لديه للبكاء كالنساء، لأن العمل لا ينتظر حتى يفرغ من أحزانه، فالأمر يتعلق بحياة مواطنين ينتظرون من رجل دولتهم أن يعمل على إنقاذهم مما يعانون، لا أن يبكي على معاناتهم ولا يفعل شيئا. بالتأكيد أنا حزين على ما يجري في بلدي، لكن عليّ أن أعمل كل الوقت من أجل الانتصار في المعركة التي

فرضت علينا ولم نخترها. نحن نحمل عواطفنا في قلوبنا، والعواطف الحقيقية لا تتعلق بالعيون ولا بالدموع. العواطف الحقيقية هي التي تدفع رجل الدولة إلى العمل، أنا كرئيس، فإن الأمر بالنسبة لي يتعلق بما سأفعله، وليس بكيف أشعر، الأمر يتعلق بكيف أحمي السوريين. أنا والشعب السوري نخوض حرب الوجود في مواجهة إلغاء سورية عن الخريطة السياسية للمنطقة بتقسيمها والقضاء على الدور المقاوم الذي اختارته لنفسها، وهذا لن يحدث بفعل صمود الشعب السوري في وجه الرياح العاتية، فهو شعب أقوى من أي ريح ومن أي عاصفة.

سورية المعمدة بالدم والنار تستحق الحياة، وهي التي ستبني مستقبلها المشرق بعد رد كل المعتدين، لقد استقبلني الشعب بعد عودتي من موسكو استقبال المنتصرين، فرح الجميع في التحولات الجديدة ودخول الروس على خط المواجهة العسكرية المباشرة. صحيح أننا لم ننتصر بعد، لكن النصر بات مرئيا في الأفق وفي متناول اليد.

عندما سألني صحفي أميركي، ما الوصف الذي تعتقد أن التاريخ سيطلقه عليك؟ أجبت «آمل أن يرى في التاريخ الرجل الذي حمى بلاده من الإرهاب ومن التدخل وحافظ على

سيادة ووحدة أراضيه.» قد لا يفهم العالم كله ما جرى في سورية، لكني أعرف أن المعركة التي نخوضها حاسمة، وأن الزمن عندما يتحول إلى تاريخ ويأخذ معناه الحقيقي والتقييم الموضوعي في ترتيب الأحداث التاريخية وأهميتها ويسجل مكانتي في تاريخ سورية، لا شك بأنه سيذكر فترة حكمي بوصفها الانعطافة الأهم في تاريخ سورية، والتي لم تشكل انعطافة في تاريخ سورية والمنطقة فحسب، بل انعطافة في تاريخ العالم أيضا.

دفتر الرئيس



لم أكن الطفل المفضل عند أبي، لطالما أنبني بوصفي ابنه «الأهبل»، لا أعرف عدد المرات التي وصفني فيها بهذا اللفظ، ودارت الدائرة ليجد نفسه مجبرا على اختياري خليفة له. لا أعتقد أنه كان سعيدا في الظرف الذي وجد نفسه مجبرا على اختيار آخر من يعتقد أنه يصلح لمنصب الرئاسة. ولم يتوقف عن نعتي بـ«الأهبل» إلا عندما أصبحت مرشحا لخلافته، رغم ذلك، كثيرا ما كنت أرى في عينيه شكا في أنني أستطيع أن أكمل المهمة التي اختارني لها. أعدَّ كل شيء بشكل دقيق لاعتقاده، أنني لا أعرف كيف أتصرف إذا غاب فجأة، ولعدم ثقته بقدراتي، أعدَّ الخلافة كاملة بكل تفاصيلها، خوفا من أن أرتكب خطأ يجعلني أخسر السلطة قبل الوصول إليها. في دمشق شبه البعض ما جرى من حلولي في منصب أبي في الرئاسة، بقصة أخذ معاوية بن أبي سفيان البيعة لابنه يزيد في حياته. وتقول القصة: لم يكن معاوية واثقا من أن يزيد يستطيع أخذ البيعة لنفسه بعد وفاته، فأخذها له من علية القوم في حياته. بايع الجميع يزيدا خليفة في حياة معاوية، ما عدا عمرو بن العاص الذي تهرَّب من ذلك في حياة معاوية. قبل وفاته أوصى معاوية بأن ينزله صديقه ورفيق دربه عمرو بن العاص إلى القبر عند وفاته. عندما مات معاوية، أخبروا ابن العاص بوصية معاوية، فما كان منة إلا أن نفذ الوصية. نزل إلى القبر وأنزل جثمان معاوية، عندما أراد الخروج من القبر، رفعوا عليه السيوف وهو ما يزال في حفره القبر. قالوا له: «أما أن تبايع يزيدا خلفية للمسلمين الآن، وأما تلحق بصاحبك.» فما كان من ابن العاص بعد أن وجد السيوف تحيط به من كل جانب، سوى أن بايع يزيد بن معاوية خليفة. وقال ابن العاص بعدها: «أنها من هذا» وأشار إلى جثة معاوية في القبر. «وليست من هذا» وأشار إلى يزيد. قُصد من تداول هذه القصة في دمشق أني لم يكن لي أي دور في وصولي إلى منصب رئيس الجمهورية، وأن كل شيء قام به أبي قبل مماته ورتبه حتى بعد مماته.